6

جاك لندن

ذئب البحار

رواية



ذئب البحار

جاك لندن

ذئب البحار

ترجمة :
عمران أبو حجلة

* الناشر: دار منارات للنشر
ص. ب: ٩٢٥٠٦٢
عمان ـ الاردن

* المترجم: عمران ابو حجلة
* الطبعة العربية الاولى
١٩٨٧

العنوان الاصلي للرواية: SEAWOLF, JACK LONDON

لوحة الغلاف: تفصيل من منحوتة اليوغسلافي RADAUS
تصميم الغلاف: « منارات »
خطوط الغلاف: زهير ابو شايب

جاك لندن واحد من ألمع الأسماء التي ظهرت في سماء الأدب الأميركي. ولد عام ١٨٧٦ في سان فرانسيسكو، ولاية كاليفورنيا، ابناً غير شرعي لأبٍ يعمل عرافاً متجولاً وأم تمارس الروحانيات.

تنقل في يفاعته بين عدد من الأعمال الصغيرة للحصول على قوته، بائع صحف، حمالاً أو عاملاً على عربات الثلج، ثم في تفريغ وتحميل المراكب، الى أن تعلق بحب البحر فاتجه للعمل على السفن. في عام ١٨٩٤ قبض عليه خلال تجواله في منطقة شلالات نياغارا، واقتيد الى السجن بتهمة التشرد ليقضي فيه، دونما أية محاكمة، ثلاثين يوماً. وقد تعرف في السجن على الطبقات العاملة المسحوقة وما تعاني منه جراء استغلال أرباب العمل لها، فالتحق فور خروجه من السجن بفرع الحزب الاشتراكي في أو كلاند. وانكب على القراءة والكتابة دون كلل، وأخذ طموحه يشتد لتحقيق ما أصبح حلمه في أن يصبح كاتباً كبيراً. وكان يرى أنه كي يحقق هذا الهدف ينبغي أن تكون له فلسفته الواضحة وأفكاره المميزة.

نشرت أولى قصصة عام ١٨٩٩ في مجلة «أوفرلاند مونثلي». أما أول رواية ظهرت له فكانت «ابنة الثلوج» عام ١٩٠٢.

في عام ١٩٠٤ باشر بكتابة «ذئب البحار»، وكان آنئذٍ يعمل مراسلاً صحفياً، فكلف بالسفر الى اليابان لتغطية أخبار الحرب اليابانية ـ الروسية. وصدرت الرواية في العام نفسه لتحقق نجاحاً منقطع النظير.

كانت حياته على قصرها ـ ٤٠ عاماً ـ شديدة الغنى والتنوع، وقد كتب في خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة منها، تسع عشرة رواية، وثماني عشرة مجموعة قصصية، وثلاث مسرحيات، واكثر من ١٥٠ مقالة وثمانية كتب عن المجتمع وفي السيرة الذاتية.

من أعماله : «نداء الوحش»، «العقب الحديدية»، «ابن الذئب»، «الناب الأبيض».

مات منتحراً عام ١٩١٦.

الفصـــل الأول

أكاد لا أدري من أين أبتدىء هذه القصة، وإن كان يروق لي ان القي المسؤولية فيها كلها على عاتق صديقي شارلي فوروسيث، فقد كان يمتلك كوخا صيفيا في «وادي الطواحين» عند حضيض جبل تامالبي، لكنه لا يسكنه الا حين يحلوله ان يتسكع في شـهور الشتاء. اذ ذاك ينكب على قراءة نيتشه وشوبنهور اللذين يرتاح اليهما كثيرا. اما في شـهور الصيف فانه يفضّل ان يتفصّد جسمه عرقاً في قيظ المدينة حيث ينهمك في العمل لا يكلّ. ولولا انه كان من عادتي ان اهرع لزيارته بعد الظهيرة من كل يوم سبت وامكث عنده حتى صبيحة يوم الاثنين ـ لما كنت في هذا اليوم من شهر يناير عائما فوق مياه خليج ســان فرنسيسكو.

وليتني كنت راكبا عبّارة امينة، اذ كانت «المارتينيز» معدّية جديدة لم تقم بالرحلة الا ٤ او ٥ مرات بين سوساليتو وسان فرنسيسكو. وها هي تواجه المشكلة. ولقد تمثل الخطر في ضباب كثيف يلف الخليج شعرت بالرهبة من وجوده. كيف لا وانا رجل عاش على البر ولا عهد له بالبحر ولا باحواله! والواقع انني شعرت بنشوة مطَمْئنة حين اتخـذت مجلسي عند مقدمة سطح السفينة تحت قمرة القبطان وسمحت للضباب ان يأسر خيالي. كان نسيم عليل يهب آنذاك، وظللت لفترة وحيدا في ذلك الغموض الرطيب، غير اني لم اكن متوحّداً، اذ كنت احس بصورة خفية بوجود ربان قدّرتُ انه قبطان السفينة يستقر في قمرة زجاجية فوق رأسي.

وأراني الآن اتذكر انني فكرت في يسر الحياة الذي يتأتى بفضل تقسيم العمل. أما هو الذي اعفاني من ان ادرس الضباب والنّوء والمد والجزر وعلم الملاحة كيما اقوم بزيارة صديقي الذي يعيش على ذراع من البحر! وهمست لنفسي: من الخير ان يكون الناس اختصاصيين، فهذه المعرفة الفريـدة لدى القبطان تسـد حاجـة الوف الناس الذين لا يعرفون عن ظروف البحر وركوبه اكثر مما أعرف. هذا جانب، والجانب الآخر هو واقعي انا. فبدلاً من أن اجد نفسى مضطرا لأن أكرس طاقتي لتعلم حشد من الاشياء ـ تسنى لي ان اقوم بالتركيزعلى بضعة اشياء محددة،مثل تحليل مـوقع«ادجـار الن بو»في الأدب الأمريكي. وكان هذا موضوع مقال كتبته في دورية «اتلانتيك». وكنت في صعـودي الى

السفينة قد تطلعت بعينين شرهتين الى رجل بدين لحظتُه يقرأ «اتلانتيك» والمقال الذي كتبته نفسه، وهنا برز مبدأ «تقسيم العمل» من جديد. فالمعرفة الخاصة لدى القبطان والربان هي التي يسرت لذلك السيد البدين ان يقرأ معرفتي الخاصة عن «بو» فيما هما ينقلانه عبر البحر من سوساليتو الى سان فرنسيسكو بكل سلامة وامان.

كنت مسترسلاً في افكاري هذه. لولا ان اعترض الحبلُ وقطعه رجل احمر الوجه صفق باب الكابينة خلفه وخطا بجلبَة على ظهر السفينة. لكني قيدت الفكرة السابقة في كناشتي علّني استخدم ذلك في مقالة لاحقة اخترت لها اسم «الحاجة الى الحريّة ـ دعوى للفنان» .والقى الرجل الاحمر الوجه نظرة على قمرة الربان وحملق صوب الافق المحجوب بالضباب، ثم اجتاز السطح ذهاباً وإياباً (وبان ان ساقيه اصطناعيتان) ووقف جامدا الى جانبي. ها هو يفرج ساقيه وعلى وجهه علامات الاستمتاع والسرور. ولم اجانب الصواب حين حكمت ان الرجل قد قضى حياته عشير البحار.

«ان مثل هذا الطقس الرديء الذي نعاني منه هو الذي يجعل الرؤوس تشيب قبل اوانها». هذا ما قاله وهو يومىء برأسه جهة قمرة الربان. فقلت:

«لم اكن اظن ان هناك توترا خاصا في حياة الملاحين. فالأمر يبدو سهلا كحفظ أ.ب.ت. انهم يعرفون الاتجاه بالبوصلة، اما المسافة والسرعة ففي غير حاجة الى اكثر من التأكد منهما بالحساب».

«توتر ! خطر !» هكذا شخر، «بسيط كالأبجدية! حقيقة رياضية!»

وبدا انه يمط جسمه في الهواء ثم يثنيه الى الخلف وهو يجحرني بنظراته، ثم جعر متسائلا:

«كيف بهذا الجزر المندفع دافقا عبر البوابة الذهبية ؟ «ما سرعة ارتداده؟ وهبوب الريح؟ استمع الى ذاك، هل تفعل؟ انه جرس طوافة. ونحن نسير فوقها الآن، الا ترى انهم يغيرون الاتجاه!».

ومن خلال الضباب نفذ صوت جرس حزين، واستطعت ان ارى الملاح يدير عجلة القيادة بسرعة عظيمة. وطفق الجرس الذي بدا قبالة المارتينيز مباشرة يرنّ الآن من جهة جانبها. وكانت صافرتها تزعق مبحوحة جشاء، ومن وقت لآخر كانت اصوات الصافرات تخترق الضباب وتقرع آذاننا بشدة.

وقال الوافد الجديد، مشيرا الى صافرة بعيدة جهة اليمين:«انها عبّارة من نوع ما. هناك، اتسمع؟ انها صافرة تُنفخ بالفم. القادم عبارة صغيرة على الاغلب. آه تذكرت. ان الجحيم تفتح ابوابها لبعض الناس».

كانت العبارة غير المرئية تحت أهداب الضباب تطلق صفرة بعد اخرى، وكان البوق الذي يُنفخ بالفم يرسل طوط.. بصورة تنم عن استيلاء الرعب والفزع على الركاب.

«والآن. انهم يقدّمون احتراماتهم بعضهم للآخر ويحاولون الخلاص من الورطة بسلام».

قال الرجل الاحمر الوجه ذلك عندما خفتَ نفخ الصفارات المتعجل.

كان وجهه متوهجا، وعيناه تلمعان بالقلق، وهو يقوم بترجمة اصوات الابواق والصافرات الى معانٍ واضحة محددة. «انها صافرة سفينة بخارية تسير هناك في الجانب الايسر. وانت تسمعٍ ذلك الرجل وكأن ضفدعا يسد حلقه ـ انها عبّارة بخارية كما اقدّر تتقدم من «الرؤوس» ضد حركة الجزر».

وزعقتْ صافرة حادة وكأنها مجنونة من قبالتنا مباشرة ومن مكان قريب جدا. وفي تلك اللحظة دقت اجراس الانذار على المارتينيز. وتوقفت عجلات الدفع لدينا وسكن نبضها، ثم بدأ قلبها يخفق من جديد.

اما الصافرة النحيفة فقد انطلقت وكأنها زعيق صرصار وسط صيحات الحيوانات المفترسة الضخمة. كان زعيقها آتياً عبر الضباب من ابعدَ، على الجانب، ثم سرعان ما اخذ يضعف ويضعف..

ونظرت الى رفيقي أستوضح الواقع، فاستجاب لنظرتي قائلا:

«ان احدهم قد تجرأ على الدخول. هذا المأفون، ليتنا نغرقه. ان امثاله يسببون متاعب كثيرة. ما نفعهم؟ وماذا يسوون؟ يصعد اي حمار منهم على مركب ويسوقه من الظهر حتى فطور اليوم التالي، وهو ينفخ صافرته ليرهق اعصاب البحارة ويُشعر بقية العالم ان ينظروا اليه، لانه قادم، ولا يستطيع ان يدخل الميناء دون ارشاد! لان حضرته آتٍ في الطريق! وعليك ان تنظر اليه ايضا! وان تنحاش الى اليمين من طريقه! ذاك لطف ورقة! انهم لا يعرفون معنى ذلك ! »

كان غاضبا. وشعرت انني اكاد اتسلى من غضبه المفاجىء. وفيما كان يجتاز السطح بحنق صُعدا وسفلا، استحوذت عليّ رومانسية الضباب. وما أشد ما تجلت فيه الرومانسية آنذاك! كان خيالا أشهب لغموض لا نهائي، يربض فوق نقطة صغيرة من الارض الدوارة، وكان الرجال في قلبه لا اكثر من لمع ومضات من الضوء تلسعهم لعنة مجنونة للانهماك في العمل. انهم يمتطون جيادا من الخشب والفولاذ في قلب الغموض، ويشقّون طريقهم على غير هدى في عالم يحجبه السّديم. وها هم يزمجرون ويدقون ويرسلون كلاما ينم عن الثقة في انفسهم فيما قلوبهم حزينة واجفة من الفزع والشك.

وأعادني صوت رفيقي الى نفسي من شطحتي هذه بأن ضحك. فقد كنت انا ايضا اطوّف فيما كنت اعتبر نفسي مَكيناً واضح الرؤيا في سجف الغموض.

كان يقول:

«مرحى، ها احدهم يشق الطريق نحونا. هل تسمعه؟ انه قادم بسرعة ومتجه الينا مباشرة. أظنه لا يسمعنا، فالريح في الاتجاه المعاكس».

كان نسيم البر المنعش يهب علينا من الجهة المقابلة، وبفضله استطعت ان اسمع الصافرة بوضوح. لقد جاء صوتها من جهة جانب السفينة قبالتنا الى الامام. وسألت:

« عبّـــــارة ؟ » .

فأومأ برأسه ايجابا ثم قال:

«يبدو ان قبطانها عاجز عن السيطرة، فالملاحون عندنا قلقون من ذلك. انظر».

نظرت الى اعلى. ها هو القبطان قد دفع رأسه وكتفيه من قمرة الملاحْة. انه يحدق باهتمام شديد في الضباب، أتراه يظن انه بمجرد ارادة صلبة ونظرة حازمة سوف يخترق ركامه!؟ كان وجهه يبدو عليه القلق مثل وجه رفيقي، الذي خطا نحو السلم وجعل يحدق بنفس القلق والاهتمام جهة الخطر المعمّى على انظاره.

ثم وقعت الواقعة.. جاءت بسرعة لا تصدَّق. بدا ان الضباب قد انفرج وكأنه شقّه اسفين، وبرز قوس قارب بخاري يجر وراءه كومات من الضباب على كل من جانبيه وكأنها اعشاب بحرية على خرطوم نون، حوت النبيّ يونس. ورأيت قمرة الملاحين ورجلا اشيب اللحية مستندا الى مرفقيه قد اخرج نصف جسده من القمرة. كان يرتدي لباسا رسميا ازرق. وأذكر انني لحظت شدة اناقته وهدوءه المستكين.

كان هدوءه في تلك الظروف مخيفاً حقاً. لقد تقبل المصير وعانق القدر ثم سار معه يداً بيد، وقاسى الضربة بكل برود. وفيما كان مستندا هناك، اجال فينـا نظرة هـادئة تفحصنا بها. أتراه يود تحديد النقطة المحددة للاصطدام! ولم يُبدِ اي ملاحظة او اهتمام عندما صاح ملاح المارتينيز غاضبا حانقا: «ها قد فعلتَها».

نظرت الى الخلف فتحققت ان العِبارة كانت واضحة جدا، فلا حاجة الى رد عليها ولا اجابة ضرورية لها. وقال لي صاحب الوجه الاحمر:

«تمسّك بشيء، وتعلّق به». لقد زايله غضبه وبدا انه اصيب بعدوى الهدوء الكامل.

«وانظرْ الى صراخ النساء»، قال ذلك بلهجة حازمة ـ بل بمرارة لا شك انه قد عانى مثلها من قبلُ. واصطدمت السفينتان قبل ان استطيع تنفيذ ما نصحني به.

ولا بد ان الارتطام كان في صفحة عـرض المركبـين، لأنني لم أر شيئا واضحـا بخصوص ذلك، اذ مر القارب البخاري الغريب الى ما وراء خط الرؤية لديّ. اما المارتينيز فقد استدارت الى الخلف بحدّة ثم كان هناك ارتطام وصرير. فالخشب يتمزّق قد تشظى من الحديد.

ولقد القي بي على وجهي فوق السطح المبلل. وقبل ان استطيع النهوض على قدميّ سمعت صراخ النساء. كن يولولن. وكان عويلهن هذا، وانا على يقين مما اقول ـ اشد الاصوات التي تجمّد الدم الما. انها تعزّ على الوصف. فأوقعني ذلك في نوبة من الالم. واندفعتْ الى رأسي وحشية غريزة الحياة فتذكرت اجهزة النجاة المخزونة في الكابينـة. حاولت السعي اليها لكنه اعترضني عند بابها سيل من الرجال والنساء المندفعين في تيار فوضوي عنيف. اما ما حدث في الدقائق القليلة التالية فلا اتذكره، وان كنت استعيد جيدا

انني سحبت احزمة النجاة من فوق مشابكها، فيما كان ذو الوجه الاحمر يثبتها حول اجساد مجموعة هستيرية من الرجال والنساء.

لا زالت هذه الذكرى واضحة جدا في ذهني كأية صورة رأيتها حقا. بل بوسعي ان اراها الآن ـ الاطراف المهشمة للخرق الذي حدث في جانب الكابينة، والضباب الاشهب الذي تسرب منه ودارت دوامته، والمقاعد المنجّدة الفارغة التي تنطق بانها خلت من اصحابها فجأة وطار ما كان عليها من الرزمات، وحقائب اليد، والمظلات والبقج الملفوفة. وأجدني ارى الآن ذلك الرجل البدين الذي كان يقرأ مقالتي من قبل، اراه ملفوفا في الفلين والخيش، والمجلة في يده وهو يسألني بالحاح فيما اذا كان هناك خطر آني مباشر، بصوت يندّ منه على وتيرة واحدة؛ وكذلك صاحب الوجه الأحمر، فهو يقلز بجرأة على ساقيه، ويشد احزمة النجاة حول جميع القادمين اليه. واخيرا اكاد احس زعيق مارستان صارخ من النساء.

كان صياح النسوة وصراخهن هو الذي حطم اعصابي بالفعل. ولا بد انه لم يثر اعصاب ذي الوجه الاحمر فحسب بل ارهقها كذلك، لأن ذهني لا يزال يحتفظ بصورة له لن تشحب ظلالها أبدا: كان الرجل البدين يحشو المجلة في جيب معطفه وينظر بذهول، ومجموعة متشابكة من النساء، مرعوبة، بوجوه بيضاء من شدة الشحوب وافواه فاغرة ـ تصرخ كأنها قطيع من ارواح ضائعة، فيما كان ذو الوجه الاحمر منقلب السحنة قرمزي الوجه من الغضب، ذراعاه ممدودتان فوق رأسه وكأنه يطرد الصواعق، وهو يصيح: «اخرسن،اخرسن».

والواقع انني اخجل الآن حين اتذكر كيف ان ذلك المنظر دفعني الى الضحك فجأة. وفي اللحظة التالية ادركت انني غدوت رجلا هستيريا. أما كانت تلك النسوة بشرا من جنس امي واخواتي، يحوم فوق رؤوسهن الموت، وهن غير راغبات فيه!؟ كذلك اذوب حياء حين اتذكر ان الاصوات التي أطلقنها ذكرتني بزعيق الخنازير حين تصرخ تحت سكين الجزار بعد ان يحز منها الحلقوم. ولقد راعني مطابقة رنة الصوت وشدة الفزع في الحالين. اولئك النسوة القابلات لان تكنّ الواحدة منهن اسمى الاحاسيس وارق العواطف، ها هي افواههن مفتوحة وهن يصرخن فزعا. انهن يردن ان يعشن لكنهن عاجزات، كالفئران في المصيدة، فهن يزعقن مثلهن.

ساقني الرعب من ذلك الى سطح السفينة، وكنت اشعر بالغثيان والدوخة فجلست على مقعد هناك. وبصورة غائمة من اثر الدوار رأيت وسمعت رجالا يندفعون صارخين فيما هم يناضلون كي ينزلوا قوارب النجاة من اماكنها. كان ذلك تماما مثلما قرأت عنه في الكتب. واستعصَت المشابك. لم يعمل شيء كما ينبغي. اية ورطة، هذه! قارب واحد تم انزاله فملىء بالنساء والاطفال، وتعبأ من الماء فقنطر ثم انقلب. وقارب آخر تم انزال كلّابة من جهة واحدة لكنه ظل عاصيا بالكلاب من الجانب الآخر، فتم التخلي عن محاولة انزاله. ولم يكن يُرى شيء من القارب البخاري الغريب الذي اوقع المصيبة، وإن سمعتُ الرجال يقولون انه لا بد ان يرسل قوارب نجاة لمساعدتنا.

هبطت الى الإفريز السفلي من سطح السفينة. كانت المارتينيز تغرق بسرعة والماء آخذ في الارتفاع. هـا هم الركاب يهـرولون الى السطح العلوي،وآخـرون ممن في الماء يصرخون طالبين سحبهم الى ظهر السفينة مرة ثانية. ولم يُبدِ أيّ اهتمام بهم اي احد. وانطلقت صرخة باننا آخذون في الغرق. وداهمتني الفوضى التي تلت ذلك فوجدت نفسي منحشرا وسط موجة متزاحمة من الاجساد. وقفزت. كيف تم ذلك، لا ادري، بيد اني ادركت فورا لماذا يصرخ اولئك الذين في الماء طالبين العودة الى السطح. كان الماء قارص البرودة ـ الى درجة الألم. وكانت اللجّة التي غطست فيها سريعة وحادة كأنها شعلة من نار. لقد نفذت فيّ حتى النخاع وشدتني مثل قبضة الموت. ولهثتُ من الالم والصدمة مالئا رئتي بالهواء قبل ان يدفعني جهاز الانقاذ صعدا الى سطح الماء.. وتسرب الملح الى فمي وكان طعمه حارقاً شديداً. كنت اكاد اختنق بما تسرب الى فمي ورئتي من كتلة ملحية لاذعة.

لكن قَرض البرد كان هو الأشد بعثاً على الأسى. انه يكاد يجمدني. هل استطيع البقاء حيّاً اكثر من بضع دقائق! ها هم الخلق يتواثبون في الماء من حولي. انهم يصارعون الحياة. الستُ اسمعهم يصرخون الواحد منهم على الآخر طالبين النجدة والانقاذ! وكذلك سمعت صوت المجاديف. وفيما كان الوقت يمر كنت اعجب من نفسي كيف ما زلت حيّا. لم يكن هناك اي شعور في طرفي السفليين، لقد دهمهما الخدر وسيطر عليهما، بل اخذ يصعد في جسدي ليلتف حول قلبي ويتسلل اليه. موجات صغيرة تعلوها قمم قسرية من الزبد ظلت تتكسر فوق رأسي بصورة موصولة، وتدخل فمي وتبعث بي الى خدر خانق.

وجعلت الضجة تبدو غير واضحة في اذني، وسمعت صراخاً يائساً لآخر مرة من على مسافة مني وعرفت ان المارتينيز قد ابتلعها الغور. ثم انني ولا ادري بعد كم من الوقت ـ عدت الى حالة الصحو يتملكني خوف شديد. كنت وحيداً الآن. لم أعد أسمع نداءات استغاثة ولا صراخاً وانما صوت ارتطام الأمواج وحده، وقد احاله الضباب اجوف رتيبا.

ان الاحساس المؤلم بالمصيبة بين حشد من الناس يشترك افراده في المعاناة ليس شديدا نافذا مثله حين يكون المرء بمفرده. مثل هذا الألم هو الذي شعرت به الآن. هل كان التيار يسوقني الى الهاوية؟ كان ذو اللحية الحمراء قد قال ان الجزر يندفع عبر البوابة الذهبية. فهل تراني الآن مندفعا معه صوب الأعماق؟ وطوق النجاة الذي اطفو بفعله! أليس عرضة لأن يتقطع مزقا في أية لحظة؟ لقد سمعت من قبل ان مثل هذه الاشياء انما تصنع من ورق مقوى وقصبات مجوفة فما اسرع ما تتشبع بالماء، فتمتلىء، ومن ثم لا تعود تطفو. كيف اذ ذاك وانا لا اعرف السباحة ذراعا واحدا! كنت وحيدا، طافيا بارزا وسط امتداد شاسع من الماء. واستولى عليّ شعور بالجنون، أنا اعترف بذلك، فصرخت بأعلى صوتي كما فعلت النساء من قبلي، وضربتُ الماء بيدي الخدرتين.

كم بقي هذا الحال؟ لا علم لي البتّة؛ لأن غيبوبة تدخلت آنذاك وجعلتْ صفحة ذاكرتي بيضاء، فلا اتذكر من حالي هذه اكثر مما يتذكر النائم العادي من حلم مزعج. وعندما افقت بدا لي ذلك وكأنه بعد قرون من الزمن، ورأيت فوقي تقريبا، ومتسللا من

خلال الضباب، مقدمة سفينة، وثلاثة قلوع مثلثة الشكل، كل منها يحتضن الآخر.. قد ملأت بطونها الريح.

وحيث قطعت المقدمةُ صفحة وجه الماء كان هناك زبد ورغوة وهدير. وقدرت انني في طريقها مباشرة، فحاولت ان اصرخ. لكني لم استطع، فقد كنت مُنْهَكاً . وغطست المقدمة وكادت تشدخ رأسي تماما، مرسلة زخة من الماء فوقه مباشرة. ثم بدأ جانب السفينة الاسود يمر حذائي معارضة، الى درجة قريبة جدا مني، بحيث كان في مقدوري ان المس خشبها القطراني بيدي. وقد حاولت التعلق بها مصمما في جنون ان انشب اظافري في الخشب، لكن ذراعي كانتا رخوتين لا تقويان، قد فارقتهما الحياة. وحاولت ثانية ان اصيح، لكن صوتي احتبس، حتى انني لم اسمعه.

كان بدن السفينة منطلقا يهبط بين قمتي موجتين لحظةَ لمحتُ رجلاً يقف قبالة عجلة القيادة وآخر بدا لي انه لا يفعل اكثر من نفث الدخان من سيجار في فمه.

لقد رأيت الدخان يخرج من بين شفتيه فيما هو يدير رأسه ببطء وينظر في الماء صوب الموقع الذي كنت فيه. كانت نظرته غير مبالية، لم يقصدها، مجرد نظرة عرَضية القاها من قبيل ما يفعله الناس حين لا يسترعي انتباههم شيء محدد وانما يتصرفون لمجرد انهم احياء فلا بد ان يفعلوا شيئا. لكن الحياة والموت في نظري كانا معلقين بتلك النظرة. لقد شاهدت مقدم السفينة يغيّبه الضباب، ورأيت قفا الرجل الذي عند العجلة، ورأس الرجل الآخر يستدير ببطء عندما وقع بصره على الماء وتطلّع بسبب ما تجاه حيث اكون. كان يظلل وجهه شرود بائن وكأنه في حالة تفكر عميق حتى انني خشيت ان لا يراني فيما لو وقع نظره عليّ في الماء. لكن عينيه وقعتا عليّ، بل قابلتا عيني في خط مستقيم. لقد ابصرني. فوثب الى العجلة ودفع الرجل الاخر جانبا، وادار العجلة حول نفسها، احدى يديه فوق الاخرى. كان يصيح ملقيا اوامر من نوع ما. وبدا ان بدن السفينة قد تحول فغدا قطرا على شكل مماس هندسي تماما لخط سيره السابق. اذ ذاك خرجت السفينة من طيات الضباب وغدت في مجال نظري بصورة واضحة.

شعرت انني على وشك ان اعود الى نوبة من الغيبوبة، فحاولت بكل قواي المنهوكة ان اتدارك ذلك. آه من عدم الصحو الخانق والظلام الذي كان محدقا بي! وبعد قليل سمعت ضربات المجاديف تقترب وتقترب. ثم سمعت صوت رجل ينادي.

وعندما غدا قريباً جدا سمعته يصرخ بنبرة غاضبة «لماذا بحق الجحيم لا تردّ؟» انه يقصدني. هكذا قدّرت. لكن البياض والظلام هاجمني من جديد.

الفصـــل الثـــاني

بدا لي انني اتأرجح علىٍ ايقاع عنيف عبر افق شاسع كمدار الفلك. وان وميض لمحات من الضوء يمر عني تاركاً اياي هائما في قبة الوجود. كانت نجوما (كما عرفت) وشهباً محترقة هي التي ملأت طيراني عبر اجواء الشموس. وحين بلغت اقصى تأرجحي وتهيأت للعودة الى بداية الشوط، دهمني صوت عنيف هدر في مثل هزيع الرعد. ولفترة لا يمكن قياسها كنت اسمع طنين القرون الخامدة يتواتر رجعُه عليّ في طيراني الهائل.

لكن تغيرا حدث لوجه ذلك الحلم، اذ لا بد انه كان كذلك. لقد اخذ الايقاع يغدو اقصر فأقصر. وغدوت اندفع من شوط في التأرجح الى شوط الارتداد التالي بسرعة كبيرة مزعجة. انا لا أكاد التقط نفسي الآن، فما اشد ما كنت مندفعا من قبل في السموات! لقد أخذت دقات الجرس تتكرر بسرعة وتغدو أشد عنفا. وبدأت انتظرها بفزع لا يوصف. ثم بدا وكأنني أجر فوق رمال بيضاء ساخنة من لفح حرارة الشمس. وافسح ذلك مكانه الى شعور حاد من الألم لا يحتمله مخلوق. كان جلدي يحترق في تيار من النار. ودق الجرس، ثم اعول. وتتابعت نقاط الضوء اللامعة كالشرر منطلقة عني في نهر غير متقطع، وكأن كامل النظام الشمسي آخذ في السقوط في الفراغ. ولهثت، والتقطت نفسي بألم، وفتحت عيني. كان رجلان يركعان بجانبي، يهتمان بي. وكان ايقاعي العنيف هو ايقاع ارتفاع وانخفاض جسد السفينة في البحر. اما الدق المرعب الذي ظل يقرع اذني فكان من مقلاة معلقة على الجدار تظل تطق بالخشب حسب ارتجاج السفينة. وتبقى الرمال الحارقة، وكانت هذه يد رجل خشنة تمسد صدري العاري. وانتفضتُ بفعل الألم الذي سببته تلك اليد ورفعت رأسي. كان صدري احمر مدعوكا رأيت عليه مشحات من الدم تـظهر من خـلال جلده الملتهب.

«ذاك يكفي يا يونسون» . هكذا قال احد الرجال. «الا ترى انك قد أدميت جلد هذا السيد بكامله؟»‌.

كان الرجل الذي نودي اليه «يونسون» رجلا من النمط الاسكندنافي الضخم، فتوقف عن دعكي وانتصب بغلظة على قدميه. اما الرجل الذي خاطبه فقد كان واضحا انه طباخ تنم قسمات وجهه وخطوط تضاريسه عن انه إمّعة، مخنث، رضع الانحناء والرضوخ مع

حليب امه. كان طنطور موسلين على رأسه ومريول قذر مربوط على حقويه يعلنان بحسم انه يعمل في المطبخ القذر للسفينة التي وجدت نفسي على ظهرها.

«كيف تشعر الآن يا سيدي؟»

هكذا سألني ذلك الرجل بنبرة تنم عن انه سليل اجيال طوال من قناصة البقشيش.

ومن أجل الاجابة لويت جسمي وقعدت، ثم ساعدني يونسون في الوقوف على قدمي. وكانت طقطقة المقلاة ودقاتها ثقيلة الوطء على اعصابي. لم استطع ان اجمع افكاري. فامسكت درابزين المطبخ لاستند اليه. واصرّح ان الدهون المتجمعة على خشبته قد جعلتني اصر على اسناني من القرف ـ ووصلت مجموعة من الدسوت والقدور الساخنة حتى بلغت ذلك الوعاء المؤذي، المقلاة، فتناولتها من على المشبك وقذفت بها بحنق الى صندوق الفحم.

تذمر الطباخ من ما تبدّى من ثورة اعصابي، ودفع الى يدي قدحا ساخنا وهو يقول: «ان هذا يفيدك يا سيدي». هذه اذن هي القهوة التي يشربونها في السفينة ـ لكن شدة حرارتها كانت تعيد الحياة.

وفيما بين الجرعات من تلك المادة الذائبة هبطتُ بنظري الى صدري المسلوخ النازف واستدرت نحو الاسكندنافي. وقلت: «اشكرك يا مستر يونسون، لكن: الا تعتقد ان ما فعلته بي كان بطوليا؟» واشرت بسبابتي الى صدري.

ويبدو انه فهم الملامة التي وجهتها اليه، على فعله، اكثر من استيعابه الكلمات التي قلتها. لذا رفع راحة يده عاليا لأتفحّصها. كانت مشققة بل مشقحة من شدة الخشونة، وقد امررت راحتي على عظامه الناتئة وجلده القرني المشقح وصررت اسناني من التقزز الذي داهمني اثر ذلك.

«اسمي جونسون، لا يونسون» قال ذلك في انكليزية لفظ كلماتها ببطء لكنها جاءت سليمة، خالية تقريبا من نبرة غير اهلها حين يتكلمون تلك اللغة.

كان هناك احتجاج رقيق في عينيه الزرقاوين الفاتحتين، وبصراحة رفيقة فيها رجولة حقة ـ كسبني جونسون الى جانبه. لقد ملت اليه، فقلت:

«اشكرك يا مستر جونسون».هكذا صححت لفظي ومددت يدي الى يده مصافحا.

وتردد الرجل بحياء وثقل حركة، ونقل وزنه من على ساق الى الاخرى ثم اخذ يهز يدي مصافحا بعنف. وكانت مصافحته صادقة صادرة من قلبه. وسألته:

ـ «ألديك اية ملابس جافة ارتديها؟»

ـ «نعم، يا سيدي» .

ولحظت انه اجاب بسرور ظاهر وبخاصة حين اكمل عبارته:

ـ «الآن اهبطُ والقي نظرة على كيس ملابسي، اذا لم يكن لديك اعتراض في ان ترتدي بعضها».

وانسحب من باب المطبخ الى الاسفل وكأنه غاص او انزلق بالأحرى، وبخفة ونعومة في حركاته ادهشتني حقا. انها لم تكن اقرب الى رشاقة انسلال قط، بل الى نعومة انسياب الزيت. والحق ان تلك الانسيابية او زلق الدُّهن اثناء الحركة والتي طُلب إليّ ان اتعلمها فيما بعد ـ كانت هي السِمة الأشد ثباتا في شخصية جونسون.

وقدّرت مصيبا ان جونسون واحد من البحارة فسألته:

ـ «اين انا؟ اي سفينة هي هذه والى اين تتجه يا ترى؟»

ـ «انها تبتعد عن فارلون متجهة صوب الجنوب الغربي».

هكذا اجاب ببطء ونمطيّة وكأنه يستجمع افضل ما لديه من الانكليزية ويستذكر استفساراتي على الترتيب الصحيح. ثم استطرد:

ـ «انها سفينة الصيد «الشبح»، وهي متجهة لصيد عجول البحر الى اليابان».

ـ «ومن هو القبطان؟ يجب ان اراه فور الانتهاء من ارتداء ملابســـي».

وبدا ان جونسون قد احرج وتحير. فتردد وهو يستجمع الفاظ رده ليجيب اجابة كاملة.

ـ « القبطان هو وولف لارسن، او هكذا يناديه الرفاق. ولم اسمع ابدا اسمه الآخر. ومن الافضل ان تكون لطيفا حين تكلمه. هو مجنون هذا الصباح. ان الزميل...»

ولم يكمل عبارته. لقد دخل الطباخ. وقال:

ـ «من الخير لك ان تبعد سنارتك عن هذا المكان يا يونسون. ان «الرجل العجوز» يحتاجك على السطح وليس لك ان تتكلم عنه بسوء.»

استدار جونسون بكل طاعة جهة الباب، ومن فوق كتف الطباخ تفضل عليّ بغمزة جدّية لها معانٍ اكد بها ملاحظته التي انقطعت في الحديث حول حاجتي الى التكلم مع القبطان بأدبٍ ولطف.

كان يتدلى فوق ذراع الطباخ مجموعة سائبة ومتجعدة من اطقم نتنة الرائحة كريهة المنظر. وقال:

ـ «لقد نزعها اصحابها وكُوّمت وهي مبلولة يا سيدي. لكن عليك ان تستعملها ريثما اجفف ملابسك على النار.»

امسكْت بالدرابزين اخفف به تأرجحي بحكم ارتجاج السفينة، وبمساعدة الطباخ دبرت امري وسحَلت جسدي داخل قميص تحتـانيّ خشن من الصوف. وحـين لامس الصوف بدني شعرت بهرش وحكة من اثر الخشونة. ولاحظ الطباخ ارتجافي اللاارادي واشمئزازي.. ففرج شفتيه في ضحكة قبيحة. وقال:

ـ «انني ارجو الا تُضطر الى التعود على لبس مثل هذا في حياتك، لان لك جلدا شديد النعومة هو اقرب الى بشرة سيدة اكثر ممن اعرفهم من الرجال. لقد قدّرتُ انك سيد مترف مهذب. هكذا قلت لنفسي اول ما رأيتك.»

كنت قد شعرت بعدم الارتياح اليه، بل النفور منه منذ البداية. وفيما هو يساعدني الآن في ارتداء ملابسي هذه زادت تلك الكراهة ايضا. كان هناك شيء منفر في لمساته. لقد

انكمشت متأففا من يده؛ كما تقزز لحمي واقشعر جلدي.

وبسبب من هذا وهروبا من الروائح التي فاحت من قدور تغلي واخرى رأيتها تفور على موقد المطبخ ـ كنت استعجل الخروج من هذا الجحر الى الهواء الطلق ما وسعني ذلك. واكثر من هذا، كنت اتعجل مقابلة القبطان ومعرفة الترتيبات التي قد يتخذها لتـأمين وصولي الى البر.

اما الزي الذي جاد به عليّ الطباخ فهو قميص من الصنف الرخيص من القطن له قبة مشرشرة، صدره قد كلح لونه، مما اظنه بقعا قديمة من الدم كثّر حتها قبل تجفيف الغسيل. هذه ملابسي العليا. اما السفليّة فكانت سروالا ازرق فاهي اللون،احدى ساقيه اقصر من رفيقتها بعشر بوصات. واما الحذاء فكان «بسطار عمل» لاحد البحارة تدربت فيه قدمي على السباحة. وكانت نهاية الساق الاقصر من السروال تظهر وكأن الشيطان حاول ان يصطاد روح الطباخ في اسفلها لكنه امسك القماش، وهربت منه الروح.

ـ «من الذي عليّ ان اشكره على لطفه؟» هذا ما قلته حين تجلّيت أميس في هـذه الحلل، بعد ان رشقت طاقية ولد صغيرة على رأسي وارتديت سترة قـذرة، من القطن، مقلّمة، لا يكاد الكُم منها يصل تحت مرفقيّ.

عند ذاك اقترب الطباخ بصورة ذليلة فيها رضوخ ورسم انفـراجا بـين شفتيه. وإنني لأقسم، حسب ما اعرفه من خبرتي مع خدم قاعات الطعام في عابرات المحيط عند نهاية الرحلة ـ ان صاحبنا هذا كان ينتظر البقشيش. بل ان معرفتي الاكبر بهذا المخلوق فيما بعد ـ تجعلني اجزم الآن ان وقفته تلك كانت وقفة لا اراديةً منه، بل هي اقرب الى طبيعته. ولا شك ان تذلل الخدم الوراثي لديه هو المسؤول عن مثل ذلك السلوك. وقال:

«ماكريدج، يا سيدي»

لفظ الطباخ ذلك بملامحه المخنثـة التي سمحت للكلمة ان تخـرج مع ابتسـامة معجونة بالدهن والشحم.

«توماس ماكريدج يا سيدي. انا في خدمتك»

ـ «شكرا يا توماس، لن انساك ـ حين تجف ملابسي».

ولمعت ومضة رضا لطيفة على وجهه، وبرقت حدقتاه كما لو ان اجداده هرعوا الى اعماق نفسه وحركوا فيها ذكريات معتمة عن البقاشيش التي تسلموها في حياتهم منذ القدم. وقال:

ـ «اشكرك يا سيدي».

ولكن بامتنان حقيقي ونبرة تواضع اكيد هذه المرة.

وانزاح الطباخ جانبا، فعبرت الباب الى سطح السفينة. كنت ما زلت واهن القوى من تأثير غيبوبتي المتطاولة. وهبّت عليّ نفخة من الريح، فترنحت على السطح المرتج بفعل سير السفينة، جهة زاوية الكابينة، حيث امسكت بقرنتها لأستند. ومن طبيعة سفينـة الصيد أن تكون حركتها بعيدة جدا عن العامودية، فها هي «الشبح» تنثني وتغوص في موج المحيط الباسفيكي، الطويل.

وفكرت .. اذا كانت سفينتنا تسير صوب الجنوب الغربي كما قال جونسون، فان الريح التي اجدها تهبّ من جهة الجنوب. لقد انقشع الضباب وبرزت عوضا منه شمس مشرقة لماعة على سطح الموج. واستدرت جهة الشرق، حيث اعرف ان كاليفورنيا تقع هناك، لكني لم ابصر شيئا، الا اطراف حواف اهداب الضباب، نفس الضباب الذي جلب الكارثة للمارتينيز وافضى بي الى وضعي الحاضر وموقفي الذي لا احسد عليه. والى الشمال غير بعيد، كانت تبرز مجموعة من الصخور العارية، ناتئة فوق سطح الماء، استطعت ان ارى فنارا على واحدة منها. وفي الجنوب الغربي، في خط سيرنا تقريبا، رأيت الرأس الهرمي لشراع احد المراكب.

بذا اكملت مسحي للأفق، فعدت الآن اتفحص الوسط الاقرب الى موقعي. كانت اول فكرة طرقتني ان رجلا نجا من حادث اصطدام سفينتين وحكّ اكتافه بانياب الموت لهو جدير بالاهتمام أكثر مما لقيت. فخلافَ بحار يمسك عجلة القيادة حملق بفضول من فوق قمة الكابينة، أجدني لم استرع اي انتباه من احد!!

لقد بدا ان كل فرد من الموجودين كان مهتما بما يجري على السفن في العادة. فهناك على حشية مثبتة يستلقي رجل على ظهره. انه يرتدي ملابسه كاملة وان كان قميصه مفتوحا من الامام، وليس يُرى شيء من صدره، اية مساحة، لانه مغطى بغابة من الشعر الاسود يبدو مظهرها مثل فرو كلب مدلل. وكذلك وجهه ورقبته، اذ حجبتهما لحية سوداء خالطها شعر اشيب هنا وهناك كان سيغدو قاسيا متخلّبا لو لم يكن قصيرا يقطر منه الماء. وكانت عيناه مطبقتين حتى بدا في الظاهر انه فاقد الوعي، لكن فمه كان مفتوحا كالمغارة وصدره يخفق وكأن صاحبه يعاني من الاختناق، فيما هو يسحب الشهيق بكل جهد. وكان احد البحارة، بين الوقت والآخر، وبوتيرة وكأنها روتين ـ يدلي سطلا من الخيش في الماء المالح حتى نهاية الحبل، ثم يسحبه معاقبا بين يديه، ويدلق محتوياته على الرجل الممدد.

ذاك احد رفاقي الجدد. اما ثانيهم فقد رأيته يمشي ذهابا وايابا على طول الممرّوهو يعلك طرف سيجار بوحشية ظاهرة. هذا هو الرجل الذي انقذتني نظرته العرَضية من الغرق. كان طوله حوالي ٥ اقدام و ١٠ بوصات او نصف بوصة زيادة عن ذلك، لكن انطباعي الاول عن ذلك الرجل لم يكن هو طوله الفارع بل القوة البدنية في جسده. كان الرجل ضخم البنية عريض الكتفين غائر الصدر حتى انني لم استطع تصنيف قوته. كانت لديه تلك القوة التي يمكن وصفها بقوة العضلات، قوة العُقد في جسم الانسان، ذلك النوع الذي ننسبه الى النحاف المعروقين.. لكنها في هذا الرجل، وبحكم بنيته الضخمة اشبهت بتلك القوة التي يتمتع بها الغوريلا، اكثر منها بمثيلتها لدى بني الانسان.

ان ما احاول التعبير عنه واناضل في تصويره هو تلك القوة نفسها.

فقد كانت شيئا منفصلا تماما عن شبيه التكوين الجسدي لمثله من الرجال. انها قوة اعتدنا ان نربطها في اذهاننا بالبدائيات، الحيوانات البرية الكاسرة والمخلوقات التي نتصور ان اجدادنا، سكان غابات ما قبل التاريخ،كانوا يعايشونها. وهي قوة متوحشة، شرسة، حية بذاتها، بل روح الحياة في صورة حركة كامنة، او المادة الاصيلة نفسها، التي

منها تقولبت اشكال الحياة. وفي مختصر مفيد، انها تلك القوة التي تنتفض في جسم الحية لحظة يقطع رأسها وتكون الحية قد انتهت، او تلك القوة التي تبقى في كتلة عديمة الشكل من لحم سلحفاة ثم نجدها تتكور وترتجف عند اقتراب الاصبع منها.

مثل هذا الانطباع كان هو الذي غار في اعماق نفسي عن تلك القوة وعن ذلك الرجل الذي كان يروح ويجيء على السفينة في تلك اللحظة. كان ثابت الوقفة، على ساقيه، متمكنا، تدق قدماه السطح بعنف وثقة. وفي كل حركة لعضلة فيه، من اهتزاز الكتفين الى زم الشفتين حول السيجار، كان يبين حزم راسخ وتبدو الحركة صادرة عن قوة طاغية. والواقع انه: مع ان تلك القوة ظلّلت كل فعل له عداها فقد بدت وكأنها مجرد اعلان ظاهر لقوة اعظم كامنة فيه تظل خامدة مخبوءة قلما تظهر ـ لكنه يمكن استثارتها في اية لحظة فتتبدى مروّعة، آسرة، مثل زمجرة الاسد او هياج العاصفة.

اخرج الطباخ رأسه من باب المطبخ وشد على اسنانه مشجعاً اياي، ومشيرا باصبع ابهامه جهة الرجل الذي يعبر الممر. بذا تم التلميح اليّ ان ذلك الرجل هو القبطان «الرجل العجوز» حسب عبارة الطباخ، والشخص الذي عليّ ان اقابله واناقش معه مشكلة ابلاغي البر اليابس بطريقة او اخرى.

كنت على وشك التقدم الى ذلك الرجل للانغماس في ٥ دقائق عاصفة من اللقاء معه حين هاجمت الرجلَ الممدد على ظهره نوبة خانقة من السعال. لقد طفق يتلوى ويتشقلب وكأنه مصروع. وارتفعت ذقنه ولحيته السوداء المرنّخة بالماء، الى السماء، عندما تشنجت عضلات ظهره وانتفخ صدره، ربما لسحب اكبر قدر من الهواء للتنفس. كانت حركاته بدافع الغريزة، فهو يتصرف دون وعي. وتحت سالفيه بدا لي ان جلده قد أزرقّ، وإنْ لم ار البشرة هناك.

توقف القبطان، او وولف لارسن، كما يسميه رجاله، عن المشي، وحملق في الرجل الذي يحتضر.كان صراعه مع الحياة يتعاظم..وقد بلغ شدّته الآن حتى ان الرجل الذي كان يدلق عليه الماء توقف عن عمله مشدوها ودلق السطل على سطح السفينة. وجعل المائت يطق بعقبي رجليه على خشب السطح. ثم انه وتّر ساقيه على طولهما وتخشب مرة واحدة. ثم التوى رأسه وسقط جانبا. ولم يطل وضعه في هذه الصورة بل ارتخت عضلاته وندّت منه تنهيدة عميقة. وبدا لي ان شفتيه تنفرجان من اثر الارتياح، لكن تقديري لم يكن مصيبا. ها فكّه السفلي يرتخي ويسقط، وشفته السفلى تتيبس، وتبين في فمه اسنان سوداء من اثر التبغ. الآن تجمدت قسماته في تكشيرة تلعن العالم الذي فارقه وهو حاقد عليه.

في تلك اللحظة وقع شيء لا أغرب منه. اذ انفجر القبطان حانقا على الرجل الذي مات، وكأنه عاصفة من الرعد. انه يزمجر ويلعن ويسب الميت في نهر متدفق من اقذع الشتائم. ولست اتذكر تلك الشتائم، لأن كلماتها من النوع السافل الذي لم اسمع مثله من قبل. لكن الجمل القصيرة التي كان يتلفظ بها القبطان،واسماء العورات التي كان يذكرها تجعلني اقول: ان الابالسة في الجحيم تخجل ان تستخدم مثل هذا السباب حين ينشب بينها خصام.

وكان الدافع لكل هذه الثورة من قبل القبطان ما فهمته فيما بعد.....

فقد أفرط البحار في الثمل، واغرق حرمانه الطويل من الجنس في مستنقع بائعات الهوى في سان فرانسيسكو، حتى لقي جزاءه سريعا على «الشبح». ها هو قد مات وترك مكانه شاغرا في بداية الرحلة. بذلك يكون القبطان قد خسر «يدا» عاملة. لقد هلك بحار، فأنى يجد القبطان عوضا منه في البحر! ولا حاجة الى القول انني صدمت حتى العظم. فالشتائم المقذعة هذه كانت جديدة علي، والموت المبتذل الذي ابصرته الآن شيء لم اكن اتصوره على الاطلاق. كنت اعرف الموت ذا وقار، ترافقه مشاعر الاسى واحساس انساني عميق بالاجلال.. وكان تصرف وولف لارسن الذي اعجبتني قوته من قبل، ذميما في نظري الآن الى حد اعجز عن التعبير عنه.

كانت الجثة ملقاة وسط الرجال، والقبطان يكاد ينشق غيظا على صاحبهـا، لكن عضلاتها المتيبسة ظلت هى سيدة الموقف، وبدا ان صاحبها الصامت كان يسخر من الجميع. إنه لم يتحرك ولم يرد على وولف لارسن.. وكأنه يحتقر ان يرد عليه. بل انه كان يسخر من «الشبح» ومن عليها. اليس هو سيد الموقف الآن! ان الجميع عاجز عن ان يلحق به اي اذى!!

الفصـــل الثـــالث

توقف وولف لارسن عن السباب فجأة كما انفجر فجأة، واشعل سيجاره من جديد، واخذ يجيل بصره فيما حوله. ووقع نظره على الطباخ، فقال وفي كلماته برود الفولاذ.

- «انت يا طباخ !»

- «نعم سيدي».

- «الا ترى انك قد تطاولت بعنقك اكثر مما ينبغي؟ ان هذا غير سليم لك كما تعلم. لقد هلك البحار، ولا استطيع ان افقدك انت الآخر. اعتن جدا بصحتك يا هذا. هل فهمت يا طباخ!»

وكانت كلمة «فهمت» الاخيرة مخالفة في النبرة لما سبقها. كانت لاسعة مثل سوط. فاستخذى لها الطباخ واجاب باستكانة ظاهرة:

- «حاضر سيدي.»

ثم انسلّ على التو الى مطبخ السفينة.

أدرك الملاحون الآخرون ما انطوى عليه توبيخ الطباخ وقدروا عواقبه، فتشاغل كل منهم بعمل. غير ان جماعة من الرجال كانوا واقفين يتحدثون عند الدرابزين بين المطبخ والمستودع استمروا في حديثهم. لكن اصواتهم خفتت قليلا. وقد علمتُ فيما بعد ان هؤلاء ليسوا ملاحين بل صيادين، هم الذين يقذفون عجول البحر بالبنادق، فهم من طينة ارقى من طينة الملاحين والبحارة على السواء.

ونادى وولف لارسن:

- «جوهانسن! تعال». وحضر بحار على الفور، فقال لارسن:

- «اعدّ راحة يدك وخذ مئبرة وقم بخياطة التعيس. ستجد بعض الخيش في مستودع القلوع. دبر امره واستفد منه.»

- «وماذا اجعل في قدميه يا سيدي؟»

- «سنرى ذلك فيما بعد».

ورفع لارسن صوته ينادي على الطباخ فأطلّ توماس ماكريدج من مطبخه مثل ثعلب في قفص، وأمره لارسن:

ـ «اهبط فاملأ كيسا بالفحم.»
ثم التفت الى الصيادين فسألهم:
ـ «هل لدى احد منكم انجيل او كتاب صلاة؟»

وهزوا رؤوسهم بالنفي، بل ان احدهم صنع بيده اشارة بذيئة المعنى لم أرَها انا، لكنها اثارت ضحك الجميع. وطلب لارسن مثل ذلك من البحارة. وبدا ان الاناجيل وكتب الصلاة بضاعة نادرة في هذا الوسط. وتطوع احدهم ان يسأل الحرّاس عن انجيل، لكنه عاد بعد لحظات يبلّغ انه لم يجد شيئا.

وهز القبطان كتفيه، قائلا:
ـ «اذن نلقيه في الماء دون تمتمات ولا شعائر، الا اذا كان صاحبنا لقيط البحر والمكتبيّ في مظهره ـ يحفظ ادعية خدمة الجناز عن ظهر قلب.»

قال ذلك بعد ان استدار تجاهي وصار قبالتي. وقال:
ـ «انت واعظ. الست منهم؟»

التفت اليّ الصيادون وكانوا ستة، واخذوا يتفحصونني. وقد آلمني انني أشبه الوعاظ الثرثارين شبها كبيرا. حتى ان بسمة سخرية من هذا الواقع طافت على شفتيّ، بل ضحكتُ ضحكة فظة وقاسية لم تحترم جلال الموت ولم تعتبر حرمة الجثة المسجاة امامنا في تلك اللحظة. اتراني اكتسبت قسوة البحر وخشونة صراحته! ما للياقة ورقة المشاعر قد زايلتني هذه اللحظة! اهذا سلطان البيئة والوسط!

لم يضحك لارسن، وان كانت عيناه قد اضاءتا بطيف من الانبساط. في تلك اللحظة اقتربت منه حتى حاذيته، وآنذاك ايضا كونت انطباعي الاول عن الرجل لارسن، منفصلا عن جسده وعن سيل الشتائم المقذعة التي بصقها قبل قليل.

كان وجهه كبير التقاطيع محدد الخطوط، مربّعا في شكله واحمر ممتلئا. وهو يبدو ضخما لأول وهلة؛ لكنه حين يُقرن بالجسم تزول منه ضخامته النسبية ويغدو متناسقا. وهو يخفي طاقة عقلية هائلة، او طاقة روحية من هذا القبيل، لا ادري ايا منهما. وقد بدا الفك والذقن، والجبهة العالية البارزة فوق العينين والقوية في ذاتها بصورة غير عادية ـ ناطقة بقوة عظيمة ورجولة حقة تلوح وراءها كلها. ولا يمكن سبر اغوار نفس هذا الرجل ولا معرفة آفاقها وحدودها ولا تصنيفها بمعيار.

كانت عيناه ـ وكان قدري ان اعرفهما جيدا ـ جميلتين وكبيرتين، الواحدة منهما منحازة عن الاخرى كما هي عيون رجال الفن الحقيقيين. وكانتا تختبئان تحت جبهة مليئة وقوس حاجبين غليظين اسودين. اما لونهما فكان متماوجاً ذا اطياف وظلال متداخلة تطفو عليها زرقة البحر حينا والسواد والشهلة حينا آخر. كانتا عينان تقنّعان نفس صاحبهما بألف قناع، قد ينفتح احدها فتطل من ورائه تلك الروح عارية على حقيقتها في مغامرة عبر هذا العالم. انهما عينان قد تفكران ببرودة السماء الرصاصية وثقلها، أو تومضان كشفرة سيف مسلول، او تتقدان كجمرات النار، او تهمدان كقفار القطب المتجمد.. ومع ذلك فان

بوسعهما ان تكونا ناعستين تفعمهما ارق مشاعر الحب، الجريء،الذكّر، الذي يطغى ويأسر حتى ترضخ له النساء رغبة ورهَباً.

ولنعد من هذا الى واقع الحال مع صاحب كل ذلك. لقد اخبرته ان من سوء حظ الجناز انني لست واعظا، فرشقني بسؤاله:

ـ «ماذا تعمل لكسب عيشك؟»

انا اعترف ان مثل هذا السؤال لم يوجهه إليّ احد من قبل ابدا. ففُجئت. وقبل ان اتمالك نفسي، رددت عليه بغباء:

ـ «انا سيد، جنتلمان.»

فالتوت شفته سخرية واستهجانا. وسارعتُ اقول:

ـ «لقد عملت. وانا اشتغل»

قلت ذلك بحنق، وفي موقف رجل امام قاض يحاكمه، فهو يطلب رد الاعتبار ان لم يطلب البراءة.

ـ «انا اعني لكسب قوتك.»

كان في كلماته شيء من الأمر والسيطرة أفقدني توازني، كما قد يعبّر عن ذلك صديقي «فوروسيت»لو شهد الموقف. كنت مثل تلميذ خائب امام استاذ صارم. وسأل لارسن:

ـ «ومن يطعمك؟»

ـ «لي دخل ثابت.»

اجبت بهذا باعتزاز وانتفاخ ودجين، لكني وددت لو عضضت لساني بعد ذلك حين قلت:

ـ «لكن هذا لا علاقة له بالأمر الذي جئت القاك من اجله.»

وأهمل لارسن هذه الملاحظة واستطرد في استجوابه:

ـ «من الذي كسبه لك؟ ابوك؟ اذن فانت تقف على ساقي رجل ميت. انك لم تحصل على شيء بجهدك الخاص. انت اعجز من السعي نهارا واحدا لكسب ما يحشو مصرانك من اللحم. دعني ارى راحة يدك.»

وبدا ان قوته الهائلة قد استثيرت فجأة وها هي تتحرك. فقبل ان آتي بحركة ـ تقدم لارسن خطوتين فامسك يدي اليمنى في يده ورفعها يتفحّصها. وحاولت ان اسحبها منه، لكن قبضته كانت مثل ملزمة الحداد حتى ظننت ان اصابعي ستنسحق. ولو شددت بعنف اريد تخليصها منه للوى ذراعي وحطمها كلها. كان من الصعب ان احفظ كرامتي بالقوة في مثل هذه الظروف. بل انني لم استطع ان اصرخ او اقاوم كما يفعل تلميذ المدرسة.. لم يكن في مقدوري مهاجمة ذلك المخلوق، فلم يبق امامي الا الاستكانة والرضوخ. لذلك جمدت في وقفتي امامه وأدرت نظري الى الجثة الملقاة فيما لارسن يفحص راحتي، فلاحظت ان جيوب الميت قد أفرغت من محتوياتها وان البحار يدس المئبرة في ثنيات الخيش ولما كان الخيش قاسيا فقد اصطنع جونسون قطعة من الجلد الغليظ جعلها في راحة يده ليدفع بها عقب المئبرة في الخيش.

وأسقط لارسن يدي بتقزز واحتقار، وقال:

ـ «لقد ابقتها يد الرجل الميت رخصة ناعمة. انها لا تنفع لاكثر من الكنس وغسل الصحون.»

وقلت وانا اكاد اتميز غيظا:

ـ «اريد ان ابلغ الشاطىء. أنا مستعد لأن ادفع كل ما تطلب لقاء تأخر سفينتك بسبب ذلك.»

ونظر الي لارسن بفضول واستغراب. بل بانت السخرية في عينيه وهو يقول:

ـ «لدي اقتراح معاكس لما تَعرض. وهو لصالحك. أنت تعلم ان احد رجالي قد هلك، وهناك ترقية في العمل على ظهر «الشبح» في مثل هذه الحال. فالحارس يرتقي الى بحار، والبحار الى مساعد ربان، وصبي المطبخ الى مجدف قوارب، وانت تكون صبي المطبخ. سأدفع لك عشرين دولارا في الشهر علاوة على الطعام والمأوى. وقّع الاتفاقية بهذه الشروط وباشر عملك على الفور. بذلك تبني نفسك بعرَقك، وعندئذ تقف على ساقيك لا ساقي رجل قد مات.»

لم أعر أي التفات لعرض لارسن، ولاحظت ان سفينة الصيد التي رأيتها من قبل، جهة جنوب الغرب آخذة في التقدم صوب «الشبح». ها هي قلوعها تزداد انتفاخا ثم ينبسط منها شراع الدقَل. اما السماء فهي تغدو رصاصية ثقيلة فيما تزداد الامواج خشونة وعنفا. وها هي دفقة من الماء المالح تنساح على سطح السفينة بعد ان ارتفعت الى اعلى من الافريز حتى اضطر الصيادون الى رفع اقدامهم.

وأطرقتُ برهة. كنت افكر. فلم أردّ على ما عرضه لارسن. وقلت:

ـ ان هذه السفينة قريبة، وهي تتجه صوب سفينتنا، ولا بد انها تقصد البر في سان فرنسيسكو.

ـ ذاك محتمل.

قال لارسن ذلك ثم اندار وصرخ على الطباخ:

ـ طبـــاخ!

وأطل رأس الطباخ هلعا.

ـ نعم سيدي.

ـ اين ذلك الفتى؟ ليحضر فورا.

ـ حاضر سيدي.

وغاب الطباخ ليبرز بعد قليل ومعه شاب متين البنية في الثامنة او التاسعة عشرة. كان منظره منفراً وسحنته تغري بالمشاكسة، وقال:

ـ ها هو سيدي.

وانفتل لارسن الى الشاب، مهملا الطباخ،وقال:

ـ ما اسمك يا فتى؟

ـ جورج ليش، يا سيدي.

ـ انه ليس اسماً ايرلنديا .. ان أوتول،او ماكارثي انسب لخِلقتك. هذا ما لم يكن هناك جد ايرلندي في نسبك لأمك.

ولاحظتُ قبضة الشاب تتجمع وعروق رقبته تتوتر بالدم المندفع، كرد على هذه الاهانة. لكنه تماسك نفسه. وقال لارسن:

ـ دعنا من ذاك. لديك اسباب وجيهة تنسيك هذا الاسم. وانا اقبله لك على كل حال ما دمت تقوم بعملك جيدا. لا بد انك دخلت البلاد من تلغراف هل. هذا ما تنبىء به سحنتك: الخشونة والدناءة. انا اعرف هذا الصنف. ولكن بمقدورك ان تنفض كل ذلك اذا التحقت بمهنة البحر. هل تفهم؟ من الذي رتب شحنك الى هنا؟

ـ شركة ماك كريدي وسوانسون.

ـ قل «يا سيدي».

ـ شركة ماك كريدي وسوانسون يا سيدي.

ـ من الذي قبض السلفة؟

ـ اصحاب الشركة.

ـ هكذا قدّرت. اللعنة! ويسرني انك جعلتهم يأخذونها. لقد كنتَ مضطرا بعد ان سمعت عن الكثير من السادة الذين كانوا يطلبونك.

واستحال مظهر الشاب الى وحش متوفز على التو. وانتفض جسده كأنه نابض مشدود، وامتقع وجهه وغدا متوحشا عندما هرَّ:

ـ هذه إ... (إهانة)

ـ ماذا؟

سأل لارسن في صوت ناعم، وكأنه يستغرب، طالبا ان يسمع الكلمة التي لم يلفظها الشاب. وتردد الشاب وامسك غيظه وهو يقول:

ـ لا شيء. انا اسحب كلامي.

ـ بذلك اثبتَّ لي ان رأيي فيك كان على حق.

قال لارسن ذلك وعلى شفتيه ابتسامة الذئب الجائع.

ـ كم عمرك؟

ـ انهيت السادسة عشرة، سيدي.

ـ هذا كذب. لن ترى الثامنة عشرة مرة اخرى. انت اكبر مما تدعي. هذه عضلاتك مثل حصان. خذ تجهيزاتك واذهب الى قاعدة الدقل. لقد جعلتك مجدف قارب صيد. بذا تكون حصلت على ترقية. هل تفهم؟

وبدون ان ينتظر لارسن اي رد من ليش، استدار الى البحار الذي خاط كفن الميت من الخيش وسأله :

ـ انت يونسون! هل تعرف شيئا من فن الملاحة؟

ـ لا، سيدي.

ـ لا يهم، لقد اصبحتَ وكيلا للربان، خذ امتعتك الى مهجع الوكيل.
ـ امرك، سيدي.

قال جونسون ذلك بفرح ظاهر لترقيته الاخيرة.

في هذه الاثناء كان ليش يستعد للكلام. ولاحظ لارسن انه لم يغادر سطح السفينة فسأله:

ـ ماذا تنتظر؟ هيا.
ـ انا لم اتعاقد لاكون مجدفا لقارب صيد. لقد تعاقدت لاكون مساعد طباخ،ولا ارغب في التجديف ابدا.
ـ قلت لك جمّع امتعتك وامض.

كانت نبرة لارسن هذه المرة قسرية ظاهرٌ فيها الاكراه، لكن الفتى لم يتحرك. لقد رفض اطاعة الامر. وعند ذاك جاءت نوبة من قوة لارسن المجنونة الهائلة.. لم يكن يتوقعها احد، وانما برزت وانفثأت في اقل من ثانيتين: لقد وثبَ اكثر من ستة اقدام على سطح السفينة وقذف جمع يده في قاع بطن الشاب. وشعرت بألم حاد في معدتي انا حين رأيت لارسن يوجه تلك الضربة. فقد كانت حساسية جهازي العصبي غير معتادة على مناظر الخشونة والوحشية بعد. وارتفع ذلك الشاب الذي وزنه ١٦٥ رطلاً على الاقل،في الهواء ثم انطوى جسده حول مكان الضربة وكأنه خرقة ممزقة تلتف على عصا. لقد وثب الى اعلى ثم خر ساقطا عند الجثة الممددة على السطح وهو يتلوى من الالم. وقال لارسن:
ـ وانت، هل قررت شيئا؟

كان يخاطبني. وتطلعت الى سفينة الصيد الآخذة في الاقتراب والتي باتت قبالتنا على مائتي متر. كانت لطيفة المنظر، رأيت على عرض احد اشرعتها رقما اسود كبيرا، وسألت لارسن:

ـ ما اسم هذا المركب؟
ـ انها سفينة «ليدي ماين». لقد تخلصتْ من بحارتها.وهي تتجه الى سان فرنسيسكو حيث ستصل بعد ٥ او ٦ ساعات اذا واتت الريح.
ـ هل تتكرم وتشير اليها لتنقلني الى البر؟
ـ آسف. لقد نسيت دفتر الاشارات في الداخل.
وصرّت مجموعة من الصيادين على اسنانهم.

وقلّبت الأمر في نفسي، لقد شهدت معاملة مساعد الطباخ، فهل اراني اتوق الى مثل ذلك! هذا ما قد يفعله بي المجنون.ومع هذا اقدمت في تلك اللحظة على اجرأ عمل في حياتي.. ركضت الى آخر سطح «الشبح» واخذت الوّح بذراعي واصيح:
ـ «ليدي ماين، خذوني معكم الى الشاطيء. الف دولار حلال لكم اذا فعلتم!».

وانتظرت، أرقب رجلين كانا يمسكان بعجلة القيادة في تلك السفينة وقد رفع احدهما مكبر صوت الى فمه. لم أستدر الى لارسن مع اني كنت انتظر لكمةٍ قاتلة من قبضة يده كما فعل مع ليش من قبل. واخيرا وبعد ما بدا لي عدة قرون عجزتُ عن تحمل ذلك التوتر فأدرت وجهي.

لم يكن لارسن قد تحرك من موضعه .. وجدته واقفا تماما حيث كان من قبل: جسمه يرتج من حركة السفينة وهو يشعل سيجارا جديدا يثبته في فمه. وسمعنا جوابا من ليدي ماين. كان المكبّر يقول:

ـ ماذا حدث؟ هل هناك خطأ ما؟

ـ نعم، موت او حياة. الف دولار لكم ان اوصلتموني البر.

هذا ما صرخت به بأقصى انتفاخ تستطيعه رئتاي. أما لارسن فقد صاح:

ـ ان سان فرنسيسكو تشدّه اليها. هذا صاحب ـ واشار بابهامه الي ـ يتخيل ثعابين البحر والسعادين فيه. انه مهووس.

وضحك الرجل الذي على ليدي ماين في المكبر، ومضت السفينة بعيدا بعد ان قال بحارها:

ـ عاقبه على ذلك اكراما لخاطري. أدبه جيدا.

ثم لوّح بذراعه مودعا. فاجابه لارسن بمثل ذلك.

اذن هذه هي النتيجة: انا مهووس تطرقه ثعابين البحر والسعادين فيه!

استندت الى درابزين سطح السفينة ونظرت الى اللجة افكر. بعد خمس ساعات او ست ساعات ستكون «ليدي ماين» على رصيف سان فرنسيسكو واظل انا تحت رحمة هذا الرجل الآفة على «الشبح»! كان رأسي على وشك ان ينفجر. تذكرت صديقي فوروسيث وحظي المنكود في زيارته، واستعدت منظر «ليش» الواثب في الهواء بعد اللكمة، وحينئذ ادرت وجهي نحوه ارى ما فعل.

كان يلملم اعضاءه محاولا الوقوف. وقد استطاع ذلك، لكن قامته الفارعة كانت تنتفض، وجسده يرتج مترنحا لا يزال. اما وجهه فقد اكتسى بمنظر الم ممضّ من شدة الوجع حتى انني تساءلت: هل قتله الوحش! وقال لارسن:

ـ حسنا يا ليش، هل انت مستعد لتسلم عملك الجديد؟

قال «حسنا»، وأي حسن في ما فعل! ومع هذا فقد اجاب ليش:

ـ نعم، سيدي.

واستدار لارسن جهتي قائلا:

ـ وانت؟

ـ اعطيك الف دولار اذا..

وقاطعني لارسن:

ـ خلّ ذلك لك، هل تلتحق بعملك الجديد او تنالك يدي؟

ماذا كان بوسعي ان افعل؟ أدعه يهوي على جسدي المرفه بمطرقة يده،او يشده بملزمة قبضته! ان هذا لا يساعدني في وضعي. ونظرت الى عينيه القاسيتين مثل عيني دب في شتاء القطب. كانتا جامدتين مثل صخر الغرانيت رغم ان انسانهما يتحرك.

قد يستشف المرء حياة في عيون الرجال، اما لارسن هذا فعيناه باردتان لا تشفان الا عن خشونة البحر وعنفه الصامت، وقال:

ـ آه، ماذا قلت؟

ـ نعم.

ـ قل نعم، سيدي.

ـ نعم، سيدي.

ـ اسمك؟

ـ فان ويدن،سيدي.

ـ الاسم الاول؟

ـ همفري، سيدي.

ـ عمرك؟

ـ خمسة وثلاثون عاما، سيدي.

ـ هذا يكفي. اسرع الى المطبخ وتدرب على واجباتك.

هذه هي الصورة التي دخلتُ بها عبودية طوعية قسرية معا في حظيرة رق وولف لارسن. كان اقوى مني.. هذا كل ما في الأمر. لكن الموقف لم يكن حقيقيا. وانا استعيد ذلك الموقف الآن، فأرى انه لم يكن حقيقيا بالفعل. لقد كان كابوسا فظيعا. غير انه: هل حياة الاضعف في هذا العالم سوى سلسلة متلاحقة من الكوابيس!

وأردت ان انصرف الى مركزي الرفيع الجديد (!) لولا ان اشـــار لارسن قـائلا:

ـ إه. لا تذهب الآن، أنت، يا جوهانسن، استدع الجميع الى السطح. ما دمنا قد رتبنا جميع الأمور فعلينا ان نتخلص من الجنازة بذلك ينظف السطح من وزنٍ لا فائدة فيه.

وفيما كان جوهانسن ينادي على جميع الرجال طرحَ بحاران اثنانٍ، بارشاد لارسن، الجثة على غطاء الباب. ثم ان الصيادين جعلوا قاربا يحاذي درابزين «الشبح» وانزلوا الجثة على ظهره ما عدا القدمين. وفي القدمين المضمومتين شبكوا عقدة كيس من الفحم جلبه الطباخ.

كنت اتصور ان جُناز الدفن في السفن مَهيباً كله عبوس يثير الخوف والفزع. اما هو جناز! لكني الآن يصدمني غير ذلك. ها هم الصيادون قد تجمعوا ليشاركوا في الجناز. وهـا احدهم أسمر داكن اسمه سموك يقص حكايات قبيحة ما اكثر عبارات العيب فيها، والجميع يضحكون، بل يقهقهون على نوادره..وهم في ضحكهم مثل تخت موسيقي افراده من الذئاب. وهـــا هم البحارة يصطفون وعلى جفونهم آثار نوم مزعج. انهم يتثاءبـون متأففين من الجناز ومن راعيه لارسن، فهم يخشون سطوة الاخير ويُبغضون ان يعملوا

تحت امرته، لكنهم ايضا غير مبالين بهذا الزميل المحشور في كيس الخيش. كانوا يتحدثون بصوت خافت، لكنه لا حزن فيه ولا شعور بالأسى لفقدان التعيس.

تقدم لارسن الى غطاء الباب وارتفعت طاقيات الجميع عن رؤوسهم. وعددتهم.. كانوا عشرين رأسا بل اثنين وعشرين اذا حسبنا الرجلين اللذين لم يشاركا لانهما كانا يمسكان عجلة القيادة. وربما كان من غير المناسب ان اقوم بعملية الاحصاء في هذا الموقف، لكنه كان علي، على كل حال، ان احصي رفقة قد امضي بين ظهرانيها عدة اسابيع او شهورا. من يدري؟

كان البحارة في معظمهم من الانكليز والاسكندنافيين، وجوههم كبيرة غليظة واجسامهم عريضة صلبة. اما الصيادون فكانوا اقوى في تعابير وجوههم لكنها تنطق بقدر اكبر من المشاعر الانسانية والميل الى حياة اللهو والمجون. ومن الغريب ان وجه لارسن لم يكن ينم عن مثل ذلك من نزوع الى الحقد والشرور. نعم كان فيه خطوط محددة بارزة، لكنها كانت خطوطا تعكس الحزم والصرامة. بل لقد بدت قسمات وجهه الحليق تنم عن الصراحة والانفتاح حتى تساءلت عما اذا كان صاحب هذا الوجه حقا هو الذي تصرف على النحو الذي شهدته تجاه ليش!

ووقف لارسن وكأنه يود تلقين الميت قبل اتمام الجناز. وفي هذه اللحظة دهمت «الشبح» موجة عالية انساحت مياهها على سطح السفينة وارتفعت الى منتصف الساقين من كل الواقفين هناك. اتراها تود ان تغسل وزر الانسان وادران البحارة جميعا في هذا الموقف! لا ادري،فقد يكون للبحر وامواجه عاطفة وضمير من نوع ما!

وقال لارسن :

ـ انا لا اذكر من جناز البحارة الا مقطعا واحدا، هو «ومن ثم يُلقى بالجثة الى اللجة، فاقذفوها في اليم ايها الحاضرون».

وتوقف عن الكلام. وبدا ان البحارة ما كانوا ينتظرون مثل هذا الجناز القصير، فلم يفعلوا شيئا. وهنا انتهرهم لارسن:

ـ ما لكم! اللعنة عليكم. ارفعوا من هذه الجهة.

ورفعوا طرف غطاء الباب بعجلة، فانزلق الميت مثل كلب في الماء تهبط به قدماه المثقلتان بكيس الفحم. هكذا مضى انسان سيغتذي عليه السمك.

وقال لارسن مخاطبا وكيل الربان الجديد:

ـ جوهانسن، أبق كل الرجال على السطح ما داموا هنا الآن، جهز القلوع العليا واتقن العمل. ستهب علينا عاصفة من الجنوب الشرقي، فالافضل شدّ الصاري الرئيس ما دمت قريباً من موقعه.

ونشطت الحركة في التو على السطح. ها هم الرجال ينفذون تعليمات جوهانسن فيفكون حبالا ويشدون اخرى، ويحلحلون فصّالات ومشابك ويقوون اخريات. وتردد على سمعي اسماء تجهيزات وقطع غريبة عن رجل عاش على اليابسة طول حياته هو مساعد الطباخ الجديد،أي حضرتي الكريمة. لقد كان موت الرجل فصلا من رواية انتهى عرضها

الآن على المسرح، وها هي السفينة تزيد من سرعتها والعمل قائم في كل زاوية. ان الصيادين يضحكون من نكتة سمجة يرويها «سموك» فيما هم يسحبون الحبال واثنان منهم يرتقون خشبة الصاري النافذ صعدا في السماء. وفيما لارسن مطرق يدرس احتمالات اتجاه الريح كانت جثة الميت تغوص اعمق واعمق نحو قرار الماء.

بعد ذلك كانت قسوة البحر، اضطرابه، ورهبته هي الفكرة التي داهمتني في تلك اللحظة. فالحياة الآن رخيصة تبعث على السأم، وهي شيء وحشي رتيب، فارغة لا روح فيها، وتنزُّ عفناً وطيناً. واتكأت على سلم السفينة وأجلْت بصري كرّتين عبر صحراء ممتدة رفيعة من الزبد تفصلني عن سان فرنسيسكو، فلم اكد ارى الضباب. وعدت الى هذه السفينة المرعبة، ورجالها الفظيعين، وها هي تنزلق في محيط من الهواء ، وتتجه الى الجنوب الغربي، وحيدة متوحدة في امتداد الباسفيكي الفسيح.

الفصل الرابع

ان ما وقع لي بعد الآن على سفينة صيد عجول البحر، المسماة «الشبح»، وانا اجهد في التكيف مع بيئتي الجديدة ـ لهو كله سجل قهر واذلال وألم. فالطباخ الذي كان يسخر منه البحارة بقولهم «دكتور» والصيادون بقولهم «تومي» وولف لارسن بمناداته «كوكي» قد تغير الآن. لقد بات «نُميرا»، بعد عجزه ان يكون «نمرا». لقد تغير مركزي الى الادنى على السفينة،فغير هو معاملته لي. كانت سِمته الخضوع والتملق من قبل، اما الآن فقد استحال الى طاغية مشاكس يفتش عن سبب للخصام. لم اعد في نظره ذلك السيد المهذب ذا البشرة البيضاء والجلد الرقيق مثل جلد السيدة بل مساعد الطباخ، قليل الهمة، وعديم النفع.

لقد اصر بكل عناد ان اناديه بـ «السيد ماكريدج» حين اخاطبه، اما سلوكه معي ومعاملته لي اثناء ما كان يُبين لي واجبات المساعد في المطبخ فهما غير محتملين. ويا لها من واجبات مقرفة! فعلاوة على العمل في المطعم بحجراته الاربع الصغيرة لتقديم الطعام كان علي ان اساعده امام الوجاق. ولما كنت على جهل مطبق باعمال تقشير البطاطا وجلي القدور الوسخة ببقايا الدهن والشحوم اللاصقة بجدرانها وحوافها ـ فقد جعل ماكريدج ذلك مصدرا لا ينضب من سخريته مني والتهكم علي. كان يعجب اصلا من انني لا احسن الجلي. والحق اقول: انني شعرت تجاهه بالمقت والكراهية قبل ان ينتهي نهار عملي الأول، وكانت كراهيتي له اشد من كراهيتي لأي شيء آخر طول حياتي.

ومما زاد الامر نكرا ان ذلك اليوم عينه كان يوما شاذا، حيث كانت السفينة تواجه ما اسماه ماكريدج «عاصفة من الجنوب الشرقي».

لقد رتّبت طاولات الطعام في الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم. هكذا اصدر الطباخ تعليماته اليّ وطلب ان تقدَّم الاطباق على صواني الطقس الهائج. ثم حملت الشاي والصحون التي يعلوها الهبال من المطبخ الى هناك. ولا اجده يليق بي ألا اذكر خبرتي الاولى مع طقس مضطرب كالذي عانيت منه في ذلك اليوم. قال الطباخ:

«انظر اين تضع قدمك. والا هاجمك الدوار»، هذه نصيحة ماكريدج التي اتحفني بها وهو يحمّلني ابريق الشاي الكبير بيد، ويضع في راحتي مجموعة من الارغفة التي خبزها على التو في الفرن. وكان احد الصيادين،واسمه هندرسن، طويلا ضاربا في الجو،

مفكك المفاصل، تكاد تنخلع مساميره حين يسير ـ يصعد من مهجع الصيادين الى الكابينة. وكان وولف لارسن واقفا على المنصة فوق السطح يدخن سيجاره الذي لا ينتهي.
وصاح بي الطباخ:
«انها آتية. امِل نظرك عنها.»
لم افعل شيئاً، لانني لم أدر ما هذا الذي سيأتي. لكني سمعت باب المطبخ يصفق وينغلق. ثم رأيت هندرسن يثبُ كالمجنون تجاه الدقل الرئيسي ويرقاه كانه قرد يتسلق شجرة حتى غدا على عدة اقدام اعلى من رأسي. كذلك رأيت موجة عارمة تتلوى مزبدة وتستقر مياهها فوق الممر عند جانب السفينة واعلى منه كثيرا. كنت تحتها مباشرة الآن. ولم يعمل عقلي بالسرعة الكافية. كل شيء هنا جديد علي، غريب عن خبرتي السابقة. لكني ادركت انني قدام خطر. هذا كل ما استطعت ان افهمه. ومع ذلك ظللت في مكاني لا أريم عنه. وفي تلك اللحظة صرخ وولف لارسن من على المنصة:
«امسك بشيء، انت يا همب، امسك».
لكن ذلك جاء متأخراً. نعم ان «همب» هذا قد قفز جهة قاعدة الحبال التي يمكن ان اشد فيها، لكن الماء المنحدر من اسفل الموجة كان قد غمرني بالكليّة. اما ما حدث بعد ذلك فقد جاء مثيرا للتشويش والاضطراب: وجدت نفسي تحت الماء اكاد اختنق، وانا اغرق. كانت ساقاي قد انسلختا عني فهما تتأرجحان في فراغ، وكنت انا الف وادور هابطا سفلا سفلا الى حيث لا ادري.
لقد ارتطمتُ عدة مرات بأشياء صلبة جامدة، واصطدمت ركبتي في احداها صدمة عنيفة آلمتني جدا. ثم بدا ان الطوفان قد خفت حدّته، غاض الماء حيث لا ادري وعدت اتنفس الهواء من جديد. كانت الموجة قد حملتني فطافت بي من المطبخ الى سلم مهجع الصيادين والى عوارض الدرابزين الجانبي للسفينة، ومن الجهة المواجهة للموجة الى الرصيف الآخر. وكان الم ركبتي المرضوضة عنيفا حتى انها لم تعد تحملني. تُرى الساق بكاملها قد تحطمت عند ذلك المفصل! ومع هذا فان الطباخ اللعين ود ان يتنمّر علي. كنت اشكو حالي وهو يقول:
ـ هيه، لا تجعلها قضية لك. هي مجرد رضة. اين ابريق الشاي؟ هل اضعته على السطح؟ انك تستحق ان تنكسر رقبتك؟
دبرت امري ووقفت. كان ابريق الشاي الكبير ما زالت حلقته في يدي،فقلزت الى المطبخ واعطيته اياه، لكنه كان يحترق غيظا، لا ادري أذلك واقعه فعلا ام انه يتظاهر! وقال:
ـ عليّ اللعنة إن لم تكن لكعا. الا تصلح لشيء يا هذا؟ اود ان اعلم. حتى قليلا من الشاي تعجز عن ايصاله! علي أن أعدّ شايا جديدا الآن. لقد آذيت ركبتك ايها الشاب المدلع، هذا كل ما قدرت عليه! مال خلقتك مقلوبة! مكشر!

والواقع ان سحنتي لم تكن مقلوبة. نعم كنت متألما، لكنني قررت الاحتمال. لذلك صررت اسناني وجعلت اعرج رائحا جائيا من المطبخ الى حجرات الطعام. شيئان اثنان

كسبتهما من هذه الخبرة التاعسة: اولهما رض ركبة انتفخت رضفتها وظلت تؤلمني طيلة عدة شهور، والثاني اسم «همب» الذي ناداني به وولف لارسن. لم يعد احد يعرفني بغير هذا اللقب، لارفاق السفينة ولا الناس العاديون طيلة حياتي فيما بعد. ولماذا اقول ذلك، فحتى انا نفسي صرت همب في نظري شخصيا. لقد لصق بي «همب» هذا مثل وجع الظهر.

لم يكن عملا يروق لمثلي ان اخدم في المطعم، كما ان العمل كان شاقا. فهناك لارسن وجوهانسن وستة صيادين يجب خدمة طعامهم، والمكان ضيق والحركة محدودة. كما ان ارتجاج «الشبح» العنيف يزيد المتاعب. واذا اندلق اي طعام حار كان نتيجة ذلك حروق لعينة. واكثر ازعاجا من هذا ان خدمتي في المطعم لم تلاق اي عاطفة او امتنان من قبل المخدومين. لا ادري، هل ان طبيعة حياتهم القاسية تفقدهم التعاطف والمجاملة ام انهم اصلا اجلاف غلاظ الاكباد! ان «شكرا» واحدة لم اسمعها منهم مع انهم لا شك كانوا يلحظون التواء عضلات وجهي كلما كنت اخطو على ساقي المنتفخة الركبة والتي برز انتفاخها عند منتصف البنطال. وقد رأيتهم عند ذاك يتغامزون. ربما كانوا يُضمرون ان هذا «الرجل المرفه الرقيق اضعف من ان يحتمل مثل هذا الالم الطفيف!» وذلك بخلاف وولف لارسن، فقد اقترب مني فيما كنت اغسل الصحون ذات يوم وقال:

ـ لا تدع شيئا تافها كهذا يزعجك يا همب. ستعتاد على مثل هذه الامور مع الوقت. قد تجعلك كسيحا ولكنك ستتعلم المشي على كل حال. هذا ما تسميه التناقض الظاهري.

واومأت برأسي موافقا على رأيه. وسرَّه ان قلت: «نعم، سيدي» التقليدية فقال:

ـ انني افترض انك مطلع على الادب. اليس كذلك؟ سيكون لي معك حديث حول ذلك بين الفينة والاخرى.

قال ذلك واستدار الى سطح السفينة دون اي اهتمام برأيي فيما عرض. ولا عجب، فلربما اعتبر ذلك احد اوامره او تعليماته الى بحار يعمل في مطبخ سفينته.

انتهى عملي في الاشغال الشاقة مساء ذلك اليوم، وفوجئت بأن طلب الي لارسن ان انقل فراشي الى مهجع الصيادين بدلا من ارضية المطبخ. وقد سرني ذلك. أما تخلصت من رفقة الطباخ في الليل والنهار!

ولقد أدهشني ان اجد ملابسي التي كانت تقطر ماء مالحا قد جفت تماما وهي على جسدي. هذه طبيعة الرياح في البحر. وكان هذا شيئا جديدا علي. اذن لم يكن هناك احتمال الاصابة بالرشح ولا النزلات الصدرية، ولو حدث هذا على اليابسة لكنت في حاجة الى سرير في مستشفى وممرضة تسهر ليلا لمراقبة درجات الحرارة، اما هنا فلا حاجة الى شيء من ذلك.

غير ان آلام ركبتي كانت تتزايد. وقد تحسسها هندرسن في ذلك المساء وسألني عن الوضع فقلت:

ـ اظن ان الرضفة قد انزاحت وارتفعت الى اعلى.

فضغط عليها بأصابعه الخشنة يجسّها وقال:

ـ تبدو سيئة. أعصُبها بخرقة وسيتحسن وضعها مع الوقت.

هذا كل ما وجدته من عناية لدى رفاق السفـر. وقلت في نفسي: لو كنت في سان فرنسيسكو لاجتمع حولي رهط من جرّاحي العظام وامروا بالاستراحة عدة اسابيع والبقاء متمددا على ظهري. غير اني لا اود ظلم الصيادين ولا البحارة.. نعم كـانوا معـدومي الشعور غلاظ الاكباد تجاه مصيبتي، لكنهم كانوا كذلك تجاه مصائبهم ايضا. وفي هذا عدالة كافية وانصاف مرغوب. ولربما كانت تلك القسوة سمة من طبيعة عملهم لا من انهم يختلفون في حساسية عضوياتهم. فلا اظن ان احدهم كان سيتألم قدر نصف ما اشعر به الآن لو كانت رضفة ركبته هي التي تعاني.

كنت واهن القوى من التعب، فالطبيعي ان اغط في نوم عميق بمجرد ان يلامس جنبي تلك الطراحة التي ثبتّها الى الجدار على زاويتين تجعلانها مثل أسرّة السجون او المدارس الداخلية. لكن الم ركبتي وقف حائلا دون ذلك. لو كنت في البيت لنفّست عن المي بالصراخ على الاقل، اما هنا فان الاحتمال والصمت هما ما ينبغي اللجوء اليه. لذلك ابقيت فمي مغلقا مع ان الالم كان وحشيا. ويبدو ان تحمل الالم بنفسية الفلاسفة الرواقيين هي سمة البحارة، حتى عندما تدهمهم المصائب الكبيرة. اما اذا كان الامر تـافها فـانهم يتصرفون تصرفات طفولية عجيبة.. أنا أتذكر الآن ما حدث في اثنـاء الرحلة، عندمـا فقد الصياد كيرفوت اصبعا له، انهرس لحمه بعظمه فبات مثل حلوى الاطفال. لقد بتره ولم يتغير وضع عضلة واحدة من وجهه، بل ظل عاديا وكأنه قلع مسماراً من نعل حذائه. ومع هذا فقد رأيت كيرفوت نفسه يثور حتى يكاد يحطم الدنيا ويقلب الكون لامر تافه.

وهذا ما يفعله الآن. انه يصرخ، ويجعر، ويلوح بذراعيه، ويلعن كأنه شيطان. وكل ذلك بسبـب عـدم اتفـاقـه مـع صيـاد آخـر حـول مـا اذا كـان وليـد عجـل البحر يسبح بالغريزة دون ان تعلمه امه. كان هذا رأيه هو. اما رأي زميله لاتيمر ذي السحنة الامريكية والعينين المنحرفتين ـ فكان ان جرو عجل البحر يولد على البرّ لمجرد انه لا يعرف العوم عندما تضعه امه، ولذلك فان تلك الأم مضطرة الى تعليمه السباحة تماما كما تفعل الطيور في تعليم صغارها ان تطير.

وقد ظل الصيادون الاربعة الباقون صامتين لا يتدخلون في النقاش المحتدم بين الخصمين في البداية، لكن اهتمامهم بالجدل كان ظاهرا. فقد كان الواحد منهم يؤيد هذا الرأي او ذاك بين فترة واخرى، حتى انهم جميعا كانوا يتكلمون معا في بعض الاحيان، فلا افهم شيئا من ذلك الحديث المتشابك الاصوات. وكان الخصمان يهدران كالرعد على من يعارضهماوعند ذاك يرتفع صوت مؤيد جديد، فيرد عليه معارض جديد ايضا.

كان الموضوع تافها، لكن طريقة النقاش كانت اكثر تفاهة. فالمفهوم والمنطقي عند اختلاف الرأي ان يأتي الخصمان بحجة من هذا ونفي لها من ذاك، وان يكون المنطق والتسلسل الفكري هو الخيط الذي يربط النقـاش بكامله. امـا حال هـؤلاء الصيادين فمختلف: ليس هناك منطق في مناقشتهم على الاطلاق، ولم يدلِ اي منهم بحجة تؤيد رأيه او تنقض رأي خصمه. كان كلاهما يرفع صوته وهو يخبط على الجدار ويلقي جملة تقريرية هي تكرار رأيه ذاته. فيرد عليه الآخر برفع صوته درجة اشد وخبطه الجدار بلكمة اقوى.

اما السامعون، الذين كان يفترض ان يكونوا حكما، فكان الواحد منهم مرة مع هذا الرأي واخرى مع نقيضه. لم يكن لهم رأي ثابت، انما الواحد منهم مثل رقاص الساعة، وهذا ما كان يزيد في ارتفاع لعنات واحد من المتجادلين.

الآن عرفت ما هي عقليات رفاقي الجدد، وكونت فكرة عما ينبغي ان تكون طريقة تعاملي معهم في المستقبل. ولألخص انطباعي الاعمق عن هؤلاء الزملاء فأقول: «كانوا عقول اطفال ركبت في اجساد رجال»، ثم زدت على ذلك بأن قلت: «لكن هذه الاجساد متينة، فالأذى الذي تتركه أذى كبير».

كان الصيادون الستة يدخنون على الدوام فيظل المهجع اقرب الى مدخنة محرقة. وكان التبغ الذي يستعملونه غير مصنّــــع قوي جدا وكريه الرائحة الى درجة تبعث على الدوار او الغثيان. واربدّ هواء المهجع وتكدر حتى بـات النفس يبعث على الدوخـة او الاصابة بدوار البحر لو كنت ممن يعانون ذلك الضعف. ورغم كل هذه المساوىء فقد تغلب علي النعاس.. فهناك الم ركبتي وارهاق العمل وبلادة حديث الرفاق.

وطاف بي هاجس تقدير موقفي قبل ان يستولي علي النعاس. كان موقفا لا نظير له، ولم احلم به على الاطلاق. فها انا همفري فان ويدين المثقف والمرفه، والعميق الاطلاع على الشؤون الادبية وقضايا الفن المعاصر ـ (اذا سمحت بذلك ايها القارىء) ـ ارقد الآن على طراحة سرير معلق في سفينة لصيد عجول البحر، تمخر مياه بحر برنج! مساعد طباخ! مع اني لم امارس اي عمل يدوي شاق طيلة حياتي من قبل. بل عشت حياة هادئة ناعمة، حياة مثقف رفيع له دخل خاص مضمون. لقد ظللت على الدوام دودة كتب، هكذا سمّاني والدي واعتبرتني اخواتي. انني لم اشارك في اي نشاط جماعي الا مرة واحدة اشتركت يومها في مخيم للكشافة في المدرسة، لكنني سرعان ما قطعت الجولة وعدت الى تحت سقف المنزل. وهنا اجدني امام عمل مقرف لا ينتهي من تنظيف موائد الطعام وتقشير البطاطا وجلي الصحون والقدور. كثيرا ما قال لي الاطباء ان بنيتي قوية، لكني لم اطورها بالتمرينات الرياضية. كانت عضلاتي رخصة وصغيرة مثل عضلات امـرأة.. هكذا قـال الاطباء، وطلبوا الي الانضمام الى احد النوادي الرياضية لتنميتها. لكني فضلت على الدوام تنمية ما في رأسي من النخاع لاما في جسدي من العظم والعضل. اما هنا فقد جاء دور الاخير.

هذه مجرد بعض اشياء طرقت فكري وانا مضطجع على جانبي تلك الليلة، لمجرد الحكم على ضعفي الذي اعاني منه في الوقت الحاضر. وتخيلت صـورة امي واخواتي وحزنهن العظيم.. فلا شك ان اسمي وارد في سجل المفقودين من على ظهر المـارتينيز الغارقة. ستذكره الصحف ويطلع عليه الجميع: اهلي، واصدقائي في نادي الجامعة، واذ ذاك سيصفق الواحد منهم كفيه متحسرا ويقول: «مسكين همفري! لقد نهشته اسماك القرش.» اما صديقي فوروسيث فسيشغل نفسه في كتابة فقرة قصيرة للتعزية ويعمل جهده في نقش سطرين على نصب قبري الفارغ.

كل ذلك تصوّرتُه و «الشبح» تقفز وتهبط بين قمم الامواج وقراراتها وهي تجاهد في ان تتقدم بعيداً بعيداً في المحيط الهادي.. وأنا اغسل الصحون على ظهرها.

انني اسمع عويل الريح يكاد يخرق طبلتي اذني. كما اسمع خبط اقدام البحارة والصيادين فوق خشب السطح، وصرير الخشب الذي يرفض ان تتخلع منه المسامير. كذلك اسمع صوت شد الأمراس والحبال ونشر القلوع حين تصطفق. الجميع يئن متذمرا من وجوده، وبأصوات عدة سلالم موسيقية لا سلم واحدة.

هذا فيما الصيادون لا يزالون في جدل سخيف، يجعرون مثل حيوانات برمائية نصف بشرية. ان الهواء مليء بالحلف والشتائم وعبارات العيب المرذولة التي يطلقونها دون ان يحمر من احدهم وجه او ترمش له عين. ولماذا يفعل، وهي جزء لا ينفصم من قاموسه اللغوي الدائم! وقد زاد الموقف وحشية وبؤساً ذلك الضوء الاصفر الباهت الذي ترسله المصابيح البحرية المعلقة في اعلى الصواري و التي تظل تتأرجح مع كل ارتجاجة للسفينة.

في هذا الجو الخانق بدت أسرّة الصيادين المعلقة اقرب الى اقفاص الحيوانات الكاسرة في سيرك متنقل، وكانت زقاق الزيت واحذية البحارة الطويلة معلقة تتأرجح من مساميرها المثبتة في جدران المهجع هنا وهناك. اما البنادق وخراطيش صيد العجول فكانت ترقد مستقرة في صناديقها. هذه تجهيزات تناسب القراصنة المغامرين في الايام الخالية، لكنها امامي تتحداني الآن.

واضطرب خيالي وعمي فكري فاستعصى علي النوم. وكانت تلك الليلة طويلة طويلة كأن حجب الظلام فيها شدت الى جبال، ومملة مرهقة بفعل رتابة الشخير فيها.

الفصـــل الخامـس

تلك هي الليلة الاولى والأخيرة بالنسبة اليّ في مهجع الصيادين، اذ ان لارسن نقل جوهانسن الى ذلك المهجع في اليوم التالي. لقد رُقي جوهانسن فكان عليه ان ينام حيث يؤهله المركز الجديد. هذا ما قاله لارسن. اما الحقيقة فخلاف ذلك، وهي ان جوهانسن كان يستعيد اثناء نومه كل مـا يفعله في النهار فيـظل يصيح ملقيـا الاوامر ومصـدرا التعليمات.. مع الشتائم المرافقه وذكر العورات المكشوفة المناسب. وحين يتوقف عن ذلك يرتفع شخيره مثل فحل من عجول البحر وقت السفاد،او حين لا تستجيب احدى بقرات حريمه لما يطلب.

هذا ما اخبرني به الصيادون. قالوا: ان وولف لارسن يـود التخلص من جيرة جوهانسن بعد ان قضى الاخير تلك الليلة في غرفة النوم الخاصة القريبة من قمرته. وبعد نقل جوهانسن الى مهجع الصيادين انتقلت انا بدوري الى غرفة نومه السابقة ولم يكن فيها الا رفيق واحد. وانقضت تلك الليلة على كل حال.

ايقظني الطباخ مع عتمة الفجر في اليوم التالي، وكنت مرهقا من العمل مكتئبا بفعل الأرق. كما ايقظني بنفس الطريقة التي يعامل بها اي فلاح خشن او راع جبلي كلبـه الكسول في الحظيرة. لقد انتهرني وركلني برجله وكأنه يضيف الفائدة الى الرأسمـال الاصلي من فظاظة الراعي في مثل تلك الحال. ويبدو ان الضجة والصراخ اللذين اثارهما ماكريدج قد ازعجا احد الصيادين فأزّ حذاء ثقيل في الهواء ثم لطم وجه ماكريدج فورّم خلف اذنه. لقد أجاد الصياد تسديده فأصاب الهدف. وعندئذ صرخ ماكريدج متألمـا وزعق معتذرا للنائمين عن ازعاجهم. اما اذنه فقد انتفخت وانطعجت الى الامام ولم تعد الى طبيعتها ابدا فيما بعد، فكانت سبباً في ان يلقبه البحارة بـ «اذن القرنبيط».

كان اليوم مليئاً بالمنغصات من كل صنف. فقد اخذتُ ملابسي التي كانت قد جفت من المطبخ لاستبدلها بالملابس التي اعطاني اياها ماكريدج. وكان اول ما فعلته ان فتشت عن محفظة نقودي، وكان فيها من قبل مائة وخمسة وثمانون دولارا ورقا وذهبا، وبعض قطع العملة الصغيرة. وقد وجدت المحفظة والقطع الفضية الصغيرة اما الباقي فقـد تبخر. وحين سألت الطباخ عن ذلك لم احظ منه بجواب صريح البتة، بل ثار وقال:

ـ انظر يا همب..

كان بريق شر وأذى يلوح في عينيه، وهرير كلبيّ يتردد في حلقه. وهددني:

ـ هل تود ان يتورم انفك؟ اذا ظننت انني لص فاحتفظ برأيك لنفسك. اغلق فمك، والا جعلت دمك النازف يعرّفك مقدار خطأك في تلك الحال. ليتني اعمى اذا لم يكن هذا جزاءً منك على جميلي اليك. لقد جئتني يا نفاية البشرية ودخلت مطبخي كفأر غارق في بالوعة، فعاملتك برفق. فهل هذا جزاء فضلي عليك؟ اذا قلتَ هذا لاحد مرة ثانية عرفت كيف اجعلك تدفع الثمن.

قال هذا وضم قبضته مهددا واندفع نحوي. ويا للعار والخزي! لقد جبنت امامه وهربت من باب المطبخ. ماذا كان بوسعي ان افعل!؟ انه العنف، والعنف وحده هو المسيطر في هذه السفينة. اما التفاهم الودي والسلوك الاخلاقي فشيء غير معروف. تصور الموقف لنفسك ايها القارىء: رجل عادي البنية،ناحل، عضلاته ناعمة طرية، عاش حياة مسالمة، هادئة، وغير معتاد على العنف مع الآخرين ـ ما الذي يمكن ان يعمله مثل هذا الرجل؟ ذلك هو انا. لم يكن هناك سداد رأي في الوقوف امام هذا الرهط من الوحوش على ظهر هذه السفينة. وهذا الثور الهائج الآن واحد من جبلّتهم. انه يرفس وينطح، وقد يعض..

هذا ما قلّبت رأيي فيه وقر عزمي عليه: ان ارضي ضميري اولا واحافظ على مستوى سلوكي الرفيع. لكن هذه المسالمة لم تقنع الغير، بل حتى لم تقنعني انا فيما بعد. ان اهدار كرامتي والهبوط بقيمة رجولتي لم يكن عملا صائبا، كما انه لن يظل ينجح في الاحداث اللاحقة. فالموقف على ظهر «الشبح» يتطلب صيغا جديدة من التصرف،ويفرض استنتاجات واحكاما عقلية سِمتها التروي والبرود.

وحين أستعيد تصرفاتي آنذاك في ضوء المنطق المحض اجدني قد أصبت فيها جميعا، لكني مع هذا اشعر بالحنق من نفسي. ان الخزي يجللني حين استعيد انني استخذيت لحظة ما كانت كرامتي تداس ورجولتي تمتهن.

وزاد في تعقيد الموقف انني حين هربت من المطبخ مسرعاً اشتدّ ألم ركبتي،فوقعت على الارض، وهكذا غدوت في موقف من يركع طالبا الرحمة لضعفه لكنّي والحق يُقال كنتُ ممتنّاً للطباخ الذي لم يجرِ ورائي في تلك اللحظة، بل توقف وقال:

ـ انظروا اليه يهرب. انظروا اليه. تعال يا دلوعة أمك: لا تستغل وجع رجلك. تعال لن أؤذيك.

عدت الى المطبخ وتابعت عملي. وهنا انتهى المشهد الحالي من المسرحية. اما المشاهد التالية فقد تلاحقت بعد تطورات اخرى. فقد اعددت طاولة الفطور للصيادين والضباط في الساعة السابعة، وكانت حدة العاصفة قد انفثأت وان ظل البحر يربو والموج يتكسر. وقد نُشرت الاشرعة وقت نوبة الحراسة المبكرة ما عدا القلعين العلويين والشراع الطيار. وكان من المقرر ان تنشر هذه الاشرعة الثلاثة بعد الفطور مباشرة، عرفت ذلك من

حديث الصيادين كما عرفت ان وولف لارسن كان مهتما غـاية الاهتمـام بان يستغـل العاصفة الى اقصى حد، مستفيدا من الريح التي كانت تدفعه في اتجاه جنوبي غربي، إلى رقعة البحر التي يأمل ان يدخل فيها مجال تأثير الرياح التجارية الشرقية. وكان يأمل قبل نشاط هذه الرياح المنتظمة الهبوب ان يكون قد قطع اكبر مسافة ممكنة باتجاه اليابان، ثم ينعطف جنوبا الى المنطقة المدارية، ثم شمالا حين يقترب من ساحل آسيا.

تناول الصيادون فطورهم. وبعد ذلك وقع لي حادث لا أُحسد عليه. فبعد ان انتهيت من غسل الصحون، قمت بتنظيف وجاق الفرن، وحملت الرماد الى السطح لاتخلص منه بالقائه في الماء. كان وولف لارسن وهندرسن واقفين بجانب عجلة القيـادة منهمكين في حديث، والبحار جونسون هو الذي يباشر الدفة. ونظرت جهة هبوب الريح فرأيت جونسون يصنع اشارة فجائية برأسه اعتبرتها علامة انه قد عرفني فهو يقول «صباح الخير». وكان تفسيري هذا خطأً كبيراً. اذ انه في الواقع كان يود ان ينبهني ألا ألقي الرماد في ذلك الجانب. وغلب عليّ الغباء آنذاك.. فمررت حذاء وولف لارسن والصياد ورشقت الرماد جهة هبوب الريح. فأعادته الريح علي وعلى وولف لارسن وهندرسن ايضا. عند ذاك ركلني لارسن كما يركل كلبا يطرده.

لم اكن ادري مقدار الألم في الركلة قبل هذه اللحظة، ها انا أنفتل لأستند عـلى الدرابزين وانا اكاد يغمى علي. ان كل شيء غائم عائم امام عيني.. وانا مريض.. لقـد هاجمني خدر دوخة مقبلة فصرت احبو حتى وصلت جانب السفينة. ولم يلحق بي لارسن الى هناك،ولو فعل لقفزت في الماء.. وليكن ما يكون. لكنه اكتفى بان نفض الرماد عن ملابسه واستأنف حديثه مع هندرسن. وكان جونسون قد رأى ما حدث فارسل اثنين من بحارته لازالة الرماد عن سطح السفينة بالمكنسة.

ومع تقدم نهار ذلك اليوم حدثت لي مفاجأة اخرى كانت من نوع مغاير تماما لما سبق. فخضوعاً لتعليمات الطباخ ذهبت الى غرفة وولف لارسن لأرتبها واسوّي الفراش فيها. وهناك، قبالة الجدار عند رأس السرير المعلق ـ كان كيس مملوء بالكتب. والقيت عليها نظرة، فاستولت عليّ الدهشة حين وجدت بين اسماء اصحابها كبارا مثل شكسبير، بو، و دي كوينسي. كان هنالك كتب علمية ايضا، تمثلت في بعض كتب تيندال، بروكتور، وداروين. وحتى الفلك وعلم الفيزياء كان لهما نصيب. فهناك كتاب بـول فنش بعنوان «عصر الخرافة» وكتاب برنارد شو «تاريخ الادب الانكليزي والامريكي» وكتاب جونسون «التاريخ الطبيعي» في مجلدين ضخمين. كذلك كـان هناك مجمـوعة من كتب القـراءة والقواعد في اللغة.. وقد ابتسمت حين وقع نظري على نسخة من «انكليزية دين».

لم استطع التوفيق بين وجود هذه الكتب وطبيعة رجل شهدتُ منه ما شهدت، بل تساءلت متعجبا: اتراه يستطيع ان يقرأها! وعندمـا بدأت ارتب الفـراش وجدت بـين البطانيات مجموعة مؤلفات براوننج، ط. كمبردج. كان واضحا ان الكتاب قد سقط عندما

غلب لارسن النعاس. وكان مفتوحا على قصيدة «في الشرفة» حيث لاحظت خطوطا بقلم الرصاص تحت بعض ابيات شعرية معينة. وسقط مني الكتاب عن غير قصد بفعل ارتجاج السفينة، فوقعت منه ورقة. والتقطتها فوجدتها مخططة برسوم هندسية وخطوات عمليات حسابية متتالية.

اذن لم يكن هذا الرجل الفظيع عِرق شجرة. لقد بان ذلك جليّاً كالشمس، مع ان الجهل المطبق هو ما يفترضه المرء حين يشهد تصرفاته الوحشية. في تلك اللحظة باتَ وولف لارسن لديّ معضلة كبيرة: أن جانبا او الآخر من شخصيته قابل للفهم والتفسير، اما الجاذبان المتناقضان معاً فأمر يثير الحيرة والغموض.

لقد لحظت من قبل ان لغته حين يتكلم كانت في عبارة ممتازة، وان تخللتها بعض الاخطاء النحوية. ومن الطبيعي ات يملأها بالتشويه حين يخاطب البحارة والصيادين،اما حين خاطبني أنا فقد كانت عباراته سليمة جلية المعاني.

وهذا ما شجعني على ان افكر في التحدث اليه بعد قليل وإخباره بقضية نقودي المفقودة. وجاءت الفرصة مواتية حين وجدته يتمشى وحيدا على السطح،فقلت:

ـ لقد سلبوا مالي.

ـ قل، سيدي.

هكذا صحح عبارتي بنبرة حازمة لكنها خالية من الفظاظة، فأعدت:

ـ لقد سلبوا نقودي يا سيدي.

ـ كيف وقع ذلك؟

واخبرته ظروف الواقعة كلها: كيف ان ماكريدج الطباخ جاءني بثياب لتبديل ثيابي المبتلة، وكيف هددني حتى كدت اموت خوفا عندما سألته عن المال المسروق فيما بعد. وابتسم لارسن من سردي كل ذلك وقال:

ـ بقشيش، ذلك ما اعتاد عليه الطباخون، هي لقطة وجدها كوكي فاخذها. وانت لم تر أن حياتك التاعسة تسوى هذا الثمن؟ اعتبر ذلك درسا يا همب. تعلم كيف تعتني بنقودك في جميع الأحوال. دعني افرض ان محاميك او وكيل اعمالك قد دبر الامر لك اكثر من مرة في حياتك من قبل.

لقد احسست بتكشيرة من كلماته، ومع هذا سألته:

ـ وكيف استعيد نقودي الآن؟

ـ ذاك شأنك.. لا محامي لك هنا ولا وكيل اعمال يرعى مثل هذا الامر على السفينة. عليك ان تعتمد على نفسك. حين تحصل على دولار علقه على جسمك ذاته، فالرجل الذي يترك نقوده بعيدة عنه يستحق ما حصل. هذا علاوة على ان الخطأ من طرفك، فليس لك ان تضع اغراءات في درب المخلوق الضعيف الخاطي. انت اغريت كوكي، ووقع هو في الخطيئة. لقد جازفت بروحه الخالدة فتصرفتْ روحه على طبيعتها. وبهذه المناسبة: هل تؤمن بالروح الخالدة؟

ارتفع حاجبا لارسن ببلادة وهو يوجه هذا السؤال الغريب. وبدا لي ان اعماق الرجل قد انفتحت امامي، وانني الآن اطوف في قرارة نفسه. لكن ذلك كان وهماً خادعا، فلم يسبق لأحد البتة ان نفذ الى اغوار لارسن، ولا اظنني على وشك ان افعل في هذه اللحظة. فهي نفس لم تتكشف ابداً، بل ظلت وراء حجب وأقنعة كثيفة، وان اطلّت لمحات منها في الظاهر في بعض الاوقات. وقلت:

ـ انني اقرأ الخلود في عينيك هاته اللحظة.

بذلك اسقطت لفظة «سيدي» التي يصر لارسن على تصحيح عبارتي بصددها على الدوام. وقلت في نفسي: دعني افعل ذلك كتجربة فالحديث حميمي بيننا الآن.

لم يلاحظ ذلك لارسن .. او تـراه لاحظ وسمح به؟ لست ادري. وقال:

ـ أفهم من ذلك انك ترى ان شيئا حيا في الوقت الحاضر، لكنه لا يلزم من هذا ان يظل حياً الى الابد؟

ـ لقد قرأت في عينيك اكثر من ذلك، اعني انني نفذت الى اعمق مما تقول.

ـ اذن فانت تقرأ الوعي، وعي الحياة أنها حية. لكن لا اكثر من ذلك، لا عدم نهاية الحياة.

كان تفكيره واضحا تماما وتعبيره رائعا جليا! ومن تفحُّصه لمحدثه بفضول استدار لارسن ورشق السماء الرصاصية بنظرة دارسة. ولمعت عيناه وبدت خطوط فمه قاسية عنيفة. انه يعاني موجة تشاؤم واكتئاب. وقال:

ـ من ثَم ما هي الغاية؟

قال ذلك وهو يستدير الي مستطردا: «اذا كنت انا خـالدا، فما الهـدف من هذا الخلود؟»

وأسقط في يدي. السؤال صريح محرج. وكيف لي ان اشرح مثاليتي لهذا الرجل؟ كيف اصوغ في كلمات ملفوظة شيئا اشعر به وأحسه لكني لا ألمسه! شيئا مثل انسياب الالحان العذبة في الموسيقى الرفيعة! شيئا انا مقتنع به لكنه سام عزيز على التعبير عنه؟ لذلك اجبته عن سؤاله بسؤال جديد. قلت:

ـ ما الذي تؤمن به اذن؟ ماذا تعتقد؟

ـ أؤمن ان الحياة فوضى متشابكة..انها خميرة عجينة..شيء يتحرك، قد يظل يتحرك لدقيقة، ساعة، سنة، او مائة سنة، لكنه في النهاية سيتوقف عن الحركة. الكبير يـأكل الصغير طالما كلاهما يتحرك، والقوي يفترس الضعيف ليحافظ كل منهما على قوته حتى تفارقه. والسعيد الحظ يأكل غيره ويتحرك لفترة اطول من غيره. هذا كل ما في الامر. ما الذي تستنتجه من كل هذه الاشياء؟

وادار ذراعه في اشارة متعجلة نحو عدد من البحارة كانوا يفتلون بتوتا من الحبل الذي يستعملونه لجر السفن،وقال:

ـ انهم يتحركون. كذلك السمكة الهلامية تتحرك. وهم يتحركون كي يأكلوا ليظلوا

يتحركون. هذه هي الحقيقة. انهم يعيشون في خدمة بطونهم، وما مِعدهم الا لخدمتهم. مجرد حلقة دائرية لا توصل الى شيء ولا تفضي الى مكان. وكذلك حالهم هم. واخيرا تقف حركتهم ولا يغادرون الموضع الذي هم فيه. وذاك هو موتهم. فيموتون.

ـ ان لهم احلاما. واحلاما وضّاءة مشرقة

فقاطعني باحتراس:

ـ احلاما من الكدح والدود.

ـ واكثر من ذلك ...

ـ دود.. ذو شهية اقوى وحظ اوفر في اشباعه.

وهنا رن صوته قاسيا لم تشُبه خفة ولا طراوة مزاح، وقال:

ـ انظر يا هذا، انهم يحلمون برحلات اسعد حظا تجلب لهم نقودا اكثر..وفي ان يصبحوا ربابنة سفن، وفي جمع ثروات ـ وبالاختصار، في ان يفوزوا بمراكز افضل تيسر عليهم التهام زملائهم الآخرين. وانت وانا مثلهم ايضا.

ليس هناك فرق الا في أننا التهمنا اكثر مما فعلوا، ومن صنف افضل مما يجدون. انا التهمهم الآن،وانت ايضا. اما من قبل، فقد التهمتَ يا همب اكثر مما فعلت انا. لقد نمت في فراش انعم، ولبست ثيابا افخر، واكلت وجبات اكثر دسامة. من الذي صنع ذلك الفراش؟ وحاك تلك الثياب؟ وانتج تلك الوجبات؟ لست انت. فانت لم تصنع شيئا بعرقك. لقد عشت على دخل جناه ابوك وضَمنه لك. فانت مثل طائر السفن.. يحط واحده على مقدمات سفن الصيد وينوش بعض ما يجده من سمك صاده غيره هناك. انك واحد من مجموعة من الرجال الذين صنعوا ما يسمونه حكومة، هم سادة جميع الرجال الآخرين فيها، يأكلون طعاما تعب غيرهم في الحصول عليه ويودون ان يأكل بعضهم بعضا. انت ترتدي ثيابا تجلب لك الدفء. وغيرك هم الذين صنعوا تلك الثياب، لكنهم يرتجفون بردا في خرقهم الممزقة، ويسألونك او يسألون المحامي الذي يخدمك او مدبر شؤونك المالية ان يمنحهم احدكم وظيفة يتعيشون منها.

وبدا لي انه انحرف بالموضوع عمدا، فصحت:

ـ ان هذا خارج عن الموضوع الذي نبحثه. لقد تجاوزت النطاق.

ـ كلا. لم افعل.

واخذ لارسن يقذف الكلمات من فمه .. كان يتكلم بسرعة بالغة ووميض عينيه يتزايد حدة وينطلق:

ـ انها الضآلة..الدناءة والخنزرة، صفة الخنازير، وهي هي الحياة. فما نفع ومعنى خلود حياة الحقارة هذه؟ ما هي الغاية منها وما جدواها؟ انت لم تصنع طعاما ومع هذا فقد استهلكت او اتلفت غذاء ربما كان يكفي لعشرين نفسا من التعساء الذين انتجوه ولم يتذوقوا منه لقمة واحدة لربما كان قد انقذ حياتهم لو فعلوا ذلك. فما هي الغاية الخالدة التي تخدمها يا هذا؟ او التي خدمها اولئك الهالكون؟ فكر في نفسك وفيّ مثلا. ما قيمة ذاك

الخلود الذي تفتخر به وتحاول ان تسمو اليه اذا وقفتْ حياتك في طريق حياتي ذاتها؟ أسحقك اذ ذاك. انت الآن تود الرسو على البر؟ فاليابسة مكان ملائم لنوع الحقارة الذي كنت تعيشه. ويعن لي انا ان ابقيك على ظهر هذه السفينـة حيث تزدهـر حقارتي انـا. وسأبقيك. سأبقيك او احطمك، احدى الحالين. وقد تموت هذا اليوم، هذا الاسبوع، او الشهر القادم. انا استطيع ان اقتلك بلكمة واحدة من قبضتي هذه، لانك عاجـز رخو، وبائس. فلو كنا انا وانت خالدين، كما تدعي، لما كان لهذا الواقع من سبب معقول؟ ان كوني وكونك نعيش حياة حقارة كما ظللنا حتى الان ـ لا يبدو هو الشيء المناسب لأن يفعله الخالدون. الا قل لي: ما معنى هذا كله؟ لماذا ابقيتك على ظهر «الشبح»؟

ـ لانك الاقوى فينا.

ـ لكن لماذا انا الاقوى منك؟ الستُ لأنني أمثّل قطعة اكبر من خميرة الحياة مما تمثله انت؟ الا ترى ذلك؟ الا تراه؟

وقلت محتجا على هذه النتيجة:

ـ في تلك الحال ينعدم الأمل ويسود اليأس، فيتبعه العجز.

ـ انا اتفق معك في ذلك. اذ لِمَ التحرك اصلا، ما دامت الحركة هي البقاء حيا؟ فبدون التحرك والكون جزءا من الخميرة ـ لن يكون هنالك يأسٌ ولا عجز. ولكن ـ وهنا الحقيقة ـ نحن نريد ان نحيا وان نتحرك، مع انه لا سبب يدعونا الى ذلك، لانه صدف ان يكون من طبيعة الحياة ان تحيا وتتحرك، ان تريد الحياة وتريد الحركة. ولو لم يكن الامر كذلك لكانت الحياة قد ماتت.. بسبب من هذه الحياة التي فيك يا همب تجد نفسك تحلم بخلودك. ان الحياة التي فيك ناشطة حية وهي ترغب في ان تستمر وتبقى حية. يا لها! ابدية الحقارة!!

وعلى التو أدار لارسن عقبه وولى. لكنه وقف قريبا من مقدمة السفينة ونادى علي قائلا:

ـ بهذه المناسبة، كم المبلغ الذي سلبه منك كوكي؟

ـ مئة وخمسة وثمانون دولارا يا سيدي.

وأومأ برأسه انه قد سمع، فاطمأننت الى ذلك وهبطت الى المطبخ لإعداد المائدة لطعام الغداء، وانا اسمعه يشتم ويسب بعض رجال كانوا عنده على السطح.

الفصل السادس

طلع فجر اليوم التالي والعاصفة قد أدبرت، و«الشبح» تجري رشيقة في مياه هادئة لا تضرب سطحها نسمة ريح. نعم، لقد هبت اثناء النهار بعض دفعات الريح، غير انها كانت متقطعة، مما جعل وولف لارسن يذرع سطح السفينة كلما حدث ذلك. كان يتشمم الريح التجارية الشرقية في الجهة التي قدّر وفودها منها.

كان جميع الرجال على السطح منشغلين في تجهيز قواربهم لموسم الصيد. وكان ثمّة ٧ قوارب على «الشبح» لهذا الغرض، ذلك القارب الخاص بالقبطان وستة للصيادين. ويتركب طقم القارب الواحد من ثلاثة رجال: صياد، ومجدف قارب، وثالث يقوم بالقيادة على الدفة. اما على الشبح فإن الطقم يتكون من مجدفي القوارب وقادتها فقط. لكنه من المفروض ان يقوم الصيادون بنوبات حراسة حسب أوامر وولف لارسن اذا شاء.

كل هذا وزيادة عليه قد عرفته الآن، كما عرفت ان «الشبح» تعتبر اسرع سفينة صيد في اسطول سان فرنسيسكو واسطول فيكتوريا على السواء. والواقع انها كانت يختاً خاصا في السابق فتم بناؤها سريعة على هذا الاساس. وكانت خطوط هيكلها والمعدات التي تم تجهيزها بها تنبىء عن ذلك.

لم أكن أعرف شيئا من هذا أول الأمر وانما اخبرني به جونسون في حديث قصير ذات يوم اثناء نوبة العتمة من الحراسة. كان يتكلم بحماسة عن سفينه يحبها، وبنفس الحميمية التي يشعر بها بعضهم حين يتكلمون عن الخيل. وكان جونسون هذا مشمئزا من السلوك العام على ظهر السفينة، كما افهمني ان وولف لارسن من اسوأ القباطنة سمعة في اسطول صيد السمك.وقال: ان «الشبح» نفسها هي التي اغرته بالتعاقد مع وولف لارسن لكنه يشعر الآن بالندم على فعلته. كما اخبرني ان «الشبح» سفينة حمولتها ٨٠ طنا ومن طراز جيد تماما. ويبلغ عرضها ثلاثة وعشرين قدما ويزيد طولها عن التسعين قدرا بسيطا. اما قاع السفينة في اسفل الغاطس فهو من الرصاص الثقيل، وزنه غير معروف لديه لكنه هو الذي يجعل حركة السفينة مستقرة اثبت من مثيلاتها. هذا رغم انها تحمل قلوعا ذات مساحة كبيرة جدا، فمن السطح الى قمة الصاري الرئيس هناك اكثر من مئة قدم، أما الصاري الامامي فهو اقصر من ذلك بعشرة اقدام.

وقد تتساءل ايها القارىء الكريم: لماذا استفيض في وصف هـذه السفينة؟ ذلك لانني اود ان تعرف المحيط الذي اعيش فيه والذي يرافقني فيه واحد وعشرون انسانا. ان «الشبح» نقطة ضئيلة لا اكثر حين تقارن باتساع المحيط اللانهائي الذي تسير فيه.. فهل من حكمة العقل ان يتحدى الانسان ذلك الجبار بمثل هذا الشيء السريع العطب امام جبروته!! ومع ذلك ها هو يفعل!

كان من المعروف عن وولف لارسن انه قليل الاهتمام بحمل اشرعة صالحة على ظهر سفينته، فقد جرّد الصاري الرئيس من القلوع مرة قبل سنتين.. هذا ما استرقت اليه السمع من هندرسن وستانديش الامريكي وهما يتحدثان.

ولقد تم ذلك التجريد في بحربرنج اثناء العاصفة. ومن ثَم تم تركيب الصواري الجديدة الحالية فجاءت اقوى وامتن من سابقتها بكثير، حتى سُمع عن وولف لارسن انه قال: «انا افضّل ان تضيع السفينة وتغرق على ان افقد خشبات الصواري هذه».

كان كل رجل على «الشبح» باستثناء جوهانسن الذي اغتبط لترقيته-يختلق لنفسه عذرا او يوجِد تبريرا لقبوله العمل على ظهرها. فنصف رجالها بحارة مياه عميقة، وعذرُهم انهم ما كانَوا يعرفون شيئا عن السفينة ولا قبطانها. اما العارفون بـذلك فيقولون ان الصيادين، وان كانوا مهرة حاذقين، الا انهم كثيرو الشغب والمشاكسـة حتى انهم لم يجدوا سفينة صيد محترمة تقبل ان تتعاقد معهم.

واليوم قمت بالتعارف مع رجل آخر من الطقم كان اسمه لويس،أو لُوي كما يقول. وهو رجل حسن العشرة، أصله من ايرلندة لكنه يقطن نوفاسكوشيا. وهو مستعد لأن يظل يثرثر طالما يجد من يستمع اليه. اما كيف تم التعارف بيننا فقد جاء على الصورة التالية:

بعد ظهر ذلك اليوم كان الطباخ نائما وانا اقوم بتقشير البـطاطا، عملي الذي لا ينتهي، اذ جاء لويس الي يطلب كبة خيطان. وهنالك أسرّ لي ان عذره في التعاقد مع لارسن للخدمة على الشبح انه كان سكران حين وقّع الورقة. وأخبرني ان ذاك العمل آخر شيء قد يفكر فيه في حياته لو كان صاحيا في تلك اللحظة. ثم ظهر لي انه تعاقد على صيد العجول كل موسم في الاثنتي عشرة سنة الماضية، حتى اعتبر واحدا من اثنين او ثلاثة هم النخبة في عالم الصيادين. لقد قال لي وهو يهز رأسه بخبث:

ـ آه، ايها الولد. هذه اسوأ سفينة للصيد يمكن ان تختارها، وبخاصة انه لم يكن يتعتعك السكر حينذاك. ان صيد العجول لهو الفردوس الذي يطمح اليه الرجال على ظهر سفينة غير هذه. لقد مات مساعد الربان، وكان اول الهالكين. لكن،انتظر قليلا يا همب وسيلحق به آخرون قبل ان تمضي هذه الرحلة الى شأنها. سيموتون. ان وولف لارسن هذا شيطان مَريد، وستكون «الشبح» هي الجحيم بعينه لمجرد انها له. ألا اعرف؟ اليس الامر هكذا؟ انا لا زلت اذكر ما فعل لارسن في هاكوديت قبل عامين: امر رجاله ان يصطفوا واطلق النار على اربعة منهم فقتلهم؟ لقد فعل ذلك؟ الم اكن يومذاك على ظهر سفينة ايمال على اقل من ثلاثمائة قدم من مكانهم؟ كذلك قتل لارسن في نفس العام رجلا آخر بلكمة

واحدة من يده. نعم، ايها السيد، ضربه حتى هلك ثم سحق رأسه مثل قشرة بيضة. اولم يكن هناك حاكم جزيرة كورا، ورئيس الشرطة، وسيد يابـاني جلبوا نسـاءهم الى ظهر «الشبح» ضيوفا عليها؟ ما الطفهن! كن يحركن مراوحهن برشاقة آنذاك. الم تداهمـه شيطانيته يومذاك! لقد قذف لارسن ازواجهن عن السطح فغرقوا،متظاهراً أن الامر قد تم قضاء وقدرا. ثم انزل هذا الشيطان تلك السيدات التاعسات بعد اسبوع على شاطىء صخري ليعبرن على اقدامهن منطقة جبلية وعرة وليس في ارجلهن الا صنادل رقيقة من القش المجدول لن تقوى على الصمود بعد ميل واحد! أنا اعرف ذلك واكثر! انه وحش، ذاك وولف لارسن الفظ، ذلك التنين الكبير الذي ورد ذكره في سفر التنزيل (الوحي)! لا يمكن ان تكون عاقبة افعاله سليمة عليه. سيلقى جزاء افعاله ذات يوم. إعرف هذا يا رجل، لكن تذكّر دائما انني لم اقل لك شيئا. انا لم اهمس اليك بكلمة واحدة مما سمعتَ والا فان «لوي» المرح المسكين لن يكمل هذه الرحلة الا في بطون السمك. وولف لارسن! آه منه! اسمع ما سأقول: انه ليس اسود القلب مثل بعض الرجال. كلا. فأولئك لهم قلوب على كل حال. اما هذا اللعين فانه لا قلب له على الاطلاق. ان اسمه «ذئب» وهو كذلك حقا وصدقا. تلك هي حقيقته. افلا تعجب ان اسمه مطابق لواقع الحال!!

راعني ما سمعت. ومع هذا فقد وددت الاستزادة منه فسألت:

ـ اذا كان معروفا عنه كل هذا السوء فكيف يستطيع ان يأتي برجال يعملون معه على سفينته؟

ـ وكيف بحق الله تستطيع ان تجلب غيرك ليعمل في خدمتك، سواء على اليابسة او في مياه البحار؟

هذا ما تلفّظ به لويس بحماس رجل كِلْتيّ مثله.ثم استطرد:

ـ كيف تجدني أعمل معه لو لم اكن سكران مثل خنزير؟ هناك بعض البحارة الذين لا يستطيعون العمل مع القباطنة المحترمين. والصيادون معنا من هذا القبيل. وهنـاك الآخرون الذين لا يعرفون الحقيقة، والبحارة الضرّاطون على السطح من هذا الصنف. لكنهم سيتوصلون الى ذلك قريبا، نعم سيعلمون، وسيأسفون على اليوم الذي ولدتهم فيه امهاتهم آنذاك. انني اكاد ابكي لحظهم العاثر، فهم مخلوقات تعيسة. كذلك لا انسى البكاء لحظ لويس الطيب، وعلى المتاعب التي تنتظره في الطريق. أذكر يا همب انني لم انبس لك بكلمة عن هذا الأمر، ولا لفظة واحدة. فالصيادون عندنا خبثاء كلهم دناءة ولؤم.. تذكر ذلك جيدا.

انتظِر حتى يبدأوا تقطيع شرائح اللحم والتجديف لهذا الغرض. اذ ذاك يعرّفهم وولف لارسن قيمتهم الحقيقية. سيدبر امرهم. انه هو الذي سيغرز الخوف من الله في قلوبهم السوداء المتعفنة. انظر الى ذلك الصياد هورنر، جوك هورنر. انت تراه هادئا لطيفا رقيق الكلمات مثل فتاة حيية، حتى تظن ان الزبدة لن تذوب في فمه. لقد قتل هذا الرجل قائد الدفة في قاربه العام الماضي، بلى قد فعل. ولقد قيل يومذاك انه حادث مؤسف، غير اني

لقيت مجدف ذلك القارب في يوكوهاما فحكى لي الخبر الاكيد عما حصل. وهناك الصياد سموك ايضا، الشيطان الاسود الضئيل ـ الم يسجنه الروس ثلاثة اعوام في مناجم الفحم في سيبيريا لانه سرق الصيد في «كوبر ايلاند» التي هي من ممتلكاتهم؟ لقد قيدوه بالسلاسل، يديه ورجليه، مع ربانه. وهو يعرف بعض الكلمات الروسية منذ ذلك العهد. ولقد تخاصما، وكان سموك هو الذي ارسل رفيقه الآخر الى اعلى الصاري. لقد قطّعه وبتر اعضاءه شلوا شلوا، وكان يضع في سطل الماء ساقا مرة، وذراعا ثانية والرأس في المرة الثالثة. وهكذا تخلص منه وقذف به الى السمك.

وأفزعني ما اسمع فانفجرت:

ـ انت لا تعني ما تقول. أهكذا حدث!؟

ـ اعني ماذا؟ أنا لم اقل شيئا. فأنا أصم ابكم لا اسمع ولا انطق. وهذا ما يجب ان تكونه انت من اجل أمك. انا لم افتح فمي الا بكل خير عن كل واحد منهم. هل فهمت؟ وعنه هو ايضا لارسن؟ اللعنة على روحه. فليرزح في مَطهر العذاب عشرة آلاف سنة ثم يهوي بعد ذلك الى اعمق قرارة في الجحيم.

كان جونسون، الرجل الذي دعك صدري براحته المشقحة حتى شقق جلده،اول ما صعدوا بي الى سطح السفينة ـ هو اقل الرفاق حديثا واكثرهم صمتا. لم يكن المسكين فصيحا حين يتكلم فانطوى على نفسه، وكان المرء ينشدّ اليه على الفور لصراحته الجريئة ورجولته الحقة، وبخاصة انه كان يَزينه تواضع جم قد يخطئه المرء فيحسبه جبنا في شخصيته. لكنه لم يكن جبانا ابدا. لقد بدا يملك الشجاعة فيما يعتقد وكأنه واثق متأكد من رجولته. هذا ما جعله يحتج في بداية تعارفنا عندما ناديته «يونسون». وقد اقر لويس هذا الرأي فيه فذكره قائلا:

ـ اما ذاك المربع الرأس جونسون فهو رجل حقيقي. انه افضل بحار يقف عند البرج الامامي. وهو مجدف قاربي انا. لكنه ويا للاسف سيصطدم قريبا مع وولف لارسن. هكذا يدل الشرر القادم من على السطح. انا وحدي من يعرف ذلك، واكاد ارى جمرات الصدام تشتعل. لقد كلمته كأخ وصديق، لكنه لا يهتم بالنذُر، ويعتبرها مجرد اشارات كاذبة. انه يتذمر ويتوعد حين تسير الأمور بما لا يتفق مع رأيه، ولا يأبه بان يدسّ بعض رفاقه ذلك في اذني الذئب «وولف». ان «الذئب» قوي، ومن طبيعة الذئب ان يكره القوي، والقوة هي كل ما يراه «الذئب» في جونسون. ان جونسون لن ينحني امامه ولن يتخضع له بـ «حاضر يا سيدي» ولا «اشكر لك تكرمك يا سيدي» ردا على لكمة او صفعة. المعركة قادمة.. وقريبا جدا. وعند ذاك يعلم الله من اين اجد مجدف قارب جديد بدل جونسون. ماذا يستفيد ذلك الاحمق من رده على لارسن كلما ناداه بـ «يونسون» نافرا: «ان اسمي هو جونسون» ثم يهجيء حروف اسمه كل مرة؟ ما الذي يضيره من تغيير هذا الاسم (الكريم)!؟

عليك يا همب ان ترى كيف تنقلب سحنة «العجوز» عند ذاك. انني اقدّر ان لارسن سينقضّ عليه فورا كل مرة يحدث فيها ذلك. نعم انه لم يفعل حتى الآن، لكنه سيحطم قلبه

ورأسه المربعة ذات يوم. ان لم يقع ذلك فانا لا اعرف طبائع هؤلاء العتاة من رجال البحار.

وهكذا انتهى حديث لُوي.. وعليّ الآن أن أعود الى ماكريدج.

بات ماكريدج غير محتمل. فعليّ ان اناديه بـ «سيدي» و «السيد» كلما خاطبته. هذا ما يطلبه ويلح فيه. واظن احد اسباب انتفاخه هذا ان لارسن قد ابدى له بعض الرضا، وهذا شيء لا سابقة له. قبطان يتلطف مع الطباخ في سفينته!! لكن هذا هو الواقع اليوم. لقد اطل برأسه مرتين وثلاثا في المطبخ وكلم ماكريدج بنفس مطمئن. وقد وقف الى جانب الشقّ في مقدمة السفينة بعد ظهر اليوم وثرثر معه ربع ساعة كاملة. وحين عاد ماكريدج بعد ذلك الى المطبخ كان وجهه لماعا عليه شحم ذائب في الشمس. لقد دب فيه النشاط: في يده وفي لسانه، يده رشيقة في العمل ولسانه يلعلع بالغناء. لكن صوته كان ناشزا. وقال لي ماكريدج متباهيا:

ـ انا دائما على وفاق مع الرؤساء، فانا اعرف طريقة السلوك الصائبة: أتقن ما اعمل، فأغدو موضع تقديرهم. ها هو حالي مع الرئيس الاخير. لقد قلت في نفسي:

لا شيء يمنع من الذهاب الى الكابينة والثرثرة وتناول كأس ودية هناك. انظر الى نفسك يا ماكريدج وتدبر امرك. لقد ضيعتَ المركز الذي يجب ان تكون فيه، مركز السيد المحترم، وها انت تعمل لكسب قوتك الآن. ليُمتني الله يا همب ان لم يكن هذا ما يراه فيّ السيد. لقد ود ان اجلس معه في قمرته وادخن معه سيجارا واشرب قدحا من الويسكي الخاصة به.

اوشك هذا اللغو الفارغ من ماكريدج ان يُفضي بي الى الجنون. فأنا امقت الرجل واكره سماع صوته ولو في كلمة واحدة، فكيف وها هي كلماته الدهنية الملمس،وابتسامته الزلقة مثل كتلة من الشحمة، وغروره الفارغ الكبير تحز اعصابي حتى اكاد ارتجف من شدة القرف!! لربما كان هذا الرجل اكثر الموجودين بعثا على التقزز والاشمئزاز، بل اكثر رجل قابلته في حياتي من هذه العينة.

كان الوسخ في طبيخه لا يوصف، ولما كان هو الذي يطبخ كل ما يؤكل على السفينة ـ فقد كنت مضطرا لانتقاء ما اتناوله بتحرٍ شديد، حيث أختار من «تخبيصه» اقله قذارة واذى.

استدعت مني كلمة «قذارة» ان انظر الى يديّ، فأقلقتني حالهما الى درجة كبيرة. كانتا غير معتادتين على العمل، اما الآن فالاظافر فيهما قد تغيرلونهاوباتت سوداء، والجلد منهما ترسب في مساحاته الوسخ وتحبب. ان فرشاة جديدة لن تستطيع تنظيفه ولا كشط القذارة من عليه. ثم جاءت القروح عند حواف الجروح.. وكانت كثيرة لا تحصى. كما ان حرقا لحق براحة يدي، لأني فقدت التوازن مرة بفعل ارتجاج السفينة فحاولت الثبات بان امسكت مقدمة موقد الفرن.

وكذلك ازعجني حال ركبتي.. لم يتحسن وضعها ابدا. فالورم لم يخفّ والرضفة لما تزل اعلى من موضعها الطبيعي. كنت اقلز واعرج من غبش الفجر حتى عتمة الليل، وليس هذا مما يساعد على شفاء. ان ما احتاجه هو الراحة، لكن انى هي في موقعي هذا!

الراحة! هذه كلمة لم اكن ادرك مضمونها على الاطلاق من قبل. لقد ظللت في راحة طوال حياتي، فلم استوعب المعنى ولم احسّ به قبل الآن. اما هنا على ظهر السفينة، فحين اكف عن القلز نصف ساعة، فاجلس على مؤخرتي قليلا - احس بالغبطة الكاملة، وارى الراحة اكبر لذة في الوجود. ولعمري ان هذه المعاناة سوف تلهمني شيئا أنتفع بـه في المستقبل. بفضلها سأقيّم العناء الذي يلقاه افراد الطبقة العاملة في حياتهم. انه فظيع. لم اكن اتصور البتة ان في العمل كل هذه المشقة والتعب. فمن الخامسة والنصف صباحا الى العاشرة مساء اكون عبدا للجميع، دون لحظة واحدة اكون فيها مملوكا لنفسي انا الا الوقت الذي استطيع اختلاسه بعد نوبة الحراسة الثانية.

دعني أصمت للحظة وانظر الى البحر الذي يلمع تحت الشمس، او احملق في بحّار يرقى خشبة الصاري او يركض الى قوس السفينة، وانا متأكد عند ذاك ان اسمع صراخ احدهم: «انت،انت يا همب، لا تتلكع. لقد وقّعت معي عقدا على ورق».

هناك امارات مزاج سيء حاد بين البحارة، ويدور الكلام عن ان سموك وهندرسون قد تعاركا. ويبدو ان هندرسون هو افضل الصيادين، فهو رزين ثقيل الحركة، ولا يستثار بسهولة. لكنه لا بد ان استثير،فهذه عين سموك متورمة وخده مرضوض. هكذا بدا حين دلف الى غرفة الطعام للعشاء هذا المساء.

ولقد حدث أمر فظيع قبل العشـاء مباشـرة، شيء يؤشر الى لؤم هـؤلاء الرجال وضراوتهم.. كان هناك شاب فلاح بين طقم السفينة اسمه هاريسون. وكان ريفيا قبيح المنظر تسيطر عليه روح المغامرة، وهذه اول سفرة له على سفينة. وكان هبـوب الرياح الخفيفة يجعل السفينة تبطيء في سيرها، وعند ذاك يمكن ان يلف احد الاشرعة على رفيقه وتتداخل طياتهما. لذا يبعث المسؤول عن عجلة القيادة بحارا يرقى خشبة الصاري فيفك القلوع المتداخلة من بعضها. وقد حدث بينما كان هاريسون عند اعلى الصاري ان التف طرف الشراع على بكرات الحبال وعدة السّحب. وفي تلك الحال هنالك طريقتان لاصلاح ما حدث،الاولى انزال الشراع الامامي وفك القماش المتشابك، وهذه عملية سهلة ولا تنطوي على خطر. والثانية ان يتسلق بحار الى عرّاضـات القلع ويعمل هنـاك على فـك الطيات المتشابكة، وفي هذا خطر بالغ.

طلب جوهانسن من هاريسون ان يرقى الى العراضات، لكنه ظهر للجميع ان الشاب يتخوف من الصعود. وله الحق في ذلك كيف يطلب منه، على ارتفاع ثمانين قدما في السماء ان يلقي بنفسه على الحبال الرفيعة لتلك العراضات كي يفككها!!

ذلك امر عسير، والخطر كله فيه. لو كان هناك نسيم هادىء لما كان الأمر على هذا القدر من السوء، لكن السفينة كانت تسير في بحر عالٍ .. وخيـش القلوع يصطفق متثنيا

مع كل هبوط بين موجتين. وكان الاصطفاق والانثناء في قماش القلوع كافيا لأن ينوش اي رجل يعترضه ثم يطوّح به الى القاع وكأنه ذبابة تقع عليها ضربة سوط.

سمع هاريسون امر جوهانسن وادرك ما هو مطلوب منه، لكنه تردد. فلربما كانت هذه هي المرة الاولى التي يرقى فيها ذلك المسكين حتى يغدو معلقا في السماء. كان جوهانسن قد اصابته العدوى من وولف لارسن في حب السيطرة والطغيان، فانفجر في عاصفة من الشتائم واللعنات لتردد هاريسون.

وسمع ذلك وولف لارسن بطبيعة الحال فانتهر جوهانسن:

ـ انا الذي يحق له ان يشتم ويلعن على ظهر هذه السفينة. اذا احتجتُ الى مساعدة منك فسأكلفك بذلك.

ـ حاضر، سيدي.

هكذا قال جوهانسن في استخذاء وخضوع.

في هذه الاثناء، كان هاريسون قد باشر الصعود، وكنت انظر اليه من باب المطبخ وهو يتسلق، فرأيته يرتجف من الخوف: كل قائمة فيه تكاد تنخلع. وتابع ارتقاءه ببطء وحذر شديدين، بوصة واحدة في المرة الواحدة. فبدا لي مثل عنكبوت ضخمة تحبو على خيطان شبكتها.

كان صعوده مثل تسلق جبل عمودي الانحدار فيه مصاطب، فالدقل الامامي يرتفع كثيرا والعراضات توفر له مماسك منفصلة ليديه ورجليه. لكن المشكلة كانت في ان الريح ليست قوية بما فيه الكفاية ولا ثابتة بما يكفي لابقاء الشراع مفرودا. وحين صار هاريسون في منتصف تسلقه تحركت «الشبح» حركة طويلة جهة الريح، ثم ارتدت الى ما بين قمتي موجتين. فكف هاريسون عن التقدم وشد قبضته حيث كان. أليس هوممسكاً بحياته نفسها!! وهبوطا من غور ثمانين قدما رأيت التوتر المؤلم في كل عضلة من جسمه فيما هو يتعلق بأظافره بالحياة.

وفرغ الشراع من الهواء.. وتأرجح القلع بين الصاريين.... وارتخت العراضات ومع ان ذلك حدث بسرعة مذهلة فقد رأيتها تئن تحت ثقل جسمه. ثم إن القلع تأرجح الى الجانب فجأة بسرعة.وفرقع على الصاري الكبير وكأنه مدفع، واصطفقت رؤوس الاشرعة الثلاثة الحادة بالخيش وكأنها صلية من الرصاص. كان هاريسون ما زال متشبثا بمسكته، لكنه قفز الآن في الهواء بطيش ظاهر. وانتهت القفزة فورا. لقد اشتدت العراضات وتصلبت، بذلك انكسر ممسك هاريسون فانفلتت يده من موضع قبضتها. وقاومت اليد الاخرى ثقله كله للحظة. لقد حملته. ثم انها عجزت عن ذلك فافلتت ما كانت تتعلق به وصار جسده كله يخفق لا قلبه وحده. ان جسمه يرتفع وينخفض مع طيات الشراع. لكنه دبر امره .. امسك برجليه علّه ينقذ نفسه، فبات معلقا من قدميه، ورأسه الى اسفل. وبنترة سريعة لجسمه اعاد يديه الى العراضات من جديد. بذلك عاد هاريسون الى وضعه المؤسي السابق: انسان يثير الشفقة و الحزن يتعلق في هواء. وقد سمعتُ لارسن الذي كان يرقب ذلك يقول:

ـ لا شهية له لتناول العشاء! اراهن على ذلك. ابتعد عن حيث سيسقط يا جوهانسن. راقب. انها قادمة.

ما الذي سيقدم؟ هل هي جثة هاريسون تسقط لتتمزق؟ لست ادري.

رغم كل هذه اللاانسانية في المعاملة والنية الشريرة عند لارسن ظل هاريسون متعلقا في موضعه لا يتحرك. وكان جوهانسن يحثه كل لحظة على إكمال مأموريته الخطيرة. فضايق ذلك جونسون الذي كان يقف عند اصل الصاري قريبا مني على بضعة اقدام، وسمعته يشكو في لغة انكليزية واضحة:

ـ يا للعار.. ان هذا هو الخزي بعينه.. الولد راغب في العمل، وسيقوم بافضل منه لو اعطي فرصة لذلك.. لكن تكليفه بمثله الآن هو..

وسكت لحظة ثم اكمل حكمه النهائي فيما يجري فقال «جريمة مقصودة». عند ذاك وشوشه لويس:

ـ بس، أغلق فمك ان كنت تحب ان تراك امك.

لكن جونسون تابع تذمره واستنكاره لما حدث. فاستثار ذلك الصيادَ ستانديش الذي قال موجها كلامه الى وولف لارسن:

ـ إسمع. ان هاريسون مجدف قارب صيدي. وانا لا أريده ان يهلك.

فأجاب وولف لارسن:

ـ احذر يا ستانديش. انه مجدف قاربك حين يكون فيه. اما هنا على ظهر السفينة فهو احد بحارتي. وانا حر في ان اصنع به ما اشاء. هل فهمت؟

ـ لكن كونه بحارا ليس سببا كافيا لأن..

وتوقف ستانديش دون ان يلفظ كلمة «تقتله». فاستشاط لارسن غضباً وقال:

ـ قف بالامر عند هذا الحد. ذاك يكفي، لقد افهمتك بوضوح. الرجل احد بحارتي، ولي ان اصنع من لحمه حساء اتناوله كيف شئت اذا ما رغبت في ذلك.

كان هناك وميض غضب في عيني الصياد، لكنه ادار عقبه ودخل الى المهجع حيث ظل رافعا رأسه يتطلع الى سقف الحجرة. وكان جميع الرجال على سطح السفينة الآن، عيونهم شاخصة الى اعلى يرقبون حياة انسان في قبضة الموت. والحق ان لؤم هؤلاء الرجال الذين أوكلتْ اليهم الصناعة في الولايات المتحدة سلطة التحكم في حياة الناس الآخرين ـ كان منحطا الى درجة سخيفة. فانا الذي عشت خارج دوامة عالم العمل وصراعاته ما كنت اتصور ابدا ان تلك الدوامة تسير على هذه الشاكلة. لقد اعتبرتُ الحياة البشرية على الدوام شيئا مقدّسا، اما هنا فان روح الانسان لا تساوي شيئا. انها مجرد صفر في حسابات التجار والتجارة.

ومهما كان الحال فإن من واجبي ان اقول: كان البحارة متعاطفين مع هاريسون مشفقين على ورطته. هذا جونسون مثلاً. اما الرؤساء: الصيادون والقبطان ـ فقد كانوا لا مبالين تجاه نجاته او هلاكه. لم تكن في صدورهم قلوب البتة، فحتى احتجاج جونسون

نفسه انما انطلق من خشيته ان يخسر مجدف قارب لديه! ولو كان هاريسون مجدف القارب لصياد آخر، لما فعل جونسون اكثر من ان يتسلى بتلك المحنة.

ولنعد الى هاريسون.. مضت عشر دقائق استنفذ فيها جوهانسن كل مخزونه من اللعنات والشتائم. وكاد ينفلق من الغيظ، قبل ان يباشر هاريسون حركته في نقلة تالية. فبعد زمن يسير فك الفتى ما تشابك من طيات القلع، وغدا في وضع افضل. لقد خلّص ما كان عالقا فاصبح حرا في ان يهبط عبر العراضات حتى يبلغ خشبة الصاري. لكنه الآن فقد اعصابه. نعم انه لا يزال في وضع خَطِر، لكنه لا يجرؤ على استبداله بوضع آخر.

نظر هاريسون الى القفزة التي كان يتوجب عليه ان يقوم بها في الهواء حتى يصل العراضات، ثم نظر سفلا الى السطح. واتسعت حدقتا عينيه مما رأى. فأخذ جسده كله يرتجف. لم ار في حياتي على وجه انسان تجسدا للخوف كالذي اراه الآن. وصاح به جوهانسن ان يهبط، لكن عبثا. كان الفتى عرضة لأن يلقطه القلع في اية لحظة، وهو متجمد من الخوف. وكان لارسن يروح ويجيء على السطح ويتحدث مع سموك دون اي اهتمام بالحال. تُرى كانت حياة هاريسون لا تعنيه! تلك هي الحقيقة.

وصاح لارسن في الرجل الذي كان يتولى دفة السفينة:

ـ انت! لقد ابتعدت عن الاتجاه السليم. انتبه يا رجل، الا اذا كنت تفتش عن المتاعب لنفسك.

ـ نعم، سيدي.

قال هذا صاحب الدفة وأدار دفته شوكتين الى اسفل. وكان الرجل قد انحرف قليلا عن خط السير الصحيح علّ دفعة من الريح تملأ شراع السفينة فيسهُل على هاريسون ان يقوم بعمله وتكتب له السلامة. انه يغامر بغضب لارسن منه رجاةَ ان يساعد زميله المنكود. لكن، هيهات!

لقد لاحظ لارسن ذلك وفطن الى ما رمى اليه الرجل، فرفضه شكلا ومضمونا. انه «الذئب» وذئب هو الآن.

ومضى الوقت والتوتر المفزع يزداد في نفسي كل لحظة.. على النقيض من ماكريدج الذي وجد في شبه الجريمة التي تجري مدعاة للضحك. لقد ابرز رأسه من عند صدغ الباب في المطبخ واخذ ينثر تعليقات سمجة على الواقع. ما اشد ما امقته الآن! كيف تنامت كراهيتي لهذا المخلوق حتى تضخمت فباتت عملاقا من الاحتقار! هذه اول مرة اجد في نفسي ميلا الى الوقوع في الجريمة. بل لم اعد اعتبر قتله جريمة اصلا.

وراعني ان تراودني هذه الفكرة. هل انتقلت «ذئبية» وولف لارسن الي!! هل بلغت جرثومة العدوى هذا القدر من القوة والطغيان! كيف تراني انا الذي ظلْتُ ارفض انزال عقوبة الاعدام بالمجرمين بعد اصدار الحكم عليهم من محكمة عادلة ـ اغدو الآن تواقا لتنفيذ تلك العقوبة قبل اصدار اي حكم!! ان هذا لعجيب.

ومرت نصف ساعة، رأيت بعدها جونسون ينحّي ذراع لويس الذي كان يعـوقه جانبا ويجتاز السـطح ثم يشـرع في التسلق. ورآه وولف لارسن فصاح به:

ـ انت، مالك تتسلق الصاري؟

ـ لأنزل الولد من هناك.

ـ ليس هذا من شأنك. انزل. هل تفهم؟

هكذا توقف ذلك العمل الطيب الذي اراد جونسون ان يفعله، وها هو الرجل يهبط الى السطح من جديد. ترى هل ان عهده الطويل بطاعة القباطنة على السفن هو الذي انتصر هذه اللحظة!؟ ان للبيئة أثراً حاسما في سلوك الانسان على كل حال.

وفي الساعة الخامسة والنصف من ذلك المساء هبطت الى مطبخ السفينة لأباشر العمل في اعداد المائدة..وكنت اشتغل، لكني غير متأكد من انني اعي ما اقوم به. كان ذهني كله مركزا حول ذلك المخلوق البائس الذي يصارع الفناء. ان يديّ تتحركان دون وعي مني. ولست ارى على اغطية المائدة الا صورة قلوع تصطفق وعراضات رخوة تتحرك صعدا وسفلا. ومع هذا فقد قمت بالروتين المطلوب دون ان يندلق طبق او تسحل صينية فينسكب ما في صحونها. ولقد سرني بالفعل ان اجد هاريسون يدخل المطبخ في الساعة السادسة والنصف. كان الشاب قد تشجع فقفز في الهواء آخر الامر. وكان من حسن حظه ان امسك بخشبة الصاري ثم هبط. ها هو سالم على السفينة الآن!ولتبقَ الاسماك جائعة الى الابد.

لم تُثر نجاة هاريسون اية مشاعر بالفرح لدى رجال السفينة وهم على المائدة. كلا، اذ اقتصر حديثهم، على اتجاه سير السفينة وضرورة زيادة سرعتها. اما هلاك هاريسون او نجاته فأمر لا يهم الجميع. ولا انسى ان اذكر هنا حديثا جرى بيني وبين لارسن بهذا الخصوص. فبعد العشاء شاهدني لارسن اقوم بغسل الصحون فاقترب مني وقال:

ـ لقد بدا عليك الخوف بعد ظهر هذا اليوم؟

وادركت انه يود ان يجرني الى الحديث عن واقعة هاريسون، ورغبت في مطاوعته الى ذلك فقلت:

ـ ليس الخوف الذي تفهمه مرادفا للجبن في نظرك.

ـ اذن ماذا؟

ـ انه الرفض والاستنكار للمعاملة الوحشية تجاه ذلك الشاب.

وضحك لارسن من ذلك وقال:

ـ هذا مثلُ مرض دوار البحر، بعضهم يعاني منه والبعض الآخر لا يتأثر به.

ـ كلا، ابدا.

ـ بلى، مثله تماما. اسمع: ان الارض مليئة بالوحشية بقدر ما يعج البحر بالحركة. ويتأثر بعض الناس بالاولى كما يتأثر بعضهم بالثانية. هذا هو السبب الوحيد.

ـ قل لي يا لارسن وانت الرجل الذي يسخر من الحياة البشرية.. الا تجعل لهذه الحياة قيمة في نفسك؟

ـ قيمة، اية قيمة؟

ونظر الي لارسن بعينين ثابتتين بدا لي ان فيهما بسمة خبيثة هازئة ثم استطرد:
- اي نوع من القيمة؟ كيف نقيسها؟ ومن يقدّرها؟
- انـــا .
بهذا اجبت عن اسئلته المتشككة المستنكرة، فسألني:
- اذن ما الذي تسواه الحياة في نظرك؟ اعني حياة رجل آخر. اجب: ما الذي تسواه تلك الحياة؟

كان سؤاله محيّرا. كيف استطيع تعيين قيمة ملموسة لحياة انسان! وهل يمكن تحديد قيمة من هذا النوع اصلا! لقد خانني التعبير الآن .. انا المثقف الذي لم يعجزه التعبير بوضوح عن اي شيء اراده طيلة حياته، لماذا حدث ذلك! هل يمتلك وولف لارسن شخصية طاغية تسيطر على قدراتي في التفكير فتشلّها او تشوش عليها المحاكمة العقلية! رفضت هذا التعليل وفضلت تفسير ما حدث باعتباره نوعا من انقطاع الاتصال بيننا، لأن له في الحياة نظرة مغايرة تماما لنظرتي الخاصة.

لقد قابلت امثاله من اصحاب النظرة المادية الصرفة لكني كنت اتواصل معهم فكراً وتعبيراً، حيث كنت اقع على نقطة انطلاق مشتركة معهم نبدأ منها المناقشة. اما مع لارسن فلا اجد اي منطلق مشترك. ان عقليته بسيطة وطريقة تفكيره مباشرة. وهذا ما يلجمني عند مناقشتي له. فهو ينفذ مباشرة الى جوهر القضية منحّيا كل الخطوات التدريجية في النقاش، ومُزيحا جميع التفصيلات غير الضرورية من طريقه. انه يطرق لب الموضوع ولا يأبه بغير ذلك. وهو حاسم في تعبيره عما يريد، لذلك لا تجدي معه المراوغة ولا التشكيك.
كان هذا ما جعلني احسّ وكأنني اسبح في مياه عميقة: لا تطأ قدماي شيئا ولا اجد قدرة على الصعود. كان لارسن يطلب تحديد «قيمة الحياة» كما افهمها انا، فكيف استطيع الاجابة عن سؤاله على التو، ومن قبيل الارتجال؟

انا اتقبل ان للحياة قيمة مقدسة كشيء بدهي لا يتطلب اثباتا ولا يستثير جدلا، وان الحياة ذات قيمة كبيرة بما هي حياة، كحقيقة قائمة. لم احاول ان اتساءل عن صحتها. اما عندما تحدى لارسن هذه الحقيقة فقد انعقد لساني لانني لم اجد ما اقوله له.

لاحظ لارسن ارتباكي وعجزي معا، واحبَّ متابعة حديثه معي فقال:

- بالأمس تكلمنا حول هذا الموضوع ذاته. وكان رأيي ان الحيـاة خميرة، شيء معجّن يلتهم الاحياء كي يظل يتحرك. وأن كون امرىء حيا ليس اكثر من حقارة ناجحة من طرفه. وانت تعلم: ما دام هناك شيء خاضع للعرض والطلب فان الحياة ستظل ارخص ما في هذا العالم. هناك قدر محدود من الماء وقدر محدود من التراب، وآخر من الهواء.. لكن الحياة التي ترغب في ان تبرز الى الوجود هائلة ليس لها قدر محدود. ان الطبيعة مسرفة مبذرة. انظر الى السمك وملايين البيض الذي تبيضه سمكة واحدة. وفي مجال «المادة» انظر الى نفسك وإليّ. في صلب كل منا تكمن امكانية انتاج ملايين البشر، فلو استطعنا الاستفادة من اقل إمكاناتنا في هذا المجال، ووجدنا الوقت الكافي لذلك - لامكننا ان نغدو ابوين لأمم وشعوب تغص بها جميع القارات. الحياة؟ بخ بخ! انه لا قيمة لها، فهي ارخص من كل شيء. ونحن نجدها تتسكع وتتشحذ في كل مكان، فالطبيعة تسفحها بيد سخية جدا،

وفي كل مكان ايضا. وحيث هناك متسع لحياة واحدة تبذر الطبيعة الوفا. من ثم تـظل الحياة تأكل الحياة نفسها حتى يبقى اشد اشكالها قوة واعظمها حقارة.

ـ لقد قرأتَ داروين يا سيدي، لا شك في ذلك. لكنك قرأته وأسأت فهمه. والا لما توصلت الى استنتاج ان «صراع البقاء» يبيح لك الافراط في تدمير الحياة.

سمعني لارسن أجبهه بهذه التهمة فهز كتفيه وقال:

ـ انت تقصُر ما تعني من قولك «قيمة» على حياة الانسان وحدها، اذ انك فعلا تبيح تدمير حياة الطير والسمك بمقدار ما تستطيع. هذا مع ان الحياة في الانسان لا تختلف عن الحياة في ذينك الصنفين بصورة من الصور. نعم انت تشعر انها تختلف،وتفكر في ايجاد سبب ما للاختلاف، اما انا فلا اجد سببا يجعلني حريصا على حياة رخيصة ولا قيمة لها. ما الذي يدفعني الى ذلك؟ هناك بحارة اكثر مما تحتاج السفن الجارية في البحار، وعمال اكثر مما تتطلب المصانع والماكينات. لماذا تضع «قيمة» للحياة يا من تقطن على البر وانت تعرف تماما انكم يا اهل المدن ـ تؤوون فقراءكم في احياء التنك وتفلتون عليهم الأوبئة الفتاكة والمجاعات؟ كما تعرف ايضاً انه سيظل هناك فيض من الفقراء والغرثى يهلكون لعدم وجود كسرة الخبز وشريحة اللحم ـ وهما ايضا حياة يتم تحطيمهـا ـ اكثر ممـا تستطيعون عمل شيء لهم.

هل رأيت في حياتك ارصفة ميناء لندن حيث يتعارك العمال كالكواسر في سبيل ان يجد الواحد منهم عملا، اي عمل؟

قال هذا واستدار ليمضي الى سلم المهجع، غير انه انفتل ثانية ليقول كلمة اخيرة يختم بها موضوع حديثه.

ـ هل تعرف ان القيمة الوحيدة التي تمتلكها الحياة هي ما تعلّقه الحياة على نفسها من قيمة؟ وفي ذاك مبالغة وشطط في التقدير بطبيعة الحال، لأنها تحابي نفسها بالضرورة.

خذ ذلك الرجل الذي ابقيناه معلقا في الاعلى مثلا. لقد تمسّك بحياته وكأنه عنصر ثمين في هذا الوجود، كنز اثمن من الماس والجواهر. هل هو كذلك بـالنسبة اليـك؟ لا. بالنسبة الي؟ لا ايضا. بالنسبة لنفسه؟ نعم. لكني انا ارفض تقييمه هذا. وهو مع الاسف يبالغ في ذلك. هناك قدر كبير من الحياة يطلب أن يولد. لو وقع الرجل وانتثر مخه على السطح مثل عسل قرص الشمع ـ لما كان هنالك اية خسارة للعالم. كان لا يسوى شيئا بالنسبة الى العالم، فالعرض من امثاله زائدْ. انه كان يسوى شيئا بالنسبـة الى نفسه وحدها. ومن اجل التدليل على سخافة هذا التقييم لا حاجة الى القول بان صاحبه حين يموت لن يعي انه قد هلك. هو وحده الذي يعتبر نفسه اثمن من الجواهر. يا لها من جواهر ويواقيت تلك التي تنتثر على السطح فندلق عليها سطلا من الماء المالح لنغسل آثارها! لو سقط الرجل من موقعه لما فعلنا اكثر من ذلك. بل ادهى من هذا.. لما عرفتْ تلك الجواهر انها قد انتهت وزالت. وحتى آنذاك، لا يكون الرجل قد خسر شيئا. لانه بموته تموت معه معرفته انه يموت. الا تدرك هذا يا همب؟ وما الذي عندك ترد به؟

ـ أرد بانك امين مع نفسك على الاقل. فلا تناقضَ في تفكيرك ابدا.

الفصـــل الســـابع

واخيرا، وبعد ثلاثة ايام من هبوب رياح متغايرة ـ دخلنا مجال الرياح التجارية الشمالية الشرقية. وقد صعدت الى السطح في ذلك الصباح بعـد ليلة جميلة رغم آلام ركبتي المنتفخة، فوجدت «الشبح» تغتسل في زبد ابيض لماع من الجانبين. كانت جميع اشرعتها مفرودة حبلى ما عدا الشراع الثانوي الصغير، وكان النسيم رقيقا عند المقدمة. ما اروع الرياح التجارية! لقد ابحرنا طيلة النهار وتمام الليل، واليوم التالي، والذي يليه، يوما بعد يوم، والريح رخية ثابتة في هبوبها قوية في اداء خدماتها المشكورة «للشبح». لم تكن هناك حاجة الى البحارة كي يسحبوا شراعا او يشدوا حبلا، ولا ان يفردوا عراضات او يرقوا الى قمة صاري. ما كان عليهم الا توجيه الدفة وعجلة القيادة، فالامر كله يسر وتوفيق. فهم عند الفجر يشدون الشراع قليلا لينفضوا عنه الندى، وان لم يفعلوا كفتهم شمس الضحى مؤونة ذلك. ان حياتهم هذه الايام سعادة مطلقة وراحة متطاولة. هذا كل ما عليهم ان يفعلوه.

اما سرعة السير فكانت تتزايد على الدوام: عشر عقد، احدى عشرة عقدة، اثنتا عشرة عقدة، نقطعها ما بين الفجر والفجر الذي يليه. ان الرياح التجارية تهب بجرأة فتدفعنا مائتين وخمسين ميلا في اليوم الواحد. ولقد احزنتني هذه النعمة وافرحتني معا. كنت أفكر في ذلك النشاط الذي نبتعد به عن سان فرنسيسكو موغلين في لجة المحيط كما افكر في هذا الحبور الذي ارى اماراته تكاد تنطق على وجوه الجميع، فأغتبط.

واخذت درجة الحرارة ترتفع يوما بعد يوم، فنحن نعبر الى المنطقة المدارية شمالي خط الاستواء. لذا صار البحارة يدلقون سـطول الماء عـلى رؤوس بعضهم بعد نـوبة الحراسة الثانية قبل الفجر، كما اخذت ملابسهم تقصر وتقصر. اتراهم سيتجردون منها بعد ايام! لا ادري ولا اظن ذلك. واخذ السمك الطيار يتلامع فوق سطح السفينة حيث كان كثيرا ما يسقط هناك. وهذا ما اغتبط به ماكريدج، حتى وجهه العابس دائما بات الآن مثل وجوه بقية الناس. وبخاصة حين يشكره البحارة على رائحة السمك المقلي الشهية بفضل ما يتبّله به من البهارات. كذلك لحم الدلفـين.. بات الان وافـرا مبذولا للجميـع. وكان جونسون يصطاد تلك المخلوقات الجميلة من فرجة بين قوس السفينة ومقدمتها.

وبدا ان جونسون يمضي كل وقته الذي يفرغ فيه من العمل قاعداً بين قاعدة الصواري، يرقب «الشبح» تشق الماء بفضل امتلاء القلوع. كان هناك عاطفة، نوع من تقديس، بل نشوة غامرة ـ يشعر بها في انتفاخ الاشرعة وحباب الزبد، وفي جريان الشبح بنعومة عبر جبال الماء التي ترافق موكبها بكل عظمة وجلال.

ان جميع الليالي وايامها الآن «غبطة وسرور»! ومع انه ليس لديّ وقت للمتعة،بحكم عملي المتعب الممل، فقد كنت اختلس بضع دقائق امتع نظري فيها بهذه الروعة الفائقة والجمال البهي الذي لم اتصور وجود مثله على الاطلاق. فالسماء صافية زرقاء كلها نقاء ـ تضم الى حِجرها هذا البحر اللازوردي الجميل، هي تحنو عليه كالرضيع وهو يتقبلها هائما بها كعاشق ولهان. ما اجمل البحر، آه ما اجمله!!

وفي الأفق كانت هناك سحب منتثرة مثل جزة من الصوف، لكنها هناك فضية اللون أميَل الى الشحوب. أليست تشكل اطارا يحف بسماء اردوازية تتوسط لوحة فنية ابدعت رسمها الطبيعة!!

ولن أنسى ذات ليلة، حيث كان ينبغي ان اكون نائما، انني اضطجعت عند قاعدة الدقل الامامي واخذت انظر الى فقاقيع الزبد التي تدفعها مقدمة السفينة. كان لها خرير مثل خرير الماء في غدير رائق ينساب فوق احجار مكسوة بالطحلب في واد ظليل معزول. لقد اغرتني موسيقاه فلم اعد لحظتئذ «همب» مساعد الطباخ ولا «فان ويدين» الشاب الذي دفن نفسه بين دفات الكتب وهو يحلم. عند ذاك سمعت من ورائي صوت وولف لارسن الذي لا يخطئه احد، فكان مليئا بثقة الرجل من نفسه ورقيقا ناضحا بتذوقه الرفيع للأدب الذي ينشده. كان يقول:

يا لروعة الليل المداري المتلألىء
حين يكون الفجر حقيبة من الضوء
يمسك زمام السماء اللاهبة فيروّضها.

هنا تندفع حبيبتي بثبات عَبْرَ ارضية مرصعة بالنجوم
الى حيث يبحر الحوت المجنون في لهب الشروق.

غادتي الحبيبة، الواحِ صفحتها قد ندّبتها الشمس
وحبالها مشتدة قد وتّرها الندى
فنحن ننطلق على الطريق القديم، دربنا الخاص، الطريق الذاهب الى بعيد.

اننا نحث الخطى جنوبا على الطريق المبارك العتيق
والذي هو جديد على الدوام.

أنهى لارسن اقتباسه الرائع مترنحا ثم اطرق لحظة كأنه يتمثل تلك النشوة في اعماقه وقال:

ـ آه، يا همب، أما يروق لك هذا؟

نظرت الى وجهه. كان متألقاً بفيض من الغبطة والنور كالبحر نفسه. وكانت عيناه تومضان متجهتين صوب لمعان النجوم. وقلت ببرودة ظاهرة:

ـ بلى، انه يسحرني. واقل ما اقوله فيه: انك تبدي حماسة في تقديره.

ـ ولِمَ تنكر علي ذلك ايها الرجل؟ الحماسة تعبير عن الحياة، والذي امامي هو الحياة.

ـ والتي هي شيء رخيص، ولا قيمة لها. اليس هكذا؟

وضحك لارسن. كانت هذه اول مرة استشعر فيها مرحا صادقا في صوته. وقال:

ـ آه انا عاجز عن ان اجعلك تفهم. اذ لا أستطيع ان احقن في رأسك ماهية الحياة بالاكراه. طبعا ان الحياة لا قيمة لها الا في نظر نفسها.. دعني اخبرك ما اثمنَ حياتي في هذه اللحظة (وذلك طبعا بالنسبة الي). انها ارفع من كل ثمن. وهذا ما ستعتبره انت افراطا في المبالغة دون شك. لكني لا استطيع منعه، لان الحياة التي فيّ ـ هي التي تضع ذلك التقييم.

وبدا لي في تلك اللحظة انه كان ينتظر الكلمات التي يعبر بواسطتها عن الفكرة القائمة في رأسه. واخيرا قال:

ـ هل تعلم يا همب! انا اشعر باحساس من التسامي! أجدني احس وكأن عصور الزمن الغابر تبعث صداها في نفسي، وكأن قوى الوجود كله هي قواي. انا اعرف الحقيقة، الخير من الشر، والحق من الباطل. ان بصيرتي واضحة ونافذة الى البعيد. واكاد أومن بإله. لكن..

وعند هذه الكلمة تغيرت نبرته وخفت صوته وزايل وجهه النور الذي اضاءه من قبل. ثم استطرد:

«ما هذه الحالة الوجدانية التي تلفني؟ هذا الحبور الغامر بأنني حي؟ هذا الدفق الفائض من الحياة؟ بل هذا الوحي والالهام كما يجوز ان أسميه؟ انه ما يشعر به المرء حين يكون جهازه الهضمي سليما لا يعاني من المتاعب: معدته ممتازة وشهيته تعرف حدها، وكل شيء يسير على ما يرام. انها الرشوة لأن يكون المرء حيا، شمبانيا الدم، غذاء خميرة الحياة، والذي يجعل بعض الاشخاص يفكرون افكارا قدسية وآخرين يرون الله او يخلقونه من عندهم ما داموا لا يستطيعون ان يروه. هذا كل ما هناك، ثمل الحياة، تحرُّك الخميرة، وزحف عجينتها، فوران الحياة المجنون بوعيه انه حي. لكن اواه، انني سأدفع ثمن كل ذلك غداً، فالثمِل هو الذي يدفع الثمن. وسأعلم انني سوف اموت، وعند ذاك ينجزر هذا البحر الزاخر في نفسي ولا يبقى منه الا نفايات فساده ليتغذى عليها الغير. آنذاك اكون رمّة عفنة! حيث اتخلى عن قوة عضلاتي وحركتها كي تغدو قوة وحركة في زعنفة، وفلوسا او امعاء في جوف السمك. اواه،واواه ..لقد فقدت الشمبانيا تأثيرها، واللمعان والحباب قد انطفأ، وباتت خمرتي شرابا عديم المذاق.

قال لارسن ذلك وتركني فجأة مثلما حضر. لقد وثب الى السطح في قوة النمر ورشاقة حركته. وظلت «الشبح» تحرث طريقها في البحر وهدير المقدمة منها مثل الشخير. كنت اصغي لذلك فيما اخذ اثر ارتداد لارسن السريع من النشوة السامية الى اليأس يفارقني

قليلا قليلا حتى زال. وعند ذاك رفع واحد من بحارة المياه العميقة كان يقف عند خاصرة السفينة عقيرته بالغناء واخذ يردد اغنية يمجّد بها الرياح التجارية ويقول:

انا ريح البحّارة المحببة الى قلوبهم ..
آتيهم ثابتة، قوية، منتظمة على الدوام.

انهم يتبعون طريقي تهديهم الغيوم من فوق
وعبْر البحر المداريّ الازرق الذي غوره عميق.
طوال النهار المشرق، وسحابة الليل اللماع ـ اظل ألاحق السفينة
اتبعها مثل سلوقيّ رشيق.
واكون اقوى ما اكون وقت الزوال. اما بعد طلوع القمر
فإنني أيبّس من الفُلك خيش القلوع

الفصل الثامن

احيانا ما اظن وولف لارسن مجنونا او مخبولا على الأقل، وذلك لأحواله الغريبة وتقلباته المتكررة. واحيانا ما احكم بانه رجل عظيم عبقري، لم تسمح له الظروف بالابداع. وآخر الامر اجدني على قناعة تامة بانه ذلك الانموذج الكامل لانسان بدائي أول وُلد بعد الف سنة مما ينبغي، فهو الآن غلطة تاريخية بالنسبة الى عصور الحضارة المتأخرة. وهو على التأكيد رجل من دعاة الفردانية الى ابعد مدى ظاهر. ليس هذا فقط بل انه كذلك متوحد شديد الانطواء. وليس هنالك عامل اتفاق او انسجام بينه وبين اي من الرجال على سفينته، فحيويّته الصلبة وقوة ادراكه العقلي تحجبانه عنهم وتبقيان بينه وبينهم حاجزا. انهم ليسوا امامه اكثر من اطفال، حتى الصيادون وهو يعاملهم على هذا الاساس فيهبط بنفسه قسرا الى مستواهم ويداعبهم كما يفعل المرء مع جراء الكلاب. وفي بعض الاحيان يزجرهم بيد قاسية مثل يد الجرّاح في علم التشريح فيصنّف تصرفاتهم ومحاكماتهم العقلية ويتفحص نفوسهم وكأنه يودّ معرفة مادة تلك النفوس.

لقد شهدتُه عشرات المرات على المائدة يحقّر هذا الصياد او ذاك بعينين باردتين، لكن بنوع من الاهتمام، ويفكر في اجاباتهم او ردودهم العملية على ذلك بنوع من الفضول المثير للضحك لدى متفرّج حيادي مثلي يدرك ابعاد الموقف آنذاك. اما بصدد فورات هياجه وغضبه فانا على يقين انها غير حقيقية وانما يصطنعها الرجل كتجارب، او انها نتاج موقف سلوكي اعتاد عليه لارسن ويراه مناسبا للتعامل مع رجاله هؤلاء. والواقع انني باستثناء حادث الزميل المتوفى، لم ار وولف لارسن غاضبا بالفعل. ولا ارغب حقا في رؤيته وقد تملكه الغضب، اذ تتبدى جميع قوته في العمل، في تلك الحال.

وتبقى مسألة تقلباته المزاجية. وسأروي بصدد ذلك ما وقع مع توماس ماكريدج في الكابينة ثم أكمل حادثا اشرت اليه اشارة عابرة من قبل. انتهى عشاء منتصف الليل، ذات يوم وكنت قد فرغت للتو من ترتيب الكابينة عندما هبط وولف لارسن وتوماس ماكريدج على سلم الطابق السفلي من السفينة. ومع ان الطباخ له طاقة تنفذ من غرفة النوم الى الكابينة فإنني لم اره ابدا يبقى في الكابينة لمدة طويلة. انه لا يجرؤ على ذلك وانما يجوسها مرة او اثنتين في اليوم بحذر وتخوف.

«اذن انت تعرف كيف تلعب لعبة «ناب» بالورق.»

هكذا قال وولف لارسن بلهجة ودية للطباخ، ثم اكمل:

«كان علي ان افطن الى ان اي رجل انكليزي يلعب تلك اللعبة، فقد تعلمتها انا نفسي على السفن الانكليزية».

انشرحت نفس ماكريدج لهذا الاطراء وبانت في وجهه وداعة من يستجدي التقدير ليرفع من شأنه. كان يرغب في محادثة القبطان وقد جَهد في اضفاء مظهر السيد المحترم على نفسه. وكانت سمة التصنع في ذلك ظاهرة تبعث علىَ الضحك. وتجاهل وجودي تماما، فقلت في نفسي: ربما انه لم يرني اصلا. كانت عيناه الزائغتان الفاتحتا اللون تعومان في محجريهما كمياه البحار الراكدة اثناء الصيف، وان كنت عاجزا عن تخيل النشوة التي كانتا تطفحان بها في نفس ذلك الرجل. وقال لارسن:

«أحضر ورق اللعب يا همب».

قال ذلك فيما هما يتخذان مقعديهما حول الطاولة، ثم اضاف:

«واحضر السيجارات والويسكي التي تجدها في صندوق امتعتي».

عدت بما طلب مني لارسن في الوقت المناسب، لأسمع الطباخ يقول انه لا بد ان يكون في امره سرّ ما، فقد يكون ابناً لأحد السادة الذي وقع في خطيئة من نوع او آخر، وانه رجل مقصًى يُدفع اليه مبلغ كبير من المال كي يظل خارج انكلترا. وقد وضع هذا المعنى في عبارة «يُدفع الي بسخاء كي ابعد سنارتي واظل بعيدا بها عن البلاد.»

جئت بالاقداح المعهودة في مثل تلك الحال، لكن وولف لارسن عبسَ وتولّى واشار بكلتا يديه الي ان احضر الاقداح الكبار. وحين ملأ القدحين الى ثلثيهما بالويسكي الصرف دون ان يكسر حدة الشراب بالماء ـ علّق على ذلك ماكريدج بقوله: «هكذا يشرب السادة». وقرع كل منهما قدحه مع الآخر ثم شرب نخب لعبة «ناب» المزمعة، واشعل لارسن سيجارا وباشر فت الورق بعد خلطه بضع مرات.

كانا يلعبان لقاء نقود، ويزيدان مبلغ الرهان للدقّ الواحد كل مرة. وكانا يشربان الويسكي صرفا وانا اجلب المزيد. ولا ادري اذا كان وولف لارسن قد مارس الغش في اللعب ام لا، لكنه كان يكسب كل مرة. لقد قام الطباخ بزيارات متكررة الى غرفة نومه لجلب المال لكنه لم يجلب في المرة الواحدة اكثر من بضعة دولارات. واخذ منه الشراب وفعلت خسارته المتكررة فعلها، فجعل يترنح على كرسيه كما بات لا يحسن التمييز في ورق اللعب. وفي احدى المرات شبك اصبعه المشرَب بالدهن بأحد ازرار صدارة وولف لارسن وقال: «لدي نقود، استمر، انا سليل سيد محترم».

لم يتأثر وولف لارسن بالشراب مع انه كان يشرب مع ماكريدج كأسا بكأس، بل يملأ قدحه اكثر مما يفعل شريكه في اللعب. وهو يشرب الويسكي بصورة مستمرة، فلا جديد عليه هذه المرة اذن. بل انه لم يبد عليه المرح ولا التسلية من حكايا رفيقه العتيقة. وظلا يلعبان طويلا..

وفي النهاية، وبتظاهرة جهيرة الصوت من ماكريدج في أنه يستطيع اللعب مثل اي سيد مهذب ـ وضع الطباخ آخر ما كان معه من النقود. وخسر المبلغ، فاسند رأسه الى راحتيه وجعل يبكي. ونظر اليه وولف لارسن بفضول وكأنه يود ان يشرّح جسده، لكنه تخلى عن الفكرة على اساس انه: ليس هناك من شيء سيتوصل اليه لو فعل، فلا روح في مثل ذلك الجسم الفارغ. وقال:

«يا همب. امسك ذراع السيد ماكريدج برفق وقم بقيادته الى سطح السفينة فهو يشعر ببعض التعب».

ثم اضاف هامسا في اذني بحيث لا يسمع ماكريدج:

«لا تنس ان تطلب الى جونسون العمل على تصحيته. دعهم يدلقون بعض سطول الماء المالح على رأسه».

وتركت ماكريدج على السطح بين يدي بحارين اثنين كلفهما جونسون بالمهمة المطلوبة، وهو لا يزال يردد انه ابن احد السادة الكبار. لكنني عندما هبطت الدرابزين الى الكابينة سمعته يصرخ حين دلقوا عليه اول سطل من الماء. وفي الكابينة وجدت وولف لارسن يعد النقود التي كسبها من اللعب. وقال:

ـ «انها ماية وخمسة وثمانون دولارا بالتمام والكمال. آه،لقد جاء الشحاذ الى السفينة وليس معه اية نقود على الاطلاق».

وقلت: «ان الذي كسبته منه هي نقودي انا،فيكون هذا المبلغ لي».

فرشقني وولف لارسن بنظرة متفحصة وقال:

ـ «انت تعرف قواعد اللغة دون ريب، ما بالك اهملتها هذه المرة! نعم لقد كانت هذه نقودك. اقول كانت..»

ـ «ليس الامر قضية صيغة الفعل في قواعد اللغة وانما هو مسألة اخلاقية».

لم يردّ وولف لارسن الا بعد اكثر من دقيقة. لقد ظل مطرقا، ربما كان يفكر. ثم قال بجدية متباطئة تحمل في طياتها نسمة من الحزن.

ـ «هل تعلم يا همب.. ان هذه هي المرة الاولى التي اسمع فيها كلمة «مبادىء اخلاقية» يلفظها فم انسان؟ انا وانت وحدنا بين من تحملهم هذه السفينة ندرك معنى هذه الكلمة. في فترة من حياتي.. (وأطرق ساهما مرة اخرى) كنت احلم بأنني يوماً ما سوف اتحدث مع اشخاص يستعملون مثل هذه المفردات: أرتفع بنفسي عن مستوى هذا الموقع من الحياة الذي وُلدت فيه، واخالط رجالا يتحدثون عن اشياء مثل «المبادىء الاخلاقية». وهذه اول مرة في حياتي اسمع هذه الكلمة يلفظها مخلوق. والمسألة بهذه المناسبة ليست قضية اخلاقية، ولا إشكالا لغويا.. بل مسألة واقع فعلي».

ـ «انا ادرك الآن.. فالواقع القائم انك انت الذي تملك النقود».

واشرق وجهه، اذ بدا ان دقة انتقائي للكلمة قد اعجبته.. ثم اضفت:

ـ «لكن «واقعك» هذا ليس الا تحاشيا للاجابة عن القضية الحقيقية، والتي هي مسألة الحق».

لوى لارسن فمه عند ذلك وقال:

ـ «آه! انت ما تزال تؤمن باشياء من قبيل: حق وباطل!»

ـ «وانت؟ الا تفعل؟»

ـ «ابدا، على الاطلاق. القوة هي الحق. وكل واقع يؤيد ذلك. فالضعف هو الباطل، وهو تعبير ضعيف الصياغة عن القول: من الخير للمرء ان يكون قوياً ومن الشر له ان يكون ضعيفا.. بل افضلُ من هذا جعلها في عبارة اخرى كالقول: من السار ان يكون المرء قويا، لما يجلبه له ذلك من المغانم؛ ومن المؤلم ان يكون ضعيفا لما يحمله ذلك من المغارم. خذ واقع الحال: ان حوز هذه النقود شيء يبعث على السرور. وهو حسن للمرء ان يفعله. وكوني قادرا على الاستحواذ عليها يجعلني مخطئا بحق نفسي وبحق الحياة التي فيّ لو لم افعل، بل اعطيتك اياها، حارما نفسي لذة حيازتها».

ـ «لكنك تسيء اليّ بحرماني منها!»

بهذا اعترضت على ما قال، فاجاب لارسن:

ـ «كلا. ان الانسان لا يستطيع ان يؤذي انسانا آخر، ولا يسيء اليه. انه يستطيع ان يسيء الى نفسه فقط. فانا ارى انني اخطىء فقط عندما اهتم بمصالح الآخرين. الا ترى مثل ذلك؟ كيف يمكن لجزيْئَين من خميرة الحياة ان يسيء احدهما الى الآخر عندما يحاول التهامه؟ ذاك هو جُماع تراثهما: محاولة التهام الغير وتجنب الالتهام من قبل الغير. فعندما يخرج احدهما عن هذه القاعدة يكون قد اخطأ».

ـ «اذن انت لا تؤمن بالغَيرية؟»

وبدا ان كلمة «الغيرية» هذه ذات رنين مألوف لديه، ومع هذا فقد صمت قليلا يقلّب وجوه معنى مضمونها، ثم قال:

ـ «دعني ارى.. انها تعني شيئا من قبيل التعاون والتكافل. هل هذا صحيح؟»

ـ «نعم، ان لها علاقة بذلك بصورة ما».

وقد فطنت هذه المرة الى وجود خلل ما في معلومات لارسن من شأنه ان يترك فجوات ومناطق نقص في حفظه للكلمات. لكني تذكرت ان هذه الالفاظ، شأن المعرفة التي لديه كلها .. انما هي حصيلة جهده هو، وجهده الشخصي ايضا. لقد اكتسبها بفضل اطلاعه فقط، فهو يقرأ ويختزن دون ان يستخدم مثل هذه الالفاظ في حديثه ابدا. كان يفكر كثيرا ولا يتكلم.،لذلك وددت ان افصّل ما تعنيه تلك اللفظة فقلت:

ـ «ان العمل الذي يطلق عليه «غيريّ» هو ذلك الذي فعله صاحبه لمصلحة الآخرين الاغيار. انه عمل «لا اناني» اذا قورن بعمل اتاه صاحبه لمصلحته هو، فكان «انانيا».

وهز رأسه مؤيدا ثم قال:

ـ «نعم،انا اتذكر هذه اللفظة، لقد مرت معي في قراءتي لِـ سبنسر».

ـ «سبنسر! هل قرأته؟ »

ـ «ليس كثيرا منه. لقد استوعبت قدرا طيبا من كتابه «المبادىء الاولية»،اما كتابه في «البيولوجيا» فقد استعصى علي فهمه وكأنه جرّد قلوعي من الهواء. واما كتابه في «علم

النفس» فقد تركني اهيم في فراغ وقتا طويلا. كان مربكا فلم استطع فهم ما كان يرمي اليه الرجل. لذلك هجرته، وقرّرت انني لست على مستوى يسمح بهضمه. لكني فيما بعد قلت لنفسي: ان النقص في اعدادي الثقافي هو السبب لا تدنّي قدراتي العقلية. ان سبنسر وحده وانا نعرف عِظم الجهد الذي بذلته لادرك معانيه لكني فهمت بعض كتابه «معلومات في الاخلاق»..هناك وجدت كلمة «الغيرية» هذه التي ذكرتها الآن يا همب، واتذكر سياقها في عبارته».

وتساءلت متعجبا عن القدر الذي يمكن ان يفقهه مثل هذا الرجـل من مثل ذلك الكتاب العويص. ثم تذكرت عظم الأهمية التي يوليها سبنسر للغيرية في السلوك الامثل الذي يدعو اليه. وعند ذاك ادركت ان وولف لارسن لا بد ان صفّى الكتاب واستخلص روح تعالي ذلك الفيلسوف الكبير ثم حوّرها وفق حاجاته ورغباته. وسألت:
- «وما الذي مر معك ايضا في سبنسر؟»

جذب لارسن حاجبه قليلا فتقطب جبينه، وبدا انه يستجمع افكاره وكـأنه يـود تركيب عبارات لم يسبق ان وجد نفسه في حاجة الى التلفظ بها من قبل. وشعرت من طرفي بنشوة روحية.. ها انا احاول النفاذ الى اعماق روح رجل يحاول بدوره النفاذ الى اعماق ارواح الآخرين. كنت أرود ارضاً عذراء حقا، ارضا غريبة وعجيبة تتفتح امامي وتنبسط رقعتها لعينيّ بارتياح.

وقال لارسن :
- «دعني اصفها في اقصر عبارة ممكنة. ان سبنسر يعرض الامر على النحو التالي:
اولا: على المرء ان يتصرف لمصلحته هو - فان فعل كان ذلك خيرا له واخلاقيـا بالنسبة اليه.

ثانيا: عليه ان يتصرف لصالح ابنائه.
ثالثا: عليه ان يتصرف لصالح بني جنسه اي «البشر».
واعترضت قائلا:

- «والسلوك او التصرف الافضل والارقى والاكثر خيرا هو ذلك الذي يجمع بين صالح الرجل وصالح أبنائه وصالح بني جنسه في نفس الوقت. اليس كذلك؟»

- «كلا، انا لا اتفق معك في هذا.. ليس هناك ما يُلزم بالاستنتاج الذي ذهبتَ اليه عند سبنسر، ولا من قَبيل الذوق العام ايضا. انني احذف الابناء والجنس وأقطع سلسلة الفكر قبلهما، فانا لا اجد ما يجبر المرء على التضحية من اجلهما. وما إتباعهما الا من قبيل المجاملة والعاطفة الزائدة.. انت تدرك ذلك بنفسك،وبخاصة من وجهة نظر رجل لا يؤمن بالخلود عند الانسان. ذلك انني اذا ما وضعت الخلود قبالتي في الرأي - غدت الغيرية في تلك الحال مجرد اقتراح مدفوع الأجر لصفقة تجارية.. اعني نوعا من المقايضة الرابحة: بذلُ الحاضر القليل لنيل المستقبل الكثير.

انني قد ارتفع بروحي واسمو بها الى مختلف الأمداء والمجالات، اما وليس هناك امامي شيء أزلي الا الموت-مطروحا امام هذه الخميرة المتحركة الصارخة التي يسمونها الحياة - فما الذي يدعوني للقيام باي تصرف او فعل يكون من قبيل التضحية؟؟ ان اية تضحية يترتب عليها ان اضيّع خطوة واحدة او حركة واحدة لصالحي - لهي جنون خالص، بل ليست جنونا فحسب وانما هي خطيئة ارتكبها تجاه نفسي، وعمل لئيم كله شرور. انه يجب عليّ ألا افقد خطوة او حركة اذا ما أردت ان استغل الخميرة التي فيّ، اعني حياتي، استغلالا كاملا. كما ان عدم الحركة الابدي، واعني الفناء، الذي سيدهمني يوما ما - لن يكون اكثر سهولة لي ولا اشد عسرا عليّ بفعل التضحيات وعدم الانانية التي اقدمها قبل حدوثه».

- «من ثَم فأنت فرداني، مادي محض، من أصحاب مذهب «المتعة»؟

وهز لارسن رأسه بالموافقة حين قدمتُ له ذلك التحديد والتعريف. فأكملت عبارتي:

- «وانت ايضا رجل لا يطمئن اليك المرء او يثق فيك بأقل شيء يمكن ان تبرز لك فيه مصلحة».

- «الآن بدأت تفهم الحقيقة».

- «انت رجل لا يحمل اية مبادىء اخلاقية على الاطلاق».

- «لقد اصبتَ يا همب».

- «ورجل يجب ان يبقى المرء دائما على خشية منه وتخوفٍ من تصرفاته.»

- «هذه هي الصيغة الافضل للتعبير ايضا.»

- «مثلما يخشى المرء الحية والنمر الكاسر وسمكة القرش اللعينة!»

- «الآن عرفتني يا هذا، ومثل ما يعرفني الآخرون. لذلك سموني «الذئب»».

- «بل انت مارد شرير، اكثر من ذئب، انت مثل «كاليبان» الذي يتصرف مثل ما تفعل الآن من جراء نزواته وخياله المريض».

وغطت سحابة مظلمة جبين لارسن العريض، وبدا انه لم يفهم اشارتي الى شخصية كاليبان، فأدركت على الفور انه لم يطّلع على المسرحية التي تصور تلك الشخصية العجيبة. وقال:

- «انني الآن اقرأ دواوين الشاعر براوننج، ولم اقطع في القراءة قدرا كبيرا، ويبدو انني هنا قد ضِعت والتبس علي الأمر».

وكيلا اطيل على القارىء خشية املاله، يكفي ان اقول: جئت بالكتاب من عنده وقرأت له المقطع الذي يرِد فيه كاليبان بصوت عال. وسرّه ذلك. كانت المحاكمة المنطقية المباشرة هي الشيء الذي يستوعبه لارسن ويمنحه السرور، وكان يقاطعني معلقا حينا ومنتقدا ما أقرأه حينا آخر. وفرغت من قراءة المقطع فطلب الي ان اعيد القراءة من جديد، ثانية وثالثة. ثم تشعب بنا الجدل والنقاش - طرقنا باب الفلسفة والعلوم، والتطور، وحتى الدين نفسه. ولقد تحاشى لارسن عدم الدقة الذي يتسم به امثاله ممن ثقفوا انفسهم بانفسهم، كما ارتفع فوق عدم التثبُّت وضحالة النفاذ الى الهدف اللذين هما سمة العقل البدائي التفكير. واني لاجد هذا حقا علي ان اشهد به لصالح ذلك الرجل.

كانت البساطة المطلقة في التعليل لدى لارسن هي محور القوة في تفكيره، وكانت الروح المادية عنده اعمق واكثر أسراً مما لدى صديقي فوروسيث. فهي عند فوروسيث شديدة التعقيد اقرب الى الحذلقة. اما مادية لارسن فهي متأصلة نافذة الى الأعماق. وهي عند فوروسيث اقرب الى المزاجية المتقلبة، اما في حال لارسن فراسخة حتى القرار. وحين يعرضها لارسن بقوته الهائلة فانها تجبر من يناقشه على التسليم، لا عن اقتناع مطلق، بل بعامل الانسحار بسريانها الثابت وقوتها الزاخرة. هذا ما استحوذ عليّ فعلا اثناء جدلي مع هذا القبطان العصامي العجيب.

ولقد طال نقاشنا فأخذَنا الوقت حتى حان موعد العشاء... عندئذ كان علي ان اعتذر، لاقوم بالخدمة في الكابينة، لكن لارسن فطن إلى ذلك، فنادى ماكريدج قائلا:

ـ «كوكي، ان همب في شغل معي، فعليك ان تقوم بالخدمة بنفسك».

لم يجرؤ ماكريدج بطبيعة الحال على الاعتراض. وهكذا ظللت جالسا حتى أعد ماكريدج المائدة وتناولت الطعام مع لارسن والصيادين، فيما كان ماكريدج يقوم بالخدمة وهو يحرّق الإرم. في تلك الليلة جرت سابقة، لا ادري ان كانت ستتكرر فيما بعد.. لقد غدوت ذا حظوة عند «ذئب» «الشبح». ويبدو ان حديثنا الطويل بعد العشاء لم يلق قبولا لدى الصيادين. فقد سمعوا اثناءه كلمات لا عهد لهم بها، ولا يعرفون مدلولاتها على الاطلاق، فاشمأزوا من ذلك. ولا ادري اذا كان قد خامر احدهم انني سأتمتع ببعض الصلاحيات التي تضايقهم فيما بعد.

الفصـــل التاســـع

ثلاثة ايام، ثلاثة ايام من الراحة هي كل ما قضيته في ضيافة وولف لارسن اتناول طعامي على مائدة الصيادين في الكابينة ويقوم ماكريدج بالخدمة الكاملة لوحده. لم اكن اعمل شيئاً سوى البحث والمناقشة مع لارسن. وقد تحدثنا خلال هذه المدة في موضوعات مختلفة: الحياة، والكون، والادب. وكان ماكريدج اثناء ذلك يرغي ويزبد، لكنه لا يجرؤ على توجيه كلمة احتجاج واحدة.

وصدف ان قابلني "لوي" على السطح مرة بينما كان لارسن منشغلا في تقويم حبل مع الصيادين، فانتهز الفرصة، ومال عليّ قائلا:

ـ «احذر التقلبات. هذا كل ما اريد ان انبهك اليه. أنت لا تستطيع التنبؤ بما تخبئه لك الايام. فالرجل، اعني صاحبك وولف، متقلب دائم التغير، شـأن التيارات البحـرية والانواء. وانت لا تستطيع ان تحزر اين يكون اتجاهه التالي، فحين تتصور انك اصبحت تعرفه ولك حظوة عنده ـ تجده ينفتل فجأة فيقابلك بالصراخ والهجوم المباشر حتى يخرق جميع اشرعتك.»

لذا لم أفاجأ حين وقع ما تنبأ به لوي. كنا في نقاش حاد ـ حول الحياة.. وزادت جرأتي على وولف لارسن اثناء الجدال فجعلت اوجه له نقدا لاذعـا تناول شخصيتـه وطريقة حياته. والحق انني كنت اشرّح شخصيته بمبضعٍ حاد اثناء ذلك، واحاول ان افعل معه مثل ما يفعل هو مع الآخرين. كنت اعلم ان أهم نقطة ضعف لديّ في النقاش هي ان كلامي يأتي استفزازيا الى حد ما، لكني الآن مع وولف لارسن لم افطن الى ذلك.. بل اطلقت لنفسي العنان في جَلده بالكلام حتى كشر عن انيابه واخذ يهر مثل كلب محشور. ولاحظت ان وجهه الاسمر البرونزي من تلويح الشمس قـد انقلب اسود من الغضب، وبدأت حدقتاه تلمعان، ولم أقرأ فيهما شيئا من الصفاء ولا النية الحسنة،بل لمحتُ غضبا هائجا يطل من رأس مجنون. كان «الذئب» داخله هو الذي يطالعني في وجهه، وكان ذئبا كاسرا قد اهاجه الجوع.

لقد وثبَ عليّ وهو يزمجر،فقبض على ذراعي. وصلّبت نفسي وفولذت ارادتي لأحتمل، وأنا ارتجف في داخلي من الفزع. لكن القوة الهائلة في قبضة الرجل كانت اكثر من طاقتي على الاحتمال. لقد امسك ذراعي من العضلة ذات الرأسين في العضد، بيد واحدة، وضغط. فصرخت وزعقت بصوت عال من شدة الالم. لم تعد ساقاي تحملان جسمي، حتى انني عجزت عن البقاء واقفا فتداعيت الى الارض. كان الألم شديدا وكانت العضلة قد انهرست مثل عجينة الورق.

وبدا ان لارسن استعاد نفسه، فخفف من قبضته. وطاف في عينيه شعاع من الارتياح فتراخى، بل انه ضحك ضحكة كانت اقرب الى الجعير. ثم انه جلس. اما انا فقد لملمت اعضائي من على الارض ووقفت. واشعل لارسن سيجاره المعهود وجعل يرقبني فيما انا مكوّم على الارض كما يرقب القط الفأر قبل افتراسه.

نظرت في عينيه لأقدّر خطوته التالية.. كان فيهما نوع من الفضول الذي لاحظتُ مثله من قبل، وكان فيهما تساؤل وحيرة وارتباك، ذلك النهم الدائم لتفحص الآخرين ومعرفة العلة في حدوث ما يحدث.

واخيرا تمالكت نفسي وهبطت درج الممر، فالطقس الجميل قد ولى، ولم يبق لي الا ان انسحب الى المطبخ لأتقوقع هناك. وبخاصة ان ذراعي اليسرى كانت شبه مشلولة من الخدر. وقد انقضت عدة اسابيع قبل ان اتمكن من استخدامها من جديد. كل هذا مع ان لارسن لم يفعل اكثر من انه وضع يده على ذراعي وضغط قليلا.. ومن حسن الحظ انه لم يكن هناك شعر ولا خلع في العظام.

لم اعرف ما كان يمكن ان يفعله بتلك اليد حتى تحققت من ذلك في اليوم التالي عندما دس لارسن رأسه من باب المطبخ ـ تعبيرا عن رغبته في استئناف صداقته لي ـ وسألني عن حال ذراعي. وقد ابتسم قائلا:

«كان يمكن ان يحدث ما هو أسوأ كثيرا».

في تلك اللحظة كنت اقوم بتقشير البطاطا، فالتقط لارسن درنة معتدلة الحجم وضم يده عليها فاذا بالبطاطا المهروسة تنز من بين اصابعه مثل معجون التنظيف. ثم قذف بما تبقى في راحته من العجينة في سلة المهملات وغادر المطبخ. وجعلت افكر فيما يمكن ان يلحق بي من أذى لو جرّب ذلك المارد كل قوته في ذراعي المسكينة.

تلك واقعة ستظل تذكّرني بالتنغيص والكدر.. لكن ثلاثة ايام من الراحة كانت شيئا حسنا على كل حال، فقد توفر لركبتي اثناءها ما كانت في حاجة اليه: تحسّن حالها، وخف الورم، وبدا ان الرضفة هبطت الى موضعها الطبيعي المعروف. غير ان ما قدرته من تصرفٍ لماكريدج فيما بعد قد وقع الآن. لقد اراد ان يجعلني ادفع الثمن: ثلاثة ايام من الراحةً التامة لي والعمل المرهق له! انه حانق. وقد بلغ به الحنق ان هز قبضته في وجهي. لكني الآن قد تمرست. أما غدوت شبه حيوان، شرسا في المعاملة، وقاسيا من اتباع شريعة الغاب! لذلك زمجرت في وجهه وكشَرت عن انيابي، فتهيّب ان يقْدم على ضربي ـ ان لم اقل خشي العاقبة لو فعل.

هذه صورة غير لطيفة ارسمها لنفسي في تلك الآونة.. همفري فان ويدين، الناقد الأدبي، واقف منكبٌ على العمل في المطبخ وقبالته طباخ وسخ رافعا يده مهددا بلطمة قاسية.. لكن «همب» مساعد الطباخ، يصرخ محذرا ويزمجر مبرزا تكشيرة كلبية رهيبة تجعل مهدده ينزل يده مرعوبا.. هذا هو الوضع الجثماني لـ همفري فان ويدين في تلك اللحظة. اما الموقف النفسي لـ «همب» فهو: جبان عاجز معدوم الحيْل والحيلة، يواجه الانسحاق فيستثير كل رغبة لديه في الحياة وينقلب بطلا متهورا، كلُّ همه ان يثبت وجوده.

هذه صورة اكرهها، غير ان صدق الرواية يفرض علي ان أوردها في السياق.. وهي تذكّرني كلما استعدتها في نفسي بموقف الفأر في المصيدة: ينط ويعض قضيب الحديد، ويدفع مخلبه الصغير من بين القضبان ليهدد العالم في الخارج.

ودون النظر الى هذه اللوحة الساخرة فالمهم ان قبضة ماكريدج لم تهو على فكي المقلقل. وهذا وحده لعمري نتيجة حسنة. لكن من طبيعة حقد الدنيء ان يحتال. وهكذا: خشي ماكريدج ان يلطم لأنه لم يجد لدي الاستخذاء المعهود، فحاول خلق ذلك الاستخذاء عن طريق التخويف.. لقد وثب الى سكين تقطيع اللحم والخضار في المطبخ فتناولها، وغدا مسلّحا. وكانت طويلة ناحلة النصل لكثرة ما برى منها الجلخ والمسن. ولما كان معظم استعمالها للحزّ بين المفاصل فقد تحدّد رأسها وتحدب وسطها وباتت شفرتها رقيقة جدا.

نعم، ان ماكريدج لم يحاول ان يقذفها في وجهي، لكن مجرد امساكه بها كان تهديدا. ثم بدا له ان يؤجل الاصطدام فأدار رأسه جانبا ولم يهاجم. اما انا فاعتبرت ذلك نصرا لي: أجبرته الا يلطمني كما جعلته يخشى ان يستعمل سلاحه اللعين. لكن: هل من طبيعة الجبان مثل ماكريدج ان ينسى واقعة من هذا القبيل؟ كلا، وانما أجّل الاصطدام طمعا في فرصة اكثر مناسبة، وطلبا لإعداد يكون اكثر اكتمالا. ها هو يشحذ السكين كلما وجد فراغا من الوقت. لقد جاء بحجر جلخ من عند جوهانسن وفرد عليه قليلا من الدهن، ثم جعل يُمِرُّ نصل سكينه على الحجر. وهو يفعل ذلك متباهيا، وبشكل ظاهر، يقصد منه ارهابي الدائم. وكلما سن قليلا أمرَّ الحافة على ظفر ابهامه ليتأكد، او مَشَق خشبة او حلق الشعر عن ظهر يده. وفي كل مرة من هذه يقرّب ماكريدج الحافة من وجهه لينظر اليها بانعام وكأنه الميكروسكوب نفسه، فاذا وجد اي تكسر او ثلم صغير في الحافة عاود السنّ من جديد.

والواقع انني كنت اضحك هازئا من افعال ماكريدج، لكني احيانا كنت اشعر برجفة قارصة تنفذ الى النخاع وكأنها شرارة كهربائية هناك. افلن يدفع الحقد هذا الأحمق الى استخدام تلك السكين بالفعل!؟ وقلت لنفسي: الواقع ان في الجبن المتأصل قدرا من الشجاعة، وشجاعة الجبان فيها بطش وفتك، والخطر المترتب على استخدامها اشد وأخطر من شجاعة الانسان العادي. ولأكن انا نفسي مثلا على ذلك: فمن جبني الاصيل انْبعثت شجاعتي لإرهاب ماكريدج، ولو لطمني لمزقته بانيابي واظافري كما تفعل الضبع.

لم يفت شيء مما حدث ملاحظة البحارة ولا الصيادين، وبخاصة لوي، الثرثار الدائم متلقط الاخبار. فلقد اشاع بين الجماعة ان «ماكريدج يشحذ سكينه لرقبة «همب»، وقريبا ما تقع الواقعة فيتقلص عدد رفاق الشبح». ويبدو ان ماكريدج كان موافقا على هذه الشائعة، فهو يبدي سروره كلما سمعها من احدهم. اتراه كان يجمع شجاعته عن طريق ايهام نفسه أنه شجاع!!

ظل الأمر على حاله حتى تقدم «ليش» ليفهم الحقيقة. وكان هذا ثاني اثنين دلقا الماء المالح على رأس ماكريدج عقب خسارته في اللعب مع لارسن. ويبدو انه كان فظاً في معاملة ماكريدج آنذاك او حقّره الى درجة مؤلمة. هذا ما جعل ماكريدج يوجه اليه اقذع الشتائم مستبيحا عرض اهله جميعا في ذلك. اذن لم يكن ما بينهما عامرا بل هو خراب كبير. وها هما يلتقيان.

كان ماكريدج يهدده بالسكين التي يشحذها لحز عنقي، وليش يضحك اولاً ثم تنطلق من فمه صليات من شتائم اولاد الازقة في «تلغراف هل» لا توفر ذمة ولا عرضا. وقبل ان يدري احد كيف حدث ذلك كانت ذراعه اليمنى مشطوبة من المرفق الى الرسغ، فهي تنزف بغزارة. لقد اصابته سكين ماكريدج. ورأى ماكريدج ذلك الدم فتراجع وعلى سحنته تعبير شيطاني. الم يسفح دما! لقد وقف آخذأ وضعا دفاعيا يحتمي فيه بالسكين التي شهرها كالسيف. لكنها لم تنفعه، فبدلا من ان يتراجع ليش ليضمد جراحه تقدم اليه قائلا:

- «سأنالك يا كوكي. وسيكون ذلك وانت لا تحمل سكينا. عند ذاك سترى».

لم يصرخ ليش، ولم يزمجر، بل كوّر كفه لينقط فيها دم ذراعه الاخرى ومضى الى سطح السفينة. اما ماكريدج فقد ازرق وجهه ثم احمر ثم اصفر كالكركم. ربما انه فكر فيما فعل، وفكر اكثر في العقوبة التي سوف ينالها من ليش يوما ما. ولم يمنعه ذلك من ان ينظر اليّ بعيني وحش، كأنه يود ان يقول «ليكنْ ذلك درسا لك فاستوعبه جيدا».

ويبدو ان منظر الدم قد اثار شهوة له في نفس ماكريدج، اذ غدت تصرفاته مثل تصرفات المجنون. فهو ينظر شزرا الى الجميع وتظل سكينه رفيقا له على الدوام. وبمقدوري ان احلل نفسيته في هذه الايام لأنها مبسوطة امامي مثل صفحة كتاب مطبوع، لكني اود تجاوز ذلك خشية التطويل والإملال.

انقضت عدة ايام «والشبح» تجري بين شاطئين من الزبد، والرياح التجارية تدفعها على صفحة الماء. وأستطيع ان أقسِم ان علامات الجنون كانت تتزايد عند ماكريدج، كما أعترف انه قد داخلني الخوف من نظراته. كان يشحذ ويسن، ويشحذ ويسنّ طول النهار، ونهارا اثر نهار. وكانت عيناه توحيان لي حين انظر اليهما ان صاحبهما من اكلة اللحوم. كنت اخشى ان ادير له ظهري، فقد يغدر.. وعندما خرجت من المطبخ وانا امشي الى الوراء وجدت البحارة والصيادين قد تجمعوا على السطح وهم يرقبون كيف اخرج. كانوا يتسلّون بذلك، اما انا فكنت اموت كل لحظة مرتين.

كان الموقف اكثر مما أحتمل: كيف اعيش على سفينة كل من تحملهم من عتاة القتلة! ان حياتي في خطر، كل دقيقة، كل ساعة، كل يوم، ومع هذا فليس من يد رحيمة تمتد نحوي مواسية حتى بكلمة طيبة! كنت روحا بشرية ضائعة في بطن واد من الابالسة! وفكرت في ان اطرح نفسي عند قدمي وولف لارسن طالبا حمايته، لكن الصورة التي استعدتها في نفسي عن نظرته للحياة اثناء مناقشتنا الاخيرة ـ جعلتني احجم عن ذلك. فلربما قال لي: ما قيمة حياتك يا همب في نظر غيرك؟ لا شيء طبعا. اذن فانها ستظل قائمة ما دمت قادرا على حمايتها، فاذا عجزت عن ذلك انتهت تلك القطعة من خميرة الحياة التي لديك. هذا هو رأيه الذي اعرفه، فهل من الحكمة ان اسلم روحي لصاحب هذا الرأي العجيب!؟

ولاحقتني فكرة الانتحار. وكان هذا هو التبرير الذي لجأتُ اليه:

ما دامت الحقيقة الوحيدة في الحياة هي الموت، وما دام كوكي مستعدا لان يفعل بي ذلك وانا عاجز عن منعه.. فلماذا لا افعله بنفسي فأحرمه من لذة النصر! اذ ذاك اكون شجاعا في نظر رفاق الطريق على الاقل كما أغيظ كوكي ايضا.

كنت على وشك تنفيذ ما اقنعت نفسي به حين تساءلت:

اذن اين فلسفتك في الاخلاق يا همفري؟ اين هي تلك الآمال العراض التي تطمح في الوصول اليها؟ ولا أعرف ما اقنعني باطراح فكرة الخلاص اليائس هذه، لكني هجرتها آخر الأمر.

ولقد حاول وولف لارسن اكثر من مرة ان يجرني الى الحديث والمناقشة حول هذا الامر بعينه، لكني كنت ارد عليه بعبارات قصيرة فيها نفور. وضايقه ذلك، فامرني ان استعيد مجلسي في الكابينة واترك الخدمة كلها على كاهل ماكريدج. واثناء الحديث شرحت له ما اقاسيه من ماكريدج بسبب الايام الثلاثة التي قضيتها في المناقشة معه من قبل. وقلت: «لقد اعتبرها ماكريدج حظوة ومحسوبية لي عندك، وهو يخشى ان تتزايد فيلحقه غبن من ذلك».

كنت انتظر ان يتجاوب معي وولف لارسن لكنه نظر الي بعينين ضاحكتين وقال:

ـ «اذن انت تخاف منه وتخشى اذاه. اليس كذلك؟»

ـ «نعم، بالفعل».

قلت ذلك في نبرة جازمة تمثل الواقع، فاندفع وولف لارسن يلقي علي محاضرة:

ـ «غريب امركم يا هؤلاء، تدغدغون آمالكم في وجود ارواح خالدة لكن الواحد منكم يخشى ان يموت! انا أعنيك أنت وامثالك يا من تؤمنون بالخلود. لمجرد رؤية سكين في يد طباخ جبان يتغلب تمسّكُ الحياة لديكم بنفسها على كل ذلك الهذر الذي تسندون به آراءكم الحمقاء! لماذا، يا رفيقي العزيز تعيش الى الابد؟ أنت إلّه خالد، والله لا يمكن قتله، ومن ثم فانه ليس بمقدور الطباخ ان يؤذيك. انك واثق من بعثك يوم الدينونة، فما الذي هناك لتخشاه اذن؟

انت تزعم ان الحياة الأبدية متاحة لك. اذن انت مليونير خلود، ومليونيرٌ لا يمكن ان تُفقد ثروته او تضيع، لأنها اقل عرضة للفناء والزوال من النجوم.. فهي ذات ديمومة مثل المكان والزمان. من المستحيل عليك ان تُنقص من قدر المبدأ الذي تعتنقه يا هذا، فالخلود شيء لا بداية له ولا نهاية. الخلود هو الخلود، ومع انك تموت الآن وهنا في هذا المكان فانك ستعيش في مكان آخر والى ما لا نهاية. هذا هو رأيك. وإنه لشيءٌ حسن ان تنفض عنك هذا الجسد وتتخلص من طينه كي تحلّق عاليا بروح طليقة لا تحبسها قيود.

ليس بمقدور الطباخ ان يؤذيك، على العكس.. انه يقدم لك مساعدة كبرى حين يسارع في ايصالك الدرب الذي عليك ان تسير فيه.

اذا لم تكن تريد ان يعجّل كوكي بك الى هناك، فلماذا لا تعجّل به اليه؟ وحسب افكارك يكون الطباخ بدوره مليونير خلود ايضا، وانت لا تستطيع ان تجعله يعلن الافلاس. لان ورقته ستظل تجد من يصرفها. كما انك لا تستطيع ان تقصّر من حياته بقتلك اياه. لانه هو ايضا لا بداية له ولا نهاية، فقدَره أن يذهب الى العيش في مكان ما وعلى صورة ما. اذن، ساعده في ذلك يا همب. اثقبه بسكين واطلق سراح روحه لتتحرر. فهي الآن في سجن قذر، وسيكون فضلا كبيرا من جانبك لو فتحت باب ذلك الحبس. ومن يدري، فقد تكون روحه روحا جميلة جدا ترتفع محلقة في السماء بعد ان تفارق هذا الجسم القبيح. قدّم له مساعدتك. سأعيّنك في مكانه وامنحك ترقية. انه يأخذ خمسة واربعين دولارا في الشهر ستغدو من نصيبك في تلك الحال».

بذا اتضح لي تماما انه لا أمل في ابداء اي رحمة ولا احراز اية مساعدة من وولف لارسن. اذن علي ان افعل بنفسي ما يجب فعله في موقفي هذا، وان استنبط من خوفي شجاعة القى بها توماس ماكريدج بمثل سلاحه ايضا. لذلك استعرت حجر جلخ من جوهانسن، وكان لوي قد رجاني ان أعطيه بعض علب الحليب المكثف، ففعلت.. سرقتها له من خزانة المؤونة التي تحت قمرة القبطان في غفلة من ماكريدج. وقد طلبت بدلاً منها خنجرا له رأيته مرة يحمله.. ووافق لوي على ذلك، بل انه ساعدني: كان يدير الجلخ واشحذ انا شفرة الخنجر. وكان هذا طويلا صدئا فأحاله الجلخ لماعا رهيب المنظر ونِدّاً لسكين ماكريدج. هكذا تسلحت. ثم نمت مطمئنا على حياتي تلك الليلة على الاقل.

باشر ماكريدج شحذ سكينه كالمعتاد بعد الفطور في صبيحة اليوم التالي، وكنت راكعا على ركبتيّ أجمع الرماد من الموقد، فارتبت في ما يفعل. وما ان قذفت الرماد في البحر حتى عدت الى المطبخ، حيث وجدت ماكريدج يتحدث مع هاريسون الذي كان وجهه يوحي بالعجب والدهشة..

كان ماكريدج يقول:

«ماذا تنفع العبادة والتقوى! هل تعطيني اكثر من سنتين للقراءة في السجن؟ لا يهمني ذلك أبدا. ان الكأس ملأى.. هل رأيت في حياتك سكينا من هذا النوع؟ غرزتها فيه وكأنها في قالب زبدة.. وزعق. كانت فرجةً تسوى ٢ بنس..»

ثم نظر ماكريدج صوبي ليعرف ما اذا كنت استمع، وعاود كلامه الى هاريسون:

«لم اكن اقصد ذلك. ساعدني يا رب. لم اقصد ذلك أبدا. كنت اود قطع الأشرطة، لكنه اخذ يصيح ويزعق. وحين حاول ان يمسك السكين براحته سحبتها بقوة، فحـزّت اصابعه حتى العظم. ياله من منظر! أنا لا استطيع ان اصفه لك».

نادى مساعد الربان على هاريسون فتوقفت تلك القصة الملفقة، وصعد هاريسون الى السطح. اما ماكريدج فجلس على عتبة المطبخ وباشر شحذ السكين من جديد. واما انا فوضعت الرفشَ جانبا، وجلست على صندوق الفحم قبالته. ورشقني ماكريدج بنـظرة لئيمة، فبقيت هادئا اتربص وإن أخذ قلبي يدق بسـرعة.. وجعلت اشحـذ خنجر لوي بحماسة. كنت اترقب اي تعبير يبدو على وجه ماكريدج حين ينتبه الى ذلك. لكنه لم يكترث. ربما لم ير ما افعل. واستمر في جلخ سكينه، ومثله فعلت بدوري. وقد ظللنا في هذا النشاط طوال ساعتين واقفين وجها لوجه نسنّ ونجلخ، حتى انتشر الخبر على السفينة فاجتمع نصف اهلها على السلم يتفرجون.

كان المتفرجون الكرام يقدّمون النصائح والارشادات تبرعاً منهم ولقاء لا شيء. من هذا القبيل ما تكرم به جوك هورنر حين قال:

«انت يا همب، لا توجه الطعنة الى ما بين الضلوع، كلا، اخفضها قليلا لتجعلها في البطنِ ثم الو يدك بالمقبض. هذه هي الطعنة الاسبانية. انها تمزّق الامعاء بعد ان تقدَّ المعدةَ». اما ليش ذو اليد التي يلفها الضماد فقد قال: «اسمع يا همب.. لا تجهز عليه. ابق لي شيئا، فانا اود ان اجعله يدفع ثمن هذا الضماد». واما وولف لارسن فقد القى نظرة او اثنتين من اعلى السلم ليتفرج على ما كان يجري من قِبل ما يسميه: خميرة الحياة التي تزحف في حركة صراعها الدائم مع «خمائر الحياة الاخريات».

هنا أجدني مضطرا لان اقول: كان تفسير لارسن ورأيه في الحياة مصيبا في نظري في تلك اللحظة. فهي مُرة مؤسية لا قيمة لها ابدا. ليس فيها شيء سماوي الآن: اثنان من الكائنات الحية كلٌ منهما يشحذ سكينه ليبقر بطن الآخر، او يلحق به عاهةً دائمة تبعده من مجال المنافسة معه، ويتفرج عليهما حشد من تلك الكائنات في حركتهم كـل سمات النذالة والحقارة، لانهم يسمحون بما يرون. ولا اظن ايا منهم كان سيتدخل لو انقضّ احدنا على الآخر في مبارزة حتى الموت.

هذا من ناحية الغير. اما من ناحيتي انا فقد كان الواقع الفعلي مضحكا الى درجة المرارة. ها هو همفري فان ويدين ناشط في شحذ الخنجر. لِمَ؟ ليزهق روح انسان ان لم يستطع غير ذلك. ومن هو المنكود؟ طباخ على ظهر سفينة لصيد عجول البحر. وهل تصوّر همفري هذا امكان وجوده في مثل هذا الموقف؟ كلا مطلقا، ولربما كان وضعه الحالي آخر شيء يمكن ان يطرق خياله. هذا هو الذي كان يعتبره المستحيل بعينه. فانا اذكر انهم كانوا يدلعونني باسم «سيسي» اشارة الى انني رقيق الحاشية مسالم لا يفكر في اذى الغـير. والآن: ترى لو وجّه «سيسي» هذا رسالة الى «همب»، الا يصِمـه فيها بـالخزي الدائم والشنار المقيم!

كانت نتيجة «حلبة المصارعة» التي لم تنعقد صِفرا مدورا، فبعد ساعتين من التأهب الحازم نحى توماس ماكريدج السكين جانبا وعرض عليّ المصالحة.

لقد قال: «ما الذي نجنيه انا وانت من جعل نفسنا فرجة مضحكة لهؤلاء الاوغاد؟ انهم يكرهوننا، بل يحتقروننا، ويسرّهم ان يروا احدنا يقطع حلقوم الآخر. لستَ سيئا يا همب، فلديك في رأسك فكر كما تقولون يا امريكان، وانا اجدك لطيفا. تعال نتصالح ايها اليانكي». ومد يده طالبا المصافحة.

انا اعترف انني جبان، لكن مقدار جبني كان اقل مما لدى صاحبي، وهذا في حد ذاته نصر كبير حققه ثباتي. ووددْت ان ارشف آخر قطرة من شراب هذا النصر فرفضت المصافحة واكتفيت بالقول: «حسنا». اما ماكريدج فقال: «لا بأس سواء صافحتني ام لا، فانا اعتبر الموضوع منتهيا. هذا ما يهمني» ثم انه حفظاً لماء وجهه التفت الى المتفرجين قائلا: «اخرجوا من عند باب مطبخي ايها الخنازير. انصرفوا». وتأييدا لكلامه هذا ورغبة في اظهار سيطرته على مملكة المطبخ-أخذ ابريقا كبيرا من الماء، كان البخار يصعد منه، ورشقه فيما بينهم، فابتعد البحارة. هكذا حصل ماكريدج على نصر صغير ارضاه. لكنه بطبيعة الحال لم يحاول ان يفعل مثل ذلك مع الصيادين.. فهؤلاء من طينة عنيدة صلبة وهو اعقل من ان يناطح صخرتهم.

وسمعت سموك يقول لِـ هورنر:

- «ارى ان كوكي قد أُذل وانتهى امره».

- «اراهن ان همب هو الذي سيتولى ادارة المطبخ وسيكون كوكي ذيلا له لا اكثر».

سمع ماكريدج ذلك ولحظتُه ينظر جهتي، لكنه اقنع نفسه بانه لم يسمع. والواقع انني لم اتصور ان يكون لذاك الانتصار آثار بعيدة، ولا انه كان انتصارا كاملا - لكني قررت ان لا اتخلى عن اي شيء كسبته فيه. ولم ينقضِ النهار الا وقد تحققت نبوءة «سموك» فقد اصبح «كوكي» مسالما، وجعل يتودد الي باستخذاء اكثر مما يفعل تجاه وولف لارسن. لم اعد اقوم بتقشير البطاطا ولا جلي القدور بل بتقديم الطعام بعد اعداد المائدة فقط. ها هو الخنجر مشدود على خاصرتي شأن رجال البحر وها انا اعامل ماكريدج من فوقُ باحتقار.

الفصـــل العاشـــر

كانت حميميتي مع وولف لارسن تتوثق، اذا كانت الحميمية تعني تلك العلاقات التي تقوم بين الرئيس ومرؤوسه او بين الملك والمهرج. فانا عنده لست اكثر من دمية، وهو لا ينظر الي الا كما ينظر الطفل الى لعبته. ان مهمتي ان اقوم بتسليته. وتظل اموري معه على ما يرام طالما قمت بتلك المهمة جيدا. امـا اذا شعر بـالسأم او داهمتـه نوبـة من السوداوية فما اسرعَ ما أُخلي الكابينة الى المطبخ، واكون محظوظا إن طُردت باعضائي كاملة لم ينقص منها يد او ذراع.

كان شعور هذا الرجل بالوحدة والاكتئاب ينصب علي أنا، ولم يكن على ظهر السفينة رجل الا يكرهه ويخاف منه، كما انه ما منهم الا ويحتقره وولف لارسن. وهو يبدو رجلا تستهلكه تلك القوة الهائلة المودعة فيه لانه لم يجد لها منفذاً سليماً يستهلكها فيه. انه مثل «لوسيفر» (الشيطان) لو نفيت تلك الروح المتكبرة الى مكان لا ارواح في اهله بل هم مجرد اشباح.

ان الشعور بالوحدة القاسية امرٌ سيء في ذاته، اما في حال وولف لارسن فقد زاد الامرَ سوءا ان انضاف اليه احساس عميق بالأسى والاكتئاب... ذلك الاكتئاب الذي هو سمة الجنس البشري وميزته عن بقية عالم الحيوان.

وبعد ان عرفت لارسن جعلت استعيد ما قرأته من الاساطير الاسكندنافية بفهم اعمق، فقد كان اؤلئك الرجال القساة ذوو الشعر الاشقر والبشرة البيضاء الذين ابدعوا البانثيون المرعب ـ من جبلّة هذا الرجل، بل ربما كان هو انموذجا حيا بقي من ايامهم. انه براءٌ من المرح والطيش الموجود عند ابناء العرق اللاتيني. فحتى عندما يضحك لارسن تجد ضحكه نابعا من طبع الشراسة لديه. وهو نادرا ما يضحك، بل يقضي عمره حزينا على الدوام. والحزن الذي يبديه لارسن حزن اصيل في نفس العِرق الذي ينتمي اليه. انه تراث ذلك العرق، والذي جعل ابناءه ذوي رصانة في تفكيرهم وعفة في حياتهم وتعصب شديد في النظرة الاخلاقيـة الى الامور. وقـد تجسد ذلك كله في الكنيســة الانكليزيـة بعد عهـد الاصلاح.

والواقع الاكيد ان المنفَذ الرئيسي الذي عبّر فيه ذلك الاكتئاب الاولي عن نفسه هو الدين، والجوانب المؤلمة منه على الخصوص. إلا ان للدين تعويضا يقدمه لمن يقبله.. هو الاستقرار النفسي. وهذا ما حُرم منه وولف لارسن، لأن ماديته الصارمة لا تسمح بدين ولا تتفق معه. وهكذا بات لارسن عند ما تداهمه السوداوية لا يجد ما يكبحه من ان يتصرف كشيطان.

ولو لم يكن الرجل مرعبا لكنت حقا اشعر بالأسى من اجله في بعض الاحيان.

من ذلك انني عندما دخلت غرفة نومه قبل ثلاثة ايام لأملأ قنينة الماء فيها ـ وجدته في حال لم اكن اتوقعها. لم يرني آنذاك.. كان رأسه مختفيا بين ساعديه وكتفاه ترتجفان في شبه نوبة من الصرع. وكان يبدو انه رجل يعذبه الحزن والاسى. وفيما أنا انسلّ خارجا من الغرفة سمعته يقول: «يا الله، يا رب، يا الله». لكنه لم يكن يستغيث كما يفعل الملهوف، كلا، ولا حتى يطلب العون كما يفعل المهموم، كلا ايضا، وانما عرضت اللفظةُ على لسانه فاطلقها مجرد كلمة عابرة. لكن عفويتها صعدت من روحه ذاتها.

على مائدة الغداء من ذلك اليوم سأل وولف لارسن الصيادين عن وصفة للصداع، وفي المساء كان الرجل شبه أعمى من شدة الالم. وأخذ يروح ويجيء في المطعم علّ حركته تخفف مما يشبه الشقيقة. وقد قال لي وانا اقوده الى غرفته:

« لم امرض في حياتي يا همب. ولم يداهمني صداع البتة الا عندما فغر رأسي احدهم بعصا غليظة على طول ست بوصات».

ولقد استمر ذلك الوجع المعمي طوال ثلاثة أيام، وعانى منه وولف لارسن كما يعاني اي حيوان.. ظل صامتا يجتر المه، لا احد يتعاطف معه ولا هو يشكو الى احد.

اما اليوم فقد دخلت غرفة نومه لأرتب الفراش واقوم بالتنظيف اللازم، فوجدته جالسا الى مكتبه. كان تعافى اثناء الليل، وها هو منهمك في العمل. لقد بسط امامه طلحية من ورق مقوى شفاف رسم عليها خطوطا ودوائر كثيرة. وكان في يده مربع من الخشب، وهو ينسخ مجموعة من المعادلات والعمليات الحسابية المعقدة التي اجراها بعد منتصف الليل. وقال:

ـ «مرحبا، مرحبا يا همب. لقد انهيتُ العمل ولم تبق الا اللمسات الأخيرة. أود ان ارى ما اخترعته يعمل بنجاح».

ـ «وما هو هذا الاختراع؟»

ـ «جهاز يوفر التعب على الملاحين. وبفضله تغدو قيادة السفينة في بساطة دروس الاطفال في دور الحضانة. منذ هذه اللحظة سيكون بمقدور اي طفل ان يوجه سفينة.. لم تعد هناك حاجة لاجراء حسابات صعبة وحل معادلات معقدة. كل ما تحتاجه في جهازي هذا هو أن ترى نجماً واحداً (ولو في سماء ملبدة بالغيوم اثناء الليل) كي تعرف موقع سفينتك في البحر على الفور، وبكل سهولة. انظر يا همب:

انا اضع هذا القرص الشفاف فوق لوحةٍ تمثل نجوم السماء، وادير القرص حتى يؤشر الى القطب الشمالي. وعلى القرص قد ثبّتتُ دوائر الارتفاع وخطوط الاتجاه. كل ما علي هو ان أضعها على النجم وادير القرص حتى يشير السهم الى الارقام المقابلة له على اللوحة السفلية. بذلك يتبين موقع السفينة على التحديد».

كان في صوته رنة الانتصار وفي عينيه وميض نشوة الابداع. وقلت:

ـ «لا بد انك متعمق في مبحث الرياضيات. اين تلقيت دراستك؟»

ـ «انا لم ار في حياتي مدرسة من الداخل. هل هناك حظ اسوأ من هذا! كل ما اعرفه يا همب وليد جهدٍ بذلت فيه العرق. لماذا تظنني فعلت ذلك؟ لاترك آثار اقدامي على رمال الزمن؟ كلا، فانا لست رجلا حالما. لاسجل براءة اختراع استثمرها واحولها الى اموال ادسها في جيبي؟ كلا ايضا. تلك الحقارة اتركها لغيري».

ـ «اذن لماذا ارهقت نفسك طيلة الليل؟ هل كان ذلك طمعا في الفوز بنشوة الخلق والابداع؟»

ـ «نعم. هذا ما يمكن ان يطلق عليه. وهو صياغة اخرى للقول: انه فرح الحياة بانها ما تزال حية، نصرُ الحركة على المادة، فوز السريع على الميت، وتفاخر الخميرة بانها خميرة تتحرك».

عارضت يديّ في وجهه علامة على رفضي المطلق لماديته الثابتة التي لا تتحول، وتابعت ترتيب فراشه. واستمر هو ينسخ السطور والارقام على الطلحية الشفافة، وكان ذلك عملا يتطلب الدقة المتناهية والتركيز المكثف. وقد عجبت كيف يستطيع لارسن ترويض حيويته المتدفقة ولجم قوته البالغة وتسيير ذلك في مجرى هذا العمل الرقيق الدقيق!

انتهيت من ترتيب الفراش، فوجدت نفسي اتطلع الى لارسن بنظرة اقرب الى الانذهال. لقد استحوذ الرجل على انتباهي الى درجة كبيرة. حتى تقاطيع وجهه كانت جذابة تستأثر بالاهتمام، فالرجل وضيء القسمات، بل جميل بمعيار الرجال. وادهشني ان اجد نظرة الشر واللؤم والميل الى الاذى قد زايلت وجهه الآن، بل بدا ان الوجه الذي يطالعني هو وجه رجل مسالم لم يقترف خطيئة ما. ولا اود من القارىء الكريم ان يسيء فهم ما اقول، فانا اعني ان وجه لارسن في هذه اللحظة كان وجها توحي ملامحه ان صاحبه لم يفعل شيئا ضد ما املاه ضميره عليه او انه لا ضمير له على الاطلاق حتى يخالفه، بل انا اميل الى الخيار الثاني. فقد كان الرجل شخصا بدائيا كاملا، بمعنى انه جاء الى هذا العالم قبل ان يتطور لدى الحيوان الانسان شيء اسمه الضمير والمبادىء الاخلاقية. ولذا فهو لم يكن عديم الضمير والاخلاق بل لا ضمير لديه اصلا.

وكما قلت، بمعيار جمال الذكر في الجنس البشري ـ كان وجه لارسن جميلا. فكل خط فيه واضح متميز. وكان الرجل حليقا وحلاقته ناعمة تبدي بشرة كانت بيضاء قبل ان تهبها الشمس والبحر لونا برونزيا فيه فظاظة الرجولة، مما زاد في إيحائها بالصراع

والوحشية. وكانت شفتاه ممتلئتين، لكنهما ليستا رخوتين متهدلتين، بل مكتنزتين فيهما حزم وقسوة كالشفاة الدقيقة. وكان فمه وفكه وذقنه فيها صرامة الذكورة وعزم ما طبيعته ان يكون سيدا. وكذلك الانف. فقد كان انف من ولد كي يسيطر ويقود.. كان فيه قدر ضئيل من الشبه بمنقار النسر لكنه يوحي بذلك. ولربما جاز اعتباره انفا اغريقيا او انفا رومانيا لكنه اكبر حجماً من الاول واقل انتفاخا من الثاني، فهو وسط بين الفئتين. وفي حين كان الوجه كله تجسيدا للعنف والخشونة بدت تلك الكآبة الأولية التي تطبعـه وكأنهـا تُضخِّم خطوط الفم والعين والجبهة. ولولا مظهر الضخامة هذا لبدا الوجه كله وكـأنه ينقصه شيء ما.

هكذا وجدت نفسي اقف بفتور لأدرس خَلق هذا الرجل واستشف منه خُلقه.

لست استطيع ان اشرح قدر اهتمامي بهذا الرجل. من كان؟ مـاذا كان؟ كيف سارت امور حياته؟ لقد بدت كل الظروف تخدمه كما توفرت له جميع الامكانات. فلماذا ظل مجرد قبطان سفينة لصيد عجول البحر؟ ولماذا اكتسب سمعة اكثر القباطنة وحشية يا ترى؟ وقد انطلقت روح الفضول لدي على صورة سيل متدفق من الكلام فسألته:

ـ «لماذا لم تنجز أعمالا عظيمة في هذا العالم؟ بالقدرات التي تمتلكها كان بمقدورك ان ترتفع الى ارقى المستويات. وما دمت لا تمتلك ضميرا ولا تقيدك أية مبادىء اخلاقية فقد كان بوسعك ان تسود العالم، وتجعله طوع يديك! ومع هذا فأنت حيث انت الآن، وفي اوج عطاء رجولتك ـ من حيث يبدأ اضمحلال الحياة ثم الموت ـ تعيش حياة مغمـورة مؤسية، تصيد الحيوانات البحرية لارضاء غرور سيدة تهوى التزين والتزويق. لا زلتَ تهيم في آفاق الحقارة الخنزيريةكماتسميها انت، والتي هي حياة يمكن ان توصف باية صفة ما عدا الروعة والجمال. لماذا وانت بكل هذه القوة المدهشة لم تأت شيئا عظيما؟ لم يكن هناك ما يعترضك في الطريق، بل ما يستطيع أن يعترض! ما هو الخطأ! هل يعوزك الطموح؟ هل وقعت في التجربة او طوح بك الاغراء؟ ما هي القضية؟ نعم، ما هي حقيقة الامر؟».

رفع لارسن عينيه الي في بداية تدفقي بالحديث، وتابع انفجاري اللفظي بكل رضا واستسلام حتى فرغت منه، ووقفت امامه منقطع النفس خالي الوفاض. ثم انتظر لحظة وكأنه يفتش عن: من اين يبدأ؟ ثم قال:

ـ «همب. هل تعرف مثَل الفلاح الذي ظل يبذر حبوبه؟ اذا كنت تتذكر المثل فلن تنسى ان بعض البذور وقعت في ارض صخرية لا يغطيها قدر كاف من التراب، وقد عَلقت جذورها وانبتت. لكنها حين اصابتها الشمس احرقتها وذوت. لم يكن لها جذور تضرب عميقا فاصفرّت ويبست، هذا فيمـا وقعت بعض البذور وسـط الاشواك فخنقتهـا تلك الاشواك وقضت عليها».

ـ «حسنا يا لارسن».

ـ «حسنا! هكذا تقول؟ لم يكن الأمر حسنـا على الاطلاق. فـانا واحـدة من تلك البذور».

ثم خفض رأسه على طلحية الورق امامه واستأنف عمله في النسخ. وانتهى عملي في ترتيب غرفته فاستدرت الى الباب لأخرج واذا به يقول:

ـ «همب، اذا نظرتَ الى الساحل الغربي من بلاد النرويج على الخارطة يقع نظرك على مكان اسمه فيورد رومزدال. على مئة ميل من هذا المسطح المائي وُلد لارسن. لكني لم اولد مواطنا نرويجيا، فانا دانمركي. كان ابي وامي دانمركيين، ولا ادري كيف استقرا في تلك الرقعة من بر النرويج. لم يخبرني احد بذلك ابدا. وبخلاف هذه النقطة الغامضة في حياتي ليس هناك شيء مجهول ولا آخر يكتنفه غموض. كانا فقيرين وغير متعلمين ايضا. وقد توالدا من اجيال من الناس الفقراء غير المتعلمين، فلّاحين يحرثون البحر، بـذروا ابناءهم على قمم موجاته كما هو المألوف هناك منذ ازمنة وعصور. ليس هناك غير هذا ما اخبرك به عن نفسي».

ـ «كلا،هناك الكثير. فالأمر لا زال غامضا بالنسبة الي».

ـ «ماذا بقي هناك اخبرك اياه؟»

سأل ذلك لارسن بنوع من العصبية وشعور بالتوتر. ثم قال:

ـ «اخبرك عن تفاهة حياة طفل؟ وبؤس تلك الحياة؟ عن العيش على لحم السمك وحياة الشظف؟ عن اني طفقت اسرح مع قوارب الصيد منذ بدأت احبو؟ عن اخوتي؟ ذهبوا الى البحر واحدا عقب الآخر ليبذروا حياتهم في لجّته ولم يعد منهم احد. عن نفسي؟ بائس لا يقرأ ولا يكتب، دودة عمياء، يكد اجيرا في مطبخ اي قارب يعمل على طول الساحل او سفينة محلية عتيقة. عن المعاملة الخشنة؟ الركل واللطم من كل احد؟ عملي في النهار وفراشي في الليل؟ عن العشرة والرفقة؟ الخوف والكره الحاقد والالم هي الخبرات الوحيدة التي خبرتها روحي بنت العشر سنوات. لست مهتماً لأن اتذكر يا همب، فدماغي ينفلق ويقربني الجنون عندما استعيد ذكرى تلك الفترة الشقية من الحياة. كان هناك ظَلَمة مجرمون في تلك السفن ووددتُ ان اعود لأهلكهم حين اغـدو رجلا. وعنـدما بلغت مبلغ الرجولة عدت.. لكنهم كانوا قد هلكوا. وكان لخطوط حياتي ان تسير في بقاع اخرى. واحد فقط من اولئك البحارة كان ما يزال حيا..ووقعت عليه. قابلته رجلا عاديا لكني تركتـه كسيحا مقعدا الى الابد. ان قدمه لن تدنس برا ولا بحرا بعد تلك المقابلة».

ـ «لكنك يا لارسن قرأت سبنسر وداروين «ولم تر ما بداخل مدرسة على الاطلاق» كما تقول. فكيف تعلمت القراءة والكتابة؟»

ـ «في سلك الخدمة على السفن التجارية الانكليزية. كنت اجير طباخ في الثانيـة عشرة، وخادما في السفينة في الرابعة عشرة، وبحارا عاديا في السادسة عشرة، ونوتيا قديرا في السابعة عشرة، وآمرا على البرج الامامي. كنت ذا طموح غير محدود، وانطوائية شديدة الانغلاق، لا يلقى مساعدة ولا تعاطفا من احد. فتعلمت كل شيء بجهدي الشخصي: الملاحة، الرياضيات، العلوم، الادب، وكل شيء آخر. لكن ماذا كانت حصيلة كـل ذلك؟ قبطان سفينة وصاحبها في اوج عطاء عمري، كما تقول، من حيث ابدأ في الاضمحلال ثم الفناء، دجاج، أليس كذلك؟ وعندما احتدّت الشمس حرقتني فيبس عودي..ولما لم يكن لي

جذر عميق فقد ذويت».

- «لكن.. التاريخ يحدثنا عن عبيد توشحوا الأرجوان!»

- «نعم لقد ارتقوا عرش الاباطرة. لكن التاريخ ايضا يحدثنا عن الفرص التي سنحت لأولئك العبيد. لا احد يصنع الفرصة يا همب. كل ما فعله الرجال العظام عبر التاريخ أنهم اقتنصوا الفرصة حين واتت. فابن قورسيقا عرف ذلك. ولقد حلمتُ احلاما عظاما كما فعل ذلك القورسيقي. وكان بمقدوري اقتناص الفرصة لو واتت، لكنها لم تسنح البتة. لقد نمى الشوك حولي وخنقني. يا همب، ان ما تعرفه عني اكثر مما يعرفه اي مخلوق حي ما عدا شقيقي».

- «وما هو عمله؟ واين هو؟»

- «انه سيد السفينة البخارية «مقدونيا» لصيد العجول، وقد نلتقي به على الارجح على ساحل اليابان، ويسميه رجاله: الموت لارسن».

- «الموت لارسن! هل هو مثلك؟»

- «ليته يكون. انه كتلة حيوان بشري لا رأس على جسده. ان فيه كل...»

- «تعني قسوتك؟»

- «نعم، اشكرك على حسن تقدير الكلمة. فيه كل قسوتي، لكنه لا يقرأ او يكتب..»

- «وهو لم يحاول التأمل ولا فلسفة الحياة كما تفعل؟»

- « نعــم » .

قال وولف لارسن ذلك وكسا وجهه حزن ابلغ من الوصف. ثم اضاف:

- «وهو اعظم سعادة مني، لانه ترك الحياة وشأنها. انه منشغل بان يعيشها لا ان يفكر فيها. ان غلطتي الكبرى هي انني اظل افتح الكتب واقلّب صفحاتها».

الفصـــل الحادي عشـر

الآن بلغت الشبح اقصى نقطة الى الجنوب من القوس الذي رسمته مساراً لها، وهي آخذة في الاتجاه الى الغرب ثم الشمال،صوب جزيرة معزولة يقول البحارة انهم سيملأون براميل المياه من احد ينابيعها قبل مباشرة موسم الصيد الرسمي على طول ساحل اليابان.

لقد اجرى الصيادون تمرينات كافية على بنادقهم، وقام الرماه بتدريباتهم على مدافع الحِراب حتى اكتفوا من ذلك. كما ان المجدفين قد شـدوا مقاذيفهم، واحكمـوا تمتين صفوف العقد الجلدية التي يربطون اليها عجول البحر بعد صيدها. وهكذا لن يكون هناك اي صرير من احتكاك الخشب ولا سحب الحبال حين يتسللون وسط قطعان العجول، خشية ان تجفل وتتفرق في عرض البحر. اما تنظيمهم التعبوي عند الهجوم للإحاطة باكبر عدد من العجول فسيكون وفق النسق الذي يسمونه «فطيرة التفاح» كما يقول «ليش».

وما دمنا قد اتينا على ذكر «ليش» فمن اللائق ان نشير الى ذراعه التي شطبتها سكين ماكريدج. لقد شفيتْ تماما الآن والتأم الجرح مخلّفاً نـدبة طويلة تشلل عنـدها اللحم، مما سيترك الاثر ظاهرا الى الأبد. لذا فان ماكريدج يعيش في خوف قاتل من غريمه هذا على الدوام، فلا يجرؤ البتة على الصعود الى سطح السفينة بعد غـروب الشمس. وهنالك عراك او اثنان وقعا عند قاعدة الصاري، ويقول لويس ان اثنين من الثـرثارين الوشاة قد لقيا جزاءهما من الضرب والركل، من قِبل البحارة المسؤولين عنهما. وهو يهز رأسه حين يتحدث عن المجدف جونسون الذي يعمل معه على قارب واحد. لقد اطلق الرجل العنان للسانه في انتقاد وجاهي لوولف لارسن، فتعارك معه. وكان ذلك بصدد لفظ الاخير اسم جونسون بطريقة لا ترضيه. كذلك أذاق الرجلُ جوهانسن علقة مؤلمة لنفس السبب، وبعدها صار جوهانسن يلفظ الاسم بطريقة سليمة. اما في حال لارسن فان جونسون لا يستطيع ان يبلغ مثل هذه النتيجةهذا وقدكذلك افضى الي لويس بمعلومات جديـدة عن «الموت لارسن» جاءت متفقة مع رأي وولف لارسن في اخيه. قال لويس: «من المنتظر ان نلقى ذلك «الموت» عند ساحل اليابان..يومذاك ترقّب بروز المعارك يا همب. ان الاخوين يمقتان بعضهما وسيكون خصامهما في شراسة جراء الذئاب». ويقوم «المـوت لارسن» بقيادة السفينة البخارية الوحيدة في اسطول صيد العجول المسماة «مقدونيـا»، والتي

تحمل على ظهرها ١٤ قارب صيدٍ بينما تحمل كل من سفن الصيد الاخرى ٦ قوارب لا اكثر. ويقال ان السفينة مجهزة بمدافع، كما تدور الشائعات عن غارات القرصنة التي يمارسها رجال «مقدونيا» والمغامرات المشبوهة التي يقومون بها: من تهريب المخدرات والسلاح الى الصين الى تجارة الرقيق والقرصنة المكشوفة في البحار».

ولست استطيع تكذيب لويس. لانني حتى الان لم آخذ عليه كذبة واحدة، كما انه على اطلاع موسوعي بشئون البحار فيما يتعلق بسفن صيد العجول ورجال تلك السفن.

وكما هي العادة على سطوح السفن وفي مطابخها، كذلك يقع في قوارب الصيد: يظل البحارة يتقاتلون بشراسة وحشية، كل منهم يطلب روح صاحبه لقاء دراهم معدودة تاعسة. هذا هو جحيم سفن الصيد، فكيف الحال بجهنم «الشبح»؟! الصيادون عليها يتطلعون الى هراش ونطاح بين سموك وهندرسون اذ ان عراكهما الاخير لم يكن حاسما، فظل في نفس كل منهما شيء يود ان ينفثه. ويعلَم ذلك لارسن. وهو يقول: "اذا تعاركا وقضى احدهما على الآخر توليت الغالب منهما فقضيت عليه. انني لا اود ان ينقص عدد رجالي في بداية الموسم فاذا أبَوا الا ذلك استغنيت عن حياة المسبب لذلك النقص". كذلك يضيف: "ليست تهمني الاعتبارات الاخلاقية من حيث المعتدي والمعتدى عليه. كلا. فاذا لزم الجميع الهدوء حتى آخر الموسم اقمت لهم حينذاك كرنفالا.. بوسع كل فرد منهم اثناءه ان ينتقم من خصمه. وانا مستعد ان ارتب الامر بحيث يتخلص المنتصر من المهزوم بالقائه في البحر، دون ان تلحقه اي تهمة او يكون عرضة لأية عقوبة". ويصرح لارسن بذلك في لهجة من يقرر حقيقة منطقية، مما يجعل الصيادين وعموم رجال «الشبح» يخشون تلك البرودة القاسية في كلماته رغم انهم جميعا قساة غلاظ الاكباد.

ولأعد الآن الى خصمي.. توماس ماكريدج. انه يتودد الي في الوقت الحاضر على طريقة الجرو الذي يهر ويتمسح بثياب سيده، لكني أصمّ أذني عن كلمات التملق التي يسخو فيها ذلك النسناس. اما الحقيقة فأنا اكاد أموت خوفاً من نذالته، لكني لا أظهر ذلك، فقد يطمع ماكريدج لو شعر بشيء من هذا.. ومن ثم يغدر فيؤذي. أنا أعرف طبعه كما اعرف نفسي وواقعَ الحال.

لقد تحسّن وضع مفصل الركبة لدي، وان كانت الرضفة لا تزال تؤلمني بين حين وآخر، فأصير اعرج لفترة محدودة. كذلك تحسن وضع ذراعي الذي عصره وولف لارسن مثل درنة البطاطا. ولولا هذان الموضعان لقلت ان موقفي على «الشبح» جيد وصحتي ممتازة. لقد تصلبت عظامي وعضلاتي معا وغدت راحتا يديّ شثْنة مثل جلد قائمة الفيل. ان اظافري مكسرة، وفي كل اطرافها «شناتير» متقرحة. اما وسط الراحة فهو تضاريس مختلفة من آثار الجروح والدمامل الملتئمة. وفي طرفي الراحة تكلّسات غليظة مثل ما يخلفه مرض الحجّارين. أما بين اصول الاصابع فالجلد متسلخ احمر، اظل اهرشه لانه «يرعاني» بفعل الفِطر المتجمع هناك. وكلما امعنت في الهرش زادت الاكلة، وتحولت الى حكاك يشبه الجرب. ولا شك ان نوع الطعام المتوفر على السفينة وقصوره من ناحية

غذائية هو السبب المباشر في ظهور انتفاخات دورية في مواضع متغيرة من جلدي المملّح. هذه هي الدمامل. لكن الغريب انها لا تخرج صديدا بل تحمر وتلتهب ثم تتجمد وتزول! وعلى كل حال فان «همفري فان ويدين» قد زال الآن ودخل في جلده البرونزي «همب» مساعد الطباخ على سفينة «الشبح».

وقد تسلّيت قبل ليلتين حين دخلت على وولف لارسن فوجدته يقرأ في نسخة من الكتاب المقدس. عندئذ تذكرت يوم مات الرجل في اول الرحلة ولم نجد نسخة نقرأ منها صلاة الجناز. اما الآن فعلمت انه تم العثور على الكتاب في صندوق أمتعة المائت يومذاك قبل ان يقذف البحارة به الى الماء. وقد عجبت... فما الذي سوف يستفيده وولف لارسن من قراءة سفر «الجامعة»؟ وخُيل اليّ ان لارسن انما يترجم ما في نفسه هو حين يقرأ إليّ بصوت جهوري رصين. لقد أسرتني رخامة ذلك الصوت ورنة الحزن العميق التي شابته والرجل يقرأ. نعم، ان لارسن غير مثقف، بالمعنى التقليدي للكلمة، ولكنه يتقن اضفاء الروح على الكلمة التي يقرأها. انني اسمعه الآن يرتل، وسأظل اسمعه في ذاكرتي بقية حياتي وهو يقول:

«جمعت لنفسي ايضا فضة وذهبا، وخصوصيات الملوك والبلدان. اتخذت لنفسي مغنين ومغنيات وتنعمات بني البشر، سيدةً وسيدات.

فعظمتُ وازددت اكثر من جميع الذين كانوا قبلي في اورشليم وبقيت حكمتي معي.

ثم التفتُّ الى كل اعمالي التي عملتها يداي، والى التعب الذي تعبته في عمله، فاذا الكل باطل وقبض الريح، ولا منفعة تحت الشمس.

الكل على ما للكل، حادثة واحدة للصدّيق وللشرير، للصالح وللطالح، للطاهر وللنجس، للذابح والذي لا يذبح. كالصالح الخاطىء والحالف كالذي يخاف الحلف.

هذا شرُّ كل ما عُمل تحت الشمس أن حادثة واحدة للجميع. وايضا قلبُ البشر ملآن من الشر والحماقة. هي في قلوبهم وهم احياء، وبعد ذلك يذهبون الى الأموات.

لكل الاحياء يوجد رجاء، فان الكلب الحي خير من الاسد الميت. لأن الاحياء يعلمون انهم سيموتون، اما الموتى فلا يعلمون شيئا،وليس لهم أجرٌ بعدُ لأن ذكرهم قد نُسي ومحبتهم وبغضهم وحسدهم هلكت منذ زمان. ولا نصيب لهم بعد الى الابد في كل ما عُمل تحت الشمس».

وقال لارسن:

ـ «هاك إياها يا همب».

ثم اطبق الكتاب وثبت نظره فيّ،حتى اذا اطرق هنيهة قال:

ـ ذاك ما توصّل اليه «الجامعة» الذي كان ملكا في اورشليم، بعد إعمال فكر طويل واستكناه حكمة بالغة. وهو تشاؤمي كما ترى. وانت يا همب تقول دائما إنني رجل متشائم. افليس هذا اشد التشاؤم سوادا! «كل شيء باطل وقبض الريح» و «لا منفعة تحت الشمس» و «حادثة واحدة للجميع. للصديق والشرير، للصالح والطالح» و «تلك الحادثة

هي الموت» و «هذا شر كل ما عمل تحت الشمس»!! كان الملك الجامعة يحب الحياة كما مارس تنعمات بني البشر، فهو يقول: «الكلب الحي خير من الاسد الميت» وعلى هذا الاساس فضّل «الباطل وقبض الريح» على جمود القبر وعدم الحركة لدى المدفون فيه. مثل ذلك تماما هو رأيي: فالحركة دناءة وخنزرة، لكن عدم الحركة والركون جامداً كالحجر ـ لا يسوى حتى مجرد التفكير فيه. انه نكران لوجود خميرة الحياة التي فيّ كانسان، إذ ان روح الحياة هو الحركة والقدرة عليها والاحساس بتلك القدرة الواجب ابرازها. فالحياة نفسها هي عدم الرضا، والقلق، والسعي انطلاقا من هذا. اما التفكير في الموت فهو اكبر قلق على الاطلاق».

بعد هذه «الموعظة» من لارسن لم يكن بد من اجابتي عليها بقولي:

ـ «انك اشد سوءا من «عُمر»، فهو بعد الآلام التي عاناها فِكرُه ايام شبابه قد توصل الى الرضا في ايام شيخوخته، وقلَبَ ماديته الصرفة الى شيء بهيج يبعث على السرور. اما انت...»

ـ «ومن هو عمر هذا الذي تشير اليه؟»

وبسؤال لارسن الاخير حصر الرجل عملي طيلة ذلك اليوم والذي يليه ويوماً ثالثاً آخر. لقد اراد ان يعرف كل شيء عن عمر الخيّام. ولم يكن سبق له ان سمع بالرباعيات ولا اطلع على اشارة الى الفلسفة فيها، فظهر الآن وكأنه وقع على كنز ثَرٍّ كان مغمورا فنبشته له. وكان من حسن الحظ انني احفظ ثلثي رباعيات ذلك الفيلسوف الفارسي وأستطيع تذكّر الثلث الاخير دون صعوبة. وهكذا ظللنا طوال ساعات نناقش ما رمى اليه الخيام في الرباعية الواحدة. وقد وجدت لارسن يقرأ في الكثير منها اسى عميقا ودعوة الى التمرد والثورة. كنت انا نفسي لم افطن الى ذلك المعنى الضمني في شعر عمر، فعجبت كيف استطاع لارسن النفاذ الى ما عجزت عنه. أهو بعين فطرته احدّ بصيرةً من كل ثقافتي ام ان هناك خيطا يربط بين فكره وفكر الخيام! هذا ممكن، فقد كان عمر ماديا بالفطرة، ومتشائما بفعل حكمته الواسعة.

على كل حال: كنت أقرأ الرباعية باحساس من التلذذ وميلٍ غالب الى اكتساب النشوة الادبية من جمال التعبير. اما لارسن فكان يغوص في المعنى المخبوء وراء حبكتها والاشارات القصيّة التي تستدعيها الفكرة. بل ارى من الامانة الادبية ان اقول: كانت قراءتي للرباعية الواحدة تترك الانطباع بالخفة والمرح، اما حين يقرأها هو فانه يُكسب الكلمات رصانة وجلالا يجعلها حبات من اللؤلؤ منظومة في قلادةٍ خيطُها من عنصر الحكمة ذاتها. وعند ذاك تبدو قراءته والمعنى الذي يضفيه على الرباعية هما الاصل الذي هدف اليه الشاعر وتبدو قراءتي هي مجرد القشور. فمن لا يقنع والحال هذه بأن لارسن قد استوعب الرباعيات وتوحّد مع وجْد الخيام خيرا مما فعلت!؟

ولقد انصب اهتمامي على معرفة: اي الرباعيات تقع من نفسه اكثر من غيرها، ففوجئت بانه حدّد اكثرها مَوْراً بالحيرة والقلق بمجرد ان لفظها. وبذلك نفذ الى اعماق روح ذلك الشاعر المتمرد على الوجود الناقض لفلسفة مجتمعه كلها حتى في توجيه حياته.

عجباً، قسراً عن ارادتي ودون سؤالي وُجدت في هذا المكان، لماذا؟
وقسرا عن ارادتي، وجدت في هذا الزمان ايضا!
ان اقداحا كثيرة من هذه الخمر المحرَّمة
يجب ان تُغرق ذكرى تلك الجرأة الوقحة مِنَ الذي فعل ذلك.
وصفق لارسن يديه بعد هذه الرباعية وصاح:

ـ «ما اعظم هذا! ان كلمة «الجرأة الوقحة» هي المفتاح. ولا يمكن استبدالها بكلمة غيرها لانها هي كبد الحقيقة.

وقد اعترضتُ على «استعمال» الشاعر لتلك اللفظة، لكن لارسن رفض الحجة وأصرّ على انها جاءت في الموقع الصحيح، وان غيرها لا يسد مسدها ابدا. وقال:

ـ «ليست طبيعة الحياة ان تكون غير هذا. فهي حين تعلم انها صائرة الى فناء لا تستطيع الا ان تتمرد وتثور. ذاك اعنف مما تحتمل. لقد وجد «الجامعة» الحياة «باطلٌ وقبض الريح» لكنه ايضا وجد الكف عن ذلك الباطل وقبض الريح بالموت ـ شراً أكبر من شر «الباطل وقبض الريح». ونحن نجده في إصحاح تلو اصحاح يعذّبه الارق من عدم الانصاف في ان ينتهي «الصالح والطالح، الطاهر والنجس» نهاية واحدة.. هي الموت. والى نفس هذه النتيجة توصّل عمر. ومثله فعلت انا. وهذا ما يجب عليك ان تتوصل اليه.. انت! ألم تثُر فيك الحياة حين هدد ماكريدج ان ينزعها منك بسكينه الطويل؟ بلى. لقد خفتَ ان تموت يا همب.. اي ان الحياة التي فيك والتي هي اشد عنفواناً منك ـ كانت ترفض ان تتلاشى. لقد حدّثْتَني عما سميته غريزة الخلود، اما انا فأتكلم عن غريزة الحياة والتي هي اقوى من الموت حين يقترب. وهي تنفر منه وتكرهه وتثور عليه. لقد تغلبتْ فيك يوم كان الطباخ المأفون يشحذ سكينه ليهبك خلودك الذي تزعمه.

انك تخاف ماكريدج الآن. كذلك تخشاني انا، ولا تستطيع ان تنكر ذلك. فلو شددت على عنقك هكذا! (وقبض عنقي بيده الفولاذية حتى انقطع نفسي) واخذتُ اعتصر الحياة من جسدك قليلا قليلا لاضمحلت وتلاشت غريزة الخلود لديك. بل لهربت منك مكسوفة من زيفها الاكيد.. اما غريزة الحياة فهي تثور في تلك الحال، فتبدأ انت في التصرف بموجبها وتناضل لابعاد يدي. لماذا؟ لان غريزة الحياة تحاول التعبير عن رفضها للفناء. اليس هذا هو الواقع؟ بلى. عند ذاك ستضرب الهواء بكلتا ذراعيك وتحاول ان تتفلت. وستجحظ عيناك استنكارا لواقعك. ان يدك الرخوة تضغط على ذراعي الآن. انا اشعر كأن فراشة لطيفة تحط على عضلات عضدي. ها هو صدرك يعلو ويهبط خافقا، ولسانك يتدلى، وجلدك يستحيل اسود كامدا، وحدقتاك عائمتان. انهما تصرخان «الحياة، الحياة» ولسانك يتمتم «اريد ان اعيش، اعيش، اعيش». انت تود «ان تعيش» الان في هذه اللحظة وفي هذا المكان ـ لا فيما بعد، ولا في جنات خيالية موعودة. انت في هذه اللحظة تشك بل تنفي «الخلود» الذي تخدع به نفسك، فانت بالبرهان العملي غير متأكد من وجوده. اما حياتك فانت موقن بحقيقة وجودها. أليس كذلك؟ ان الظلام قد اخذ يحيط بك، ظلام الموت، الكف عن الحركة وتلاشي القدرة على الشعور. هذا ما يلفّك الان. يهبط عليك ويرتفع من حولك. ها قد غرّبت

عيناك. وهما كزجاجتين الآن. واذناك تعجزان عن نقل الاصوات. فانت لا تكاد تسمعني ولا ان ترى وجهي. ومع هذا فانك تناضل للتخلص من قبضتي. ها انت ترفس بقدميك. وها جسدك يتشكل في عُقد ويتلوى مثل حية متضايقة: وصدرك يخفق: اريد الحياة، اريد الحياة، اريد الحياة».

بعد ذلك لم اعد اسمع شيئا مما يقول لارسن. لقد فارقني الوعي ولفني الظلام الذي وصفه لارسن وصفا شاملا ودقيقا. وعندما زال كل ذلك وأفقت، وجدت نفسي ملقى على ارضية الحجرة امامي وولف لارسن يدخن سيجاره المعهود، وفي عينيه ذلك الوميض الغريب النهم: محاولة النفاذ الى اعماق ارواح الآخرين. وبادرني لارسن قائلا:

- «آه.. هل اقتنعت بوجهة نظري الان؟ خذ اشرب قدحا من هذا الشراب.. انه يفيدك. وانا اود توجيه بعض الاسئلة اليك بعد قليل».

ادرت وجهي تجاه لارسن رافضا ما طلب، مستنكرا طريقته في المناقشة.. وقلت:

- «ان العنف هو الوسيلة للاقناع في مناقشتك».

- «لا بأس.. ستتحسن حالك خلال نصف ساعة، وانا أعِدك الا استخدم العنف المادي هذه المرة. انهض يا همب، واجلس قبالتي على الكرسي».

ومع انني كنت لا اكثرَ من دمية في نظره، فقد اطعت، واستأنفنا البحث في رباعيات عمر الخيام حتى انقضى الشطر الاكبر من تلك الليلة.

الفصـــل الثـــاني عشـر

شهدت الاربعُ والعشرون ساعة الاخيرة مهرجاناً من الوحشية على «الشبح»، وبدا ان العنف وباء معدٍ قد انتقل من سطح السفينة الى الكابينة وقاعدة الصاري الرئيسي على السواء. لذا تراني لا أكاد أعرف من اين بدأ انتشار ذلك المرض. ولا شك ان وولف لارسن كان هو الجرثومة الاصيلة في العدوى. فمن جرّاء سلوكه توترت العلاقات بين الملاحين والبحارة والصيادين والمقذفين في القوارب. وزاد في توترها تلك الاشتباكات المتكررة والاحقاد الدفينة، وجشعُ كل منهم في ان يحوز ما هو لصاحبه. لقد اختل التوازن في العلاقات الانسانية على السفينة، فتولدت من ذلك شرارة اشتعلت وكأنها النار في سهوب معشبة فسيحة حشائشُها من الضغائن.

ان توماس ماكريدج واش دنيء، جاسوس، مخبر في جهاز مباحث، وقذر. فهو يحاول رفع قيمته عند لارسن، والتقرب اليه، عن طريق الوشاية ونقل الاخبار. لذلك يصب في اذنه كل ما يقوله رجال السفينة عن مساوئه. ومن هذا القبيل انه نقل اليه حديث جونسون عنه واعلانه ان زقاق الزيت الموجودة في المستودع من نوع رديء لا يسوى شيئاً.

والمستودع هذا شبه مخزن، يوجد في كل سفينة للصيد، وفيه يخزن صاحب السفينة مختلف الحاجيات التي تلزم رجال سفينته من البحارة والملاحين والصيادين. وهم يشترون تلك الحاجيات لحسابهم الخاص، لكنهم لا يدفعون ثمنها على الفور، وانما يتم حسمه من رواتبهم. وفي حال الصيادين على الخصوص ـ والذين لا يتقاضون رواتب محددة ـ يؤجل الدفع الى ما بعد انتهاء موسم الصيد. فهم يقبضون قدرا معينا من المال عن كل رأس عجل يصطادونه، ومن هذا يسددون حساباتهم على السفينة.

لم اكن اعلم شيئا عن انتقاد جونسون لنوعية زقاق الزيت من قبل، فكان الأمر الآن مفاجأة تامة لي. وكنت قد انتهيت من كنس الكابينة وادرت مع وولف لارسن نقاشا تفصيليا حول شخصية هاملت ـ التي يحبها لارسن ويعتبرها أفضل ما ابدع شكسبير ـ حين هبط جوهانسن درجات السلم الى الكابينة يتبعه جونسون. وكانت طاقية الاخير مرفوعة الى وسط رأسه، على عادة البحارة، وهو يتأرجح في مشيته من اثر ارتجاج

السفينة. وقال لارسن حين وقفا امامه:

ـ «يا همب، أغلق الباب، وأنزل ستائر الطاقات».

فعلت ذلك. ولاحظت غضبا في عين جونسون، لكني لم اعرف السبب. وهكذا ظللت اجهل ما وقع حتى وقع. اما جونسون فكان يقدّر ما سيقع ومن ثَمّ اعد نفسه لمواجهته بشجاعة. وقد رأيت في عمله هذا رفضا مطلقا لمادية لارسن. ذلك أنه كان رجلا صاحبَ قيَم، متمسكا بالحق والشرف. كان على حق وكان يعرف انه على حق ـ فلم يكن يخشى شيئاً، وهو مستعد لأن يموت في سبيل ما يعتقد انه صواب. على هـذا الاساس مثَّل جونسون صورة مغايرة تماما لافعال لارسن. فقد بات عينة بارزة لانتصار الروح على المادة، وخير ممثل على السفينة لتفضيل القيم على القوة البدنية. افليس هذا حجةً دامغة على ان الاخلاقية هي العامل المسيطر على روح الانسان، تظل ترفعها فوق المكان والزمان وهي ثابتة لا تتزحزح، ولا يقهرها عنف المادة ولا طغيانهـا؟ اليس يعني ان اصل تلك الاخلاقية هو الخلود الذي يصمد في وجه كل شيء! هذا ما تساءلتُ عنه فيما بعد حين سمح الوقت بالتساؤل، لكني الآن اود الرجوع الى مسرح الكابينة في «الشبح».

على ذلك المسرح كان يقف جونسون، عيناه تومضان بالعزم والقلق معا، وخلفه جوهانسن على بعد عدة اقدام، فيما يجلس قبالته وولف لارسن على مسافة ثلاث ياردات. ورانَ صمت مطبق للحظات، ثم كسره وولف لارسن فقال:

ـ «يونسون»

ـ اسمي «جونسون» يا سيدي .

هكذا قاطع البحار محدّثه، ولم يقع في الخطأ بأن حذف كلمة «سيدي» التي يجب ان ترد في كل عبارة يخاطب بها الرئيس.

ـ «حسَناً يا جونسون، عليك اللعنة. هل تعرف لماذا استدعيتك الى هنا؟»

ـ «نعم، ولا يا سيدي، ان عملي متقن.. رئيسي يعلم ذلك وانت تعلمه ايضا. أنا اقوم بواجبي خير قيام، فلا مجال للشكوى في ذلك الصدد».

ـ «وهل هذا هو كل شيء؟».

قال وولف لارسن ذلك في صوت خفيض ونبرة عادية، فرد جونسون:

ـ «انا اعرف انك تضمر لي شيئا.. فانت لا تحبني.. انت.. وال....»

هكذا اجاب جونسون في انكليزية بطيئة لكنها غير متعثرة. فقال لارسن..

ـ «تابع عبارتك.. لماذا قطعتها؟ لا تخشَ شيئا من مشاعري تجاهك».

ـ «أنا لا أخاف، ولا اخشى شيئا. اذا كانت كلماتي بطيئة فلأنني لست من ذلك البلد الذي اتكلم لغته الآن. انك لا تحبني يا سيدي، لانني رجل حقيقي، في جلدي من الرجولة اكثر مما تحتمل».

ـ «ان فيك من الرجولة اكثر مما ينبغي للتقيد بالانضباط والنظام على ظهر هذه السفينة. اهذا ما تريد ان تقوله؟»

ـ «انني اعرف الانكليزية وافهم ما تعنيه يا سيدي».
ـ «اسمع يا جونسون..»

قال لارسن ذلك في نبرة من يود ان يتجاهل كل خلاف سابق، وبطريقة تصالحية ظاهرة. ثم استطرد:

ـ «هل افهم انك غير راض عن نوعية زقاق الزيت التي اشتريتها من المستودع؟»
ـ «نعم، انا غير راض عنها. انها من نوع رديء يا سيدي».
ـ «وافهم انك قد أدرت لسانك في ذمها بين رجال السفينة؟»
ـ «انا اقول ما اعتقده يا سيدي».

في هذه الأثناء التفتُّ الى جوهانسن عدة مرات. كان يُعد جُمع يده، يشد قبضته ويرخي اصابعه وكأنه يتدرب. وكان في عينيه شيطانية كلها خبث واذى. وقد لاحظت ورماً ازرق كبيرا تحت احدى عينيه، فهل كان ذلك ما خرج به من عراكه السابق مع جونسون! لست ادري. لكن واقع الحال يشير الى ذلك. فهو لا يعتبر نِدًّا لجونسون ابدا.

وقال لارسن:

ـ «هل تعرف ما يحل برجل قال ما قلته عني، وذم تجهيزات هذه السفينة في مستودعها؟»

ـ «نعم اعرف ذلك يا سيدي».
ـ «ما هو؟»
ـ «انه ما ستفعله بي انت والريس جوهانسن في هذه الحجرة».

وهنا التفت وولف لارسن جهتي وقال:

ـ «انظر اليه يا همب. انظر الى هذا التراب الحي. هذا التجمع من المادة الذي يتحرك.. يتنفس ويتحداني، ويعتقد جازما انه مكون من شيء رفيع موسوم بخيالات انسانية معينة مثل: الحق والشرف، وانه يجب ان يحافظ عليها رغم اي عناء يلقاه واحقاد يواجهها في سبيل ذلك! ماذا تظنه يا همب؟ ما رأيك؟ "

ـ «انه رجل، خيراً منك».

بهذا رددت على سؤاله وانا اقصد ان احوّل شيئا من غيظه على جونسون نحوي انا، ثم اضفت:

ـ «ان خيالاته الانسانية كما تود ان تسميها تنبع من النبالة والرجولة، اما انت فليست لديك خيالاتٌ من هذا القبيل؛ لا احلام ولا مثل عليا. انك معدم وصعلوك».

أومأ لارسن برأسه موافقا على ما سمع، وفي رضا وحشي ايضا. ثم قال:

ـ «ذاك صحيح، صحيح تماما. ليس لدي خيالات تنبع من نبالة ولا رجولة، فأنا مع «الجامعة» في قوله «كلب حي خير من اسد ميت». ان عقيدتي الوحيدة هي معالجة الوضع

بسرعة، فهي وحدها التي تحفظ عليّ الحياة. انظر الى هذه النتفة من «الخميرة» التي نعرفها باسم جونسون: حين تكف عن كونها نتفة من خميرة الحياة وتغدو ترابا ورمادا، لن يكون فيها نبالة اكثر من اي حفنة من تراب او رماد، اما انا فسأظل حيا متوثبا أزأر وأجأر. هل تعلم يا همب ما سأفعل؟».

ـ «كلا. طبعا».

ـ «سوف استخدم عملياً قدرتي على التوثب والزئير، وأريك كيف تتصرف «النبالة» التي تحكي عنها، ماذا يحدث لها وكيف تصير. راقب بعين رأسك».

كان لارسن يجلس على كرسي يبعد ٣ ياردات من موقف جونسون فانتفض قائما، كل جسده معا، ووثب كالنمر في خفّته وعنفوانه، فقفز المسافة الفاصلة بينه وبين جونسون وانقض على فريسته. كان «الذئب» صاعقة تنطلق وحمّة تقذفها فوهة بركان.

ويبدو ان جونسون قد توقع ذلك، فاستقرت احدى يديه على معدته والاخرى على وجهه. هناك كان ينتظر ان يتم الهجوم. لكن لارسن وجّه قبضته الحديدية الى ما بينهما: الى القفص الصدري لجونسون. اتراه كان يود ان يكسر له ضلعا يخترق الرئة فينقطع نفَسه! لا ادري، لكن هذا ليس بعيدا عن نيات «الذئب» الشريرة.

كان من شدة اللكمة ان توقف شهيق جونسون في التو، واندفع لسانه الى الخارج وندّت منه صرخة مكتومة وكأنه حطاب مكدود يلقي البلطة بعد عناء طويل! ثم انه ترنح جسده وهو يحاول الاحتفاظ بتوازنه.

لست استطيع الاستمرار في وصف الوحشية التي عقبت ذلك. نعم كنت حاضراً، لكني لا احتمل الاتيان على ذكر ما وقع، فانا اشعر بالدوخة حين استعيد مجرد الذكرى.

لقد قاتل جونسون بشجاعة، واستمات في المقاومة، لكن عدم التكافؤ كان في غير صالحه. لم يكن ندّا لوولف لارسن وحده، فكيف وقد انضاف اليه جوهانسن بحقده ولؤمه! كان ما جرى شيئا مرعبا حقا. وما كنت اتصور ان الجسد البشري يحتمل كل تلك الفظاعة ويظل على قيد الحياة! ومع ما آلت اليه النتيجة المحتومة فقد أكبرتُ رجولة جونسون واصراره على ابداء تلك الرجولة رغم تأكده من انه هو الغارم في الصراع. وحين لم اعد احتمل مشاهدة المجزرة سِرت الى باب الكابينة ففتحته لأصعد السلم الى سطح السفينة. لقد فكرت في ان اطلب عون البحارة كي يتدخلوا لفض المشكلة، لكن لارسن ادرك ذلك فترك جونسون المنطرح ارضا ووثب الي. وبذراعه المتوترة كقضيب ثخين من الفولاذ «كنَسني» من عند الباب الى قرنة الكابينة. واقول «كنسني» لأني لا اجد لفظة اصدق تعبيرا عن واقع الحال. فهو لم يجد مقاومة في ازاحتي جانبا على الاطلاق. ثم بدا لي ان شهيته للكلام قد واتته في هذه اللحظة، اذ سمعته يقول، متهكما:

ـ «انها ظاهرة الحياة. ابق هنا يا همب، فقد يتسنى لك ان تجمع معلومات ادق مما لديك عن «خلود الروح» الذي تقول به. هذا بالاضافة الى انك متأكد من اننا لا نستطيع ان نؤذي جونسون ـ وانما نزيل مظهره الجسدي فقط ـ فروحُه في رأيك مقدر لها الخلود!».

ربما كانت عدة قرون هي التي شهدتها في الكابينة وان كانت لم تتجاوز عشر دقائق. لقد القى وولف لارسن وشريكه الخبيث بجونسون الطيب ارضا وجعلا «يدقان» لحمه بقبضاتهما الصلبة، ويدفعان حذاءيهما الثقيلين في عضلات ظهره وقاع بطنه وكتفيه. هل كان لارسن يود ان تتمزق امعاء غريمه! ربما. وهل كان جوهانسن يود قلقلة مفاصل الرجل الذي اذله قبل بضعة ايام! ربما ايضا.

كان جونسون يسقط على الارض فيجرّانه ويوقفانه ثم يتعاوران عليه اللكمات حتى يسقط ثانية. كل هذا والدم يتفجر من أذنيه وانفه وفمه والجراحِ الكثيرة في وجهه وصدره. لم يعد المسكين يرى او يسمع.. ومع هذا ظل الغلّ ظامئا ما ارتوى في نفس جو هانسن! وبدا اخيرا ان «الذئبية» في نفس لارسن قد اكتفت. فقال:

- «يكفي يا جوهانسن، يكفي»

لكن دناءة «الثعلبان» كانت ما تزال تعمل، فلم يتوقف جوهانسن عن الركل. عندئذ دفعه لارسن بذراعه باحتقار.. ولم يستجب جوهانسن ايضا، فما كان من لارسن الا ان طوح به على الارض بلكمة واحدة. وهناك اقعى جوهانسن في ذلة كلب قد أذنب مع سيده.

وقال لارسن:

- «افتح الباب على عرضه يا همب».

نفذت الأمر. فحمل الوحشان جثة الرجل من اربعة اطرافه وصعدا بها السلم الى سطح السفينة ثم اوقعاها لترتطم بالخشب. وشاهد لويس ذلك فوقف يتأمله في حسرة ظاهرة، اما «ليش» فقد سلك سلوكا لم يكن يتوقعه احد: تقدم الى جونسون، وباشر في تضميد جراحه. كان يبلل قطعة من القماش بماء البحر ثم يمسح الدم المتجمع عند فوهات الجروح، ويدعك جبهة الرجل وانفه ووجهه، ويضغط حتى يتوقف الدم النازف من كل مكان.

بفضله افاق جونسون من غيبوبته. اقول «افاق جونسون» وإن كان الذي يراه الآن لا يرى «جونسون» السابق بل خليطا من اللحم المتورم في وجه جونسون المعهود.

في هذه الاثناء كنت انا اقوم بكنس ارضية الكابينة وسفح الماء عليها لازالة الدم المتخثر، وجلط الجلد المكشوط من جسم جونسون. وصعدت الى السطح لأستنشق قليلا من الهواء المنعش، واريح اعصابي من رؤية مخلفات ساحة المعركة. وهناك وجدت وولف لارسن.. كان جالسا على كرسيه المعهود يدخن سيجاره المعهود ايضا. وفجأة طرق سمعي صوت «ليش» الاجش الناضح بالغضب. كان يقول:

- « على روحك اللعنة يا وولف لارسن. ليقذف بها الله الى الدرك الاسفل من الجحيم. فحتى الجحيم اكثر مما تستحق ايها القاتل، ايها المجرم والجبان. انك اقذر من خنزير».

سمعت ذلك وكأنها نزلت بي صاعقة. لقد خشيت ان يميته الوحش. لكن وولف لارسن لم يكن ليفعل ذلك، فهو لا يشاء ان ينقص رجاله في باكورة موسم الصيد. لذا ظل

يروح ويجيء على سطح السفينة دون ان يعير «ليش» الهائج اي اهتمام او يرد عليه بكلمة واحدة.

استمر «ليش» يشتم لارسن ويهزّؤه بصورة لا مثيل لهـا على الاطلاق. وزاد في جرأته ان البحارة كلهم تجمعوا على سطح السفينة يرقبون ذلك المشهد.

وتطلعتُ الى عيونهم. كان فيها تشفٍّ بوولف لارسن، لكن فيها خوفا ايضا من ثورة مقبلة لديه، واشفاقا على «ليش» الأهوج في نظرهم. الملاحون والصيادون ومجدفو القوارب كانوا يودون الحاق اي اذى جسدي او ادبي بـ «الرئيس العجوز» لكنهم في نفس الوقت يعترفون بعجزهم عن ذلك. وها قد تجمعوا للتلذذ بسباب «ليش» والانبهار من جرأته المقهورة الفظّة أما انا فقد رأيت في تلك الجرأة انتفاضة للقِيَم على التصرفات الفظّه التي مارستها القوة المادية لدى لارسن، واعجبت بمروءة «ليش» ورفضه ذلك على هذا الاساس.

كانت نوعية الشتائم التي كالها «ليش» من صنف جديد، فقد عرّت لارسن من اية سمة انسانية، وكان فيها حرقة المقهور اليائس الذي يصرخ بفوران شهوة الانتقام. ما اكثرَ ما استمطر اللعنات على روح لارسن ودعا عليه بالهبوط في قرار الجحيم، حتى اشبهت دعواته ما كان ينص عليه قرار الحرمان الكَنسي في القرون الوسطى. ولم يغفل «ليش» ان يمزج سبابه ببعض الفاظ القداسة، ولا ان يخلطها ببعض الالفاظ البذيئة السافلة. كان غضبه محتدما وهو يريد ان ينفّس ذلك الغضب بقسوة الالفاظ والاقذاع في الشتيمة، لذا بالغ الى درجة الجنون حتى ظننتُ الرجل قد اخذته نوبة من الصرع: شفتاه ترتجفان والزبد يملأ شدقيه ويتناثر رشاشه، وهو يختنق اثناء كلامه حتى تغدو الفاظه مثل هدير البعير لا تَبين منها حروف معينة ولا معاني.

رغم هذا الواقع ظل لارسن هادىء الاعصاب لم يتفوه بكلمة واحدة، انما جلس يمص سيجاره وينفث دخانه في الهواء. كان أرومةَ شجرة في هذه اللحظة ولولا ان عينيه تحملقان في البحر لظنه من يراه تمثالا.

كنت انظر الى لارسن كل لحظة، وينظر اليه جميع الذين على السطح والكل يترقب ان ينقض على «ليش» ويتخوفُ من جريمة وشيكة. لكنه لم تبد عليه امارات ذلك. ظل راسخا فوق كرسيه الواطىء وسيجاره يرسل حلقات من الدخان في الهواء.

ويبدو ان «ليش» اعتبر لا مبالاة خصمه امعانا في الاحتقار له، فأخذ يصرخ:

- «ايها الخنزير، خنزير، خنزير، لماذا لا تأتي وتقتلني ايها المجرم؟ انت تستطيع ذلك وانا لا اخاف منك. ليس هناك من يقف في طريقك عليك اللعنة. ان الموت والراحة من رؤية وجهك خير من الحياة في قبضتك على هذه السفينة. تقدم ايها الجبان. اقتلني، اقتلني، اقتلني».

في هذه اللحظة تدخّل ماكريدج الذي ظل يتفرج ويسترق السمع من عند باب المطبخ. كان يود ان يحتّ الوسخ عن حافة الباب في الظاهر لكنه في الواقع يود ان يرى كيف

تتم الجريمة. وقد تطلع مباشرة الى وجه لارسن وكأنه يحثه ويستعجله، لكن لارسن تجاهل نظرته وكأنه لا يراه.

وبدا ان هياج «ليش» وجد متنفسا له. ها هو ماكريدج اعزل من سكينه على السطح فلماذا لا يفثأ «ليش» غضبه في من شَطَبَ ذراعه من قبل! ووثبَ عليه، فلكمه بقبضة الحاقد الثائر لكمة طرحته ارضا. وطق رأسه على الخشب. وكلّما كان ماكريدج يحاول النهوض كانت لكمات ليش تدحرجه على الارض وتسلب منه القدرة على الوقوف من جديد. ثلاث مرات حاول ماكريدج ذلك وثلاث مرات دق رأسه الخشب. ونظر ماكريدج جهة لارسن يستعطف مستنجدا، لكن لارسن لم يهب لمساعدته. فصاح مستغيثا:

ـ «يا الهي، النجدة، النجدة، انقذوني. ابعدوه عني، خذوه».

ضحك الصيادون من ذلك. كانت «مأساة» لارسن وجونسون قد انتهت وجاء الآن دور «ملهاة» ليش وماكريدج. ها هم البحارة يتفرجون مسرورين بمذلة الطباخ. اتراهم كانوا يعرفون انه الواشي بـ «جونسون» والسبب في كل ما حدث؟ لست ادري، لكنهم يبدون متشفين في الطباخ الذي «لم نذق من تحت يده الا طعاما يبعث على القرف» كما قال احدهم. ولماذا الومهم وانا نفسي شعرت بالرضا عن اذلاله! لقد سرني ان ينال علقة من ليش، وان تكون ساخنة فعلا. وحين خجلت فيما بعد من هذا الاحساس برّرته لنفسي بأن اعتبرتُه رد فعل طبيعي للرغبة المكبوتة لدي في مساعدة جونسون مع العجز عن ذلك. انه إسقاط حل فيه ماكريدج محل لارسن.

وما دمت قد ذكرت لارسن فعلي ان أبيّن تصرفه في هذه الاثناء: لقد ظل جالسا على كرسيه وسيجاره المعهود في فمه. كان ينظر الى ما يحدث لحظة ويحملق في البحر لحظة اخرى. وبدا عليه انه يشهد رواية تمثيلية ربما كانت في نظره ذات علاقة بحركة «خميرة الحياة». ها هما نتفتان من تلك الخميرة تتقاتلان، فالأقوى والاسرع حركةً هي التي تُضعف خصمها. وقد تلتهمه ليتسع لها المجال في البقاء حية لمدة اطول. هذا ما يؤمن به الرجل وهو الآن يتلذذ بما يرى من برهان على صوابه.

ولأعد الآن الى ميدان الصراع. كان العراك على السطح الآن شبيها تماما بما رأيته من قبل في الكابينة من حيث عدمُ التكافؤ واحتدام غريزة الحيوان المفترس. كان ماكريدج يتدحرج جهة السلم ليهبط ويلوذ بالمطبخ لكن ليش يشده من شعره الى السطح كل مرة. وبحذائه الثقيل كان يركله في صدره وبطنه وعنقه وكل طرف من جسمه، ويظل يوقفه ثم يهوي على وجهه بلطمة تصرعه. ما اسرع ليش في استعمال يده وما اسرعه في استعمال حذائه الثقيل!!

كان ماكريدج ملقى على الارض، عاجزا فاقد الحركة، والدم يتدفق من كدمات وجهه، و «ليش» يتابع ركله ورفسه بعنف. اما السادة المتفرجون على الملهاة فيكادون يطلبون المزيد من أحداث مشاهدها!

وأخيراً بدا ان «ليش» قد افرغ جميع طاقته المحبوسة واكتفى بذلك القدر من الثأر

لجونسون، فابتعد عن «جثة» ماكريدج الممدّدة على خشب السطح. وكانت تخرج من فم صاحبها اصوات المذلّة، ونحيب صامت لا يجد من يتجاوب معه.

كان قتال «ليش» وماكريدج هو الحلقة الثانية من «مسلسل» برنامج احداث ذلك النهار، وجاءت الحلقة الثالثة حين اصطدم سموك وهندرسون في عراك عنيف بعد الظهر. وفي هذه المرة اضاف المتقاتلان نوعا جديدا من اسلحة القتال.. ذلك هو البارود، فقد انطلقت زخة من الرصاص في اكثر من اتجاه واحد. غير ان احدا لم يُصَب، وانما هي سحابة متواصلة من الدخان تولدت من استعمال الكحل. كما ان عنصرا جديدا برز الآن هو تدخل وولف لارسن لايقاف المنازلة.

وقد نجح لارسن في جانب من ذلك واخفق في الآخر. فهو لم يستطع منع إحداث جراح كثيرة خلّفها الاشتباك بالايدي واللكمات وتبادلُ الركل بالاقدام. اما كحل البارود فقد اوقف استخدامه تماما. والسبب في ذلك جلي واضح. وهو ان لارسن لم يكن يود فقدان اي من رجاله في اول موسم الصيد، والبارود قاتل لا يقبل المزاح في استعماله. اما الركل واللكم فانه ينفع للمهارشة ولا يميت.

بل ان الأمر اختلف من جذوره هذه المرة، فبعد ان فصلهما لارسن عن بعضهما ورأى ان جراحهما قد تتطور الى جراح خطيرة ـ جعل يساعدني في تضميد تلك الجروح. وكانت مساعدته الجراحية تنم عن قسوة في طبيعته، فهو يعامل الجرح البشري مثل ما يعامل الرعاة جراح قطعانهم: قسوة ظاهرة ورغبة اكيدة في الشفاء. والغريب ان كلا الرجلين تقبّل منه ذلك: ولو عاملتهما اثناء التضميد مثل معاملته لما تقبلاها مني. وهذا ما حيرني في طبيعة البشر.

لم تقف احداث ذلك اليوم عند هذا الحد. لقد ذر قرن الخلاف اثناء الليل عند قاعدة الصاري الرئيس أيضاً. فاشتبك معظم الرجال الذين هناك مع بعضهم،ولم يقصّروا في القتال.. ظهر ذلك من الرضوض والكدمات والشطوب التي لاحظتها صباح اليوم التالي على وجوههم. اما السبب في الاشتباك فكان «القيل والقال» فيما بينهم، واتهام بعضهم من قبل بعض في انه السبب في معركة جونسون ولارسن عن طريق الوشاية.

ويبدو ان جوهانسن شعر بالانتفاخ والورم في رجولته بعد قتاله مع جونسون، فودّ تثبيت ذلك الانتفاخ. كان جميع البحارة يعرفون انه عالي الشخير اثناء النوم وينزعجون من نومهم معه في مكان واحد، وقد اشار الى ذلك «لاتيمر» الذي يظنه من يراه من اصل امريكي. فما كان من جوهانسن الا ان هاجمه محاولاً إثبات سيطرته عليه. لكن «لاتيمر» لم يكن غِرّاً بين محنكين،فقد كال لخصمه صاعاً بصاعين واذله اذلالاً كاملا في اعين البحارة بان سحقه في القتال. ولما كان هذا قد حدث في نوبة الحراسة الاخيرة من تلك الليلة فقد اقلق جوهانسن الجميع بقية الليل، لانه كان يستعيد أثناء النوم كل ما جرى معه في النهار.

وملخص القول: كانت تلك الليلة كابوسا مفزعا طويلا، فقد أويت الى فراشي واستلقيت عليه لكني لم اغف لحظة واحدة. ظللت استعيد وقائع ذلك اليوم، النهار والليل،

واحاول تفسير السلوك الانساني المعقد الذي شهدته فيه. وقد رددته الى الغريزة الحيوانية المترسبة من القديم، أيامَ وجود اجدادنا في محيط عدائي على الدوام: بين الوحوش المفترسة في غابات ما قبل التاريخ. فهل يقنع القارىء الكريم بمثل هذا التفسير!! وتساءلت: اذا كانت غريزة القتال، سواء للدفاع عن النفس او حبا في السيطرة والاستحواذ ـ هي التي شكلت قدرا كبيرا من سلوك الانسان قبل ان يتحضر، فما بالها الآن تبرز في اوج قوتها بعد ان تحضر او يدعي ذلك على الاقل! هذا ما لاحظته في نفسي: كان كل ما حولي ينبىء بذلك. وما أسرعَ ما بدأ تأثيره علي. فقد تلذذت بما لقيه ماكريدج من وحشية وعنف، ولم اشعر باي تعاطف وانا اضمد جراح سموك وهندرسون، كما احسست بعدم المبالاة أثناء قتال جوهانسن ولاتيمر. فهل بت انا ايضا اقرب الى تقبل الوحشية والعنف؟ ذاك ما يبدو وإن كان في حاجة الى ادلة اخرى جديدة. اين فارقني ذلك الشعور النبيل بأخوّة الانسان، كيف زايلتني ثقافتي الانسانية العريضة؟ ذلك الشعور المرهف بقداسة حياة الانسان، والرغبة الصادقة في صد الاذى عنه.. لأنه ينبوع القيم الرفيعة في الوجود .. ذلك الجمال الروحي البهي الذي كان يعمر فؤادي ويوجه فكري في كل كلمة اكتبها وفكرة تطرق خيالي.. اين تبخر الآن؟ حقا ان «همفري فان ويدين» قد مات، اما «همب» مساعد الطباخ على «الشبح» فهو الذي يروح ويجيء.. لان «خميرة الحياة» في جسمه هي التي «بقيت منه» وهي التي تتحرك.

هل كان «وولف لارسن» والحال هذه على صواب!! لقد آلمني ان توصلت الى احتمال سلامة عقيدته في الحياة كما يقول، لكن ذلك هو الواقع المر. لا،ليس هو الواقع وانما هو الصبغة التي اصطبغتُ بها لأنني وجدتها هي سائدةً في هذا الوسط التعيس الذي اعيش فيه.

الفصـل الثـالث عشـر

انعكس كل ما حدث امس وبالاً عليّ، اذ كُلفت بجميع اعمال ماكريدج طوال ثلاثة ايام. ولم اقم بها على أكمل وجه بطبيعة الحال، ومع هذا فقد كان الطعام الذي أُعدّه مقبولا لدى وولف لارسن ورجال السفينة الآخرين. بل امتدحوه حتى فكرت ان احترف الطهو وخدمة المطاعم فيما بعد. وضحكت من هذه الفكرة! ومن قبيل الثناء على جهودي في فن الطهو قال هاريسون:

ـ «هذه لقمة هنيّة يا همب، إنها أول مرة أتذوق فيها طعاماً نظيفا طيبا على ظهر هذه السفينة».

قال ذلك وهو يناولني القدور والمقالي والصحون الفارغة التي جاء بها من عند قاعدة الصاري بعد تناول الطعام، ثم أضاف :

ـ «لا أدري لماذا! ان طبيخ كوكي فيه زنخ على الدوام، كأنه يطبخ بالشحمة بدل السمن! اراهن أن عفونة الرجل لها دخل في ذلك، فهو لم يستبدل قميصه منذ غادرنا سان فرنسيسكو».

والحق ان هاريسون كان مصيبا، فأمنت على كلامه:

ـ «انا متأكد انه لم يفعل».

ـ «واراهن انه لا يخلعه عند النوم بل ينام فيه».

ـ «لن تخسر الرهان ابدا في تلك الحال».

ثلاثة ايام فقط هي المدة التي تكرم بها وولف لارسن على ماكريدج ليشفى من آثار العلقة الساخنة من «ليش»، وفي اليوم الرابع امسك به من عجرة رقبته وجرّه الى المطبخ. ولقد بكى ماكريدج... كان لا يكاد يبصر شيئا لتورم عينيه، صوته مبحوح اجش، وساقه شبه مشلولة. لكن وولف لارسن لا يعرف الشفقة على الضعيف، بل لقد هدده حين قال:

ـ «احذر ان تطبخ «شلط» اللحم بعد الآن. كن نظيفا في خدمتك... والا.... لا شحمة، ولا وسخ في ما تطهوه. استعمل قميصا نظيفا على الدوام، والا جعلتهم يربطونك الى صفحة السفينة ويجرّونك وانت مربوط. هل فهمت؟».

لم يجب ماكريدج بشيء. كانت حاله مؤسيةً وهو يقلز في المطبخ. وزاد الأمر سوءا ان مشيته غير الثابتة جعلته يتأرجح مع ارتجاج السفينة. وكاد يقع مرة فمدّ يده الى افريز الوجاق ليمسك به، غير ان الارتجاج دفعه الى الامام فلصقت يده بقدر حارة. عند ذاك سُمع حسيس وفاحت رائحة شواء. لقد احترقت راحته وأصابعه وتسلّخ لحمها فزعق المسكين من شدة الألم:

ـ «يا رب، ما الذي فعلته معك؟ لماذا يصيبني كل هذا؟ حاولت على الدوام أن أسير لصق الحائط، لا أؤذي احدا ولا أتدخل في أحد، فلماذا تنصبُّ علي النقمة؟ اين هو العدل؟ اين هو؟»

كانت دموعه تنساب على خديه المتورمين، وفمه المشوه يصرخ بالشكوى. وطاف على وجهه تعبير وحشي من الكراهية وقال:

ـ «اوه. انا امقته، اكرهه».

فقلت مستفسرا:

ـ «تمقت من؟ من الذي تكرهه؟»

لم يجب ماكريدج، بل انخرط في البكاء من جديد. والواقع أن تخمين من يكرههم في هذه الدنيا أسهل من حزر من لا يفعل. فقد كنت أرى فيه شيطانا يكره العالم بأسره، لكنه بدا لي الان شقياً تاعسا حتى داخلتني نسمة من العطف عليه وخجلت من قسوتي في السابق. مسكين! لقد ظلمتْه الحياة وتآمرت عليه الظروف فشكّلتْه على الصورة التي هو فيها والوضع الذي يعاني منه.

انه لم ير فرصة يغير فيها واقعه الى الأفضل، فهل هذه جريرته وحده!

وكأنما حاول ماكريدج ان يرد على تساؤلي السابق، وفي نفس اللحظة، حين قال:

ـ «لم تتح لي فرصة واحدة، ولا حتى نصف فرصة. كل عمري حياة بؤس وقهر. من الذي اهتم ان يُرسلني الى المدرسة! لا احد... ومن كان هناك ليحشو معدة «تومي» الصغير بالطعام! لا احد ايضا. ومن كان يعطف عليّ فيمسح الدم عن انفي وقت النزيف وأنا صبي صغير؟ الشيطان وحده. من الذي قدم لي أي شيء؟ لا أحد، لا أحد.»

اشفقت على بؤسه فوضعت يدي على ظهره بلطف وقلت:

ـ «لا بأس يا تومي. ذاك مضى وانقضى، وبمقدورك ان تغير ما سيأتي. ان أمامك عمرا طويلا تستطيع أن تفعل فيه ما تشاء وتتمتع كما يروق لك. اصبر قليلا فالفرصة لم تفت بعد».

ـ «هذا غير صحيح، بل انه كذب صريح. انت تكذب عليّ وتعرف انك تكذب لمجرد المجاملة. لقد تم تشكيل حياتي من قبل، وانتهى الأمر، اما المستقبل الذي تتحدث عنه فهو لك أنت يا همب وليس لي. ان الأمر معك مختلف اصلا، فقد ولدتَ في وسَط راق مهذب... انت لم تذق مرارة الحياة، لم تشدّ حزاما على معدتك الخاوية التي تقرضك كأنها فأر بداخلك،ولا تكورت على نفسك من الجوع. كلا، ان الأمور لن تصلح أبدا. فلو صرتُ رئيس

الولايات المتحدة غدا هل يعوّض ذلك عذاب يوم من طفولتي لم اجد فيه شيئا فطويت الليل دون لقمة واحدة!! واخذ ينشج، حتى اذا هدأ عاود القول:

«انا اتساءل: هل يمكن هذا؟ هل يجوز؟ لقد ولدت للشقاء والبلوى، وقاسيت وحدي من العذاب اكثر من نصيب عشرة رجال! نصف عمري الراعف بالعناء قضيته في المستشفيات: الحمى في اسبانيا وهافانا ثم نيو اورليانز! ونهش الاسقربوط من عمري ستة شهور في بربادوس. الجدري هاجمني في هونولولو، وانكسرت ساقاي الاثنتان في شنغهاي، وعانيت فقر الدم في الاسكا! وفي سان فرنسيسكو التوت لي ثلاثة ضلوع فثقبت امعائي.. هناك العذاب،وهذه حالي ههنا على «الشبح».. انظر إليّ يا همب، انظر اضلاعي منفلتةً من العمود الفقري من جديد وسأبصق دما قبل ان تمضي ثماني ساعات. هل أعيش بعد ذلك؟ لا أدري، ولا اريد. يا الله، لا بد انك كرهتني حين جعلتني اشارك في هذه الرحلة اللعينة على سفينة العن. فهل كان هذا منك عدلا!!!»

استمر هذا التذمر الحامض من القدر ساعة او اكثر، ثم عاود ماكريدج عمله: يقلز في المطبخ، ويسب الحكمة في وجوده وتشعّ من عينيه كراهية شديدة لكل ما في هذا العالم. ومن الغريب ان تشخيصه لمرضه جاء صحيحاً. ففي ذلك اليوم اخذ يبصق دما ويتقيأ كل ما يدخل معدته. وما اشد آلامه عند ذاك! وبدا لي ان كراهية الله له ضنت عليه حتى بأن يموت. وقد تساءلت: اهذا عدل فعلا؟ غير ان حالته المرضية اخذت في التحسن بعد بضعة ايام، وهنا تساءلت ايضا: اكان ذلك امعانا في زيادة العذاب يا ترى؟

انقضت ايام عديدة قبل أن يستطيع جونسون الزحف الى السطح ليباشر عمله هناك. كان لا يزال ضعيفا فأخذ رفاقه يراعون ذلك. والأسوأ من وضعه الجسدي كان وضعه النفسي، فقد بدا انه بات ذليلا امام وولف لارسن وغير مبال بـ جوهانسن. وقد سمعته مرة يخاطب هذا الأخير قائلا:

ـ «لن تفوت لك. ستدفع الثمن ايها السويدي الأمسح القدمين. سترى».

كان هذا أثناء الليل، فأخذ جوهانسن يشتمه في الظلام. بعد ذلك سمعت صوت شيء يئز في الهواء، ثم انغرز شيء حاد في خشب المطبخ تبعه سباب وشتيمة وضحكة عالية. وجاء جوهانسن ليفتش عن ذلك الشيء، ربما ليسلّمه الى لارسن كدليل على محاولة لقتله غدرا. لكنه لم يجد شيئا. اما انا فقد وجدت سكينا منغرزة إلى عمق انش واحد في الخشب، فانتزعتها وسلمتها الى «ليش» سرا. فنظر الي شاكرا مرفقا ذلك بصليات من الشتائم ـ لا احسنُ فهمها ولا يحسن ذكرها على الاطلاق ـ لانها من عيار ثقيل لا يستخدمه الا فئة محدودة من البحارة. وكانت موجهة الى جوهانسن بطبيعة الحال.

في تلك الليلة راجعت موقفي على السفينة فوجدته على النحو التالي: انا الرجل الوحيد الذي لا خصام بينه وبين اي فرد على ظهرها. نعم قد لا يستلطفني الصيادون لكنهم لا يكرهونني. لقد شاهدوني اتحدث مع وولف لارسن اكثر من مرة رافعا الكلفة فيما بيننا. فلربما كان هذا هو سبب عدم الاستلطاف. لكني قمت بخدمة كبيرة لكل من سموك

وهندرسون عندما تعاركا، وقد طمأناني انني حاذق مثل اية ممـرضة.. وعبّـرا لي عن شكرهما العظيم لتلك الخدمة. بل لقد عرضا ان يدفعا لي مكافأة حين يحاسبون لارسن بعد انتهاء الموسم ـ كأنني في حاجة الى نقودهما. اما البحارة ومجدفو القوارب فأنا على وفاق كامل مع كل منهم. ويبقى لارسن وماكريدج: أما لارسن فانه يحترمني وان كان يسخر من آرائي جميعا. واما ماكريدج فقد اصبح صديقي بعد كراهيته لي اول الامر.

ويظل العمل: نعم انه شاق، ومن نوع لم افكر من قبل أنني سأمارسه يوما ما. واذا كان يورث الارهاق فانه يورث الصلابة ايضا... فلقد باتت عَضلاتي الآن غير ما كانت، بل ان ارادتي نفسها تصلبت وأصبحتُ كما قال لارسن «رجلا يمشي على ساقيه» لا «ساقي مورّثين سالفين».

وملخص القول: «ان همب الآن افضل من همفري». فهل هـذه النتيجة تـأييد ضمني لآراء وولف لارسن!! لاادري، لكنه يلوح ذلك. ومع هذا فقد نمت تلك الليلة راضيا عن نفسي واثقا من قدرتي على مصارعة الواقع الذي اعيش فيه.

عانى لارسن نوبة صداع جديدة استمرت يومين، وكانت عنيفة مثل سابقاتها. ومع انه ترك التدخين واحتساء الوسكي بصورة مستمرة الا ان آلام الصداع لم تخف. غير ان ذلك لم يؤثر شيئا. والحق إنني لأعجب: لماذا تأتيه هذه النوبات مع ان جسمه سليم وهو اقوى من بغل؟ وقد سألني مرة عن السبب في ذلك فقلت ما سبق ان قاله لويس:

ـ «هذه يد الله تعاقبه عن شروره السوداء. وسيقع له في المستقبل ما هو أدهى وامرّ».

لكنني خفّفت حدة العبارة بحيث يتقبلها لارسن. اما مع لويس يومذاك فقد علّقت:

ـ « ادهى وأمر من هذه النوبة التي تشبه الصرع!»

ـ «نعم، فالله يوميء برأسه لا اكثر، ولا يقوم بما ينبغي عليه في مثل حال لارسن. هذا مع انه لا يجوز ان اقول ذلك».

بذلك اجاب لويس حينذاك.

ولأعد الآن الى وضعي الخاص:

كنتُ مخطئا حين اعتبرت نفسي على وفاق ودود مع جميع رجال السفينة، إذ تبين لي ان ماكريدج لا يزال يضمر ضغينة وشرا. وانه وجد سبباً جديدا لاشعال نار الكراهية تجاهي في نفسه... وهو انني كما قال: «وُلدت في وسط راق مهذب». بيد اني لم اهتم بكراهيته ما دام عاجزا عن الحاق الاذى بغيره. وهو حاله الآن.

وقلت للويس:

ـ «ها قد مضى زمن كاف لم يتم فيه موت احد على ظهر «الشبح»! لقد راهنتَ من قبل على حدوث ذلك فكيف بك الآن؟»

ـ «لا تعجل يا همب. ان العاصفة قادمة. انا اشم ريحها واتحسسه كما اتحسس عدة الصاري في ليلة مظلمة. انها ستمطر بردا وقِحوانا هذه المرة وستكون قاسية عنيفة.

لا تستعجل الأمر فهي اقرب مما تظن».

- «ومن سيذهب اولا؟»

- «تعني: سوف يأكله السمك؟ ليس لويس الطيب على كل حال».

قال ذلك وضحك كأنه يطمْئن نفسه الى ان دوره لم يحن بعد. ثم اضاف:

- «ان عظامي تحدثني انني في مثل هذا الوقت من العام القادم سأكون احملق في وجه امي، العجوز التي تعبت وهي تنظر الى البحر منتظرة ان ترى اولادها الخمسة الذين أودعتهم عنده».

وعن هذا سألني ماكريدج قائلا:

- «ماذا كان يقول لك لوي؟».

- «انه سيقوم بزيارة أمه في بلده يوما ما».

- «انا لم افعل ذلك أبداً يا همب. ليس لي أُم حتى ازورها».

هكذا قال ماكريدج وهو ينظر الي نظرة جوفاء كلها شرود.

الفصل الرابع عشر

اليوم طرقتني فكرةُ انني لم اهتم بالجنس اللطيف من قبل، مع انني لم اخرج من وسط رعاية النساء طيلة حياتي على الاطلاق. فقد ظلت امي واخواتي حولي على الدوام، وكنّ شديدات الحرص على صحتي الى درجة المضايقة والازعاج. ما اكثر ما كن يتدخلن في اموري الشخصية وبخاصة غرفة كتبي التي يَقلبنها رأسا على عقب كلما عنّ لهن ان يقمن بترتيبها. كن ينظرن اليها كمثال للفوضى مع اني اعتبرها مُرضية ما اروع منظرها. وحين يغادرن تلك الغرفة كان يتعذر علي ان اجد ورقة أطلبها او كتابا كنت اقرأ فيه ولم افرغ منه. ومع هذا ما كان اجمل حفيف تنانيرهنّ والجو الانثوي الرقيق الذي يسبغنه على وجود رجل وحيد بينهن هو انا. لقد تذكرتُ الآن واقدّر لهن لطفهن العظيم، ولو عدت الى البيت من جديد فلن اشعر بالضيق من تدخلهن الودود. انا واثق من ذلك، سوف اسمح لهن أن يمرّضنني ويرعينني في الصباح والمساء وعند الظهر، وان يرتبن حجرتي الخاصة كما يحلو لهن، وسأكون ممتناً لعطفهن، شاعرا بنعمة ان يكون لي ام وعدة اخوات. ما أحلى ما افتقدته الآن!

دفعني هذا الشعور الى الانتباه الى رفاقي على السفينة واوضاع امهاتهم. أين هن أمهات ما يزيد عن عشرين رجلا فوق لجة المحيط؟ لقد راعتني فكرة الفصل بين الرجال وعائلاتهم، وقلت: انها حالة غير طبيعية على الاطلاق ان يُترك الرجال يجوسون العالم وحيدين لا نساء معهم. الخشونة والقسوة هي النتيجة الحتمية في تلك الحال. هؤلاء البحارة من حولي.. يجب ان يكون لهم زوجات واخوات وبنين وبنات.. عند ذاك تظللهم الرأفة ويغمرهم الحنان فلا يغدون كما هم الآن. ليس على السفينة رجل واحد له زوجة. وتمضي سنوات وسنوات دون ان يلتقي احدهم بامرأة محترمة او يقع في محيط يتأثر برقة ذلك المخلوق. انهم رجال لا اتزان في حياتهم. لقد تطورت ذكورتهم اكثر مما ينبغي، والذكورة بطبيعتها اميل الى العنف والقسوة. اما الجانب الرقيق في نفوسهم فقد تقزّم واضمحل بل انمسخ في الواقع.

انهم الآن جماعة من أكَلة اللحوم، كل منهم يشحذ اسنانه لينهش الآخر. ويزيدهم الكبت بفعل العزلة في البحر حدة في النهش. ويبدو لي احيانا انه من المستحيل أنه كان

لهؤلاء الناس امهات اصلا، فهم يبدون صنفا من الحيوان نصفه انسان ونصفه وحش.. جنسا خاصا منفصلا عن جنس الانسان/ليس فيه شيء اسمه غريزة الجنس وانما يتوالد بان يفقس بفعل حرارة الشمس كبيض السلاحف البحرية، ويتقبل الحياة مثل ما تفعل السلاحف الصغيرة. وافراده يعيشون او يموتون حسب تقلبات الانواء.

طرقتني كل هذه الافكار فتغير اتجاه الموضوع. وتحدثتُ في ذلك مع جوهانسن ذات ليلة (وكانت اول مرة اتحدث فيها اليه منذ بدء الرحلة) فاخبرني انه غادر السويد وهو في الثامنة عشرة وها عمره الآن ثمانية وثلاثون. وانه لم يرجع الى وطنه طوال هذه الفترة الطويلة الا مرة واحدة. وقد قابل بحارا من بلده قبل سنتين في احد موانىء تشيلي فعلم منه ان امه لا تزال في قيد الحياة. وكما قال جوهانسن «لا بد انها الآن عجوز طاعنة في السن». وسألته:

ـ «متى كانت آخر مرة كتبت فيها اليها؟»

ـ «كان ذاك سنة ١٨٨١، لا وانما في سنة ١٨٨٢، كلا في سنة ١٨٨٣، نعم سنة ١٨٨٣ اي منذ عشرة اعوام. كتبت اليها من ميناء صغير في جزيرة مدغشقر».

وصمت جوهانسن برهة ثم اضاف:

ـ «كما ترى. كنت اعتزم زيارتها كل سنة، فلماذا اكتب؟ وكل سنة كان يحدث ما يعيق تلك الزيارة فلا تراني، اما الآن فانا ريس البحارة وحين نرسو في سان فرنسيسكو سأقبض حوالي خمسماية دولار فأركب سفينة الى ليفربول ومنها الى عندها. لن اجعلها تعمل بعد ذلك. سأقوم بكل شيء».

ـ «وهل ما زالت والدتك تعمل حتى الان؟ كم عمرها؟»

ـ «حوالى السبعين. نحن في بلدنا نعمل من الولادة حتى الممات. هذا ما يجعلنا نعمّر طويلا، فانا مثلا سأعيش حتى المائة سنة».

لن انسى حديثي هذا مع جوهانسن مدى حياتي، فقد كانت كلماته الاخيرة معي. ولربما كلماته الاخيرة ايضا. يدعوني الى هذا القول ما حدث بعد ذلك. فقد قررت الا انام في غرفتي تلك الليلة. كان البحر هادئا آنذاك حيث خرجنا من مجال تأثير الرياح التجارية وغدونا نسير عقدة واحدة في الساعة. وهكذا تأبطت وسادة وبطانية وصعدت الى سطح السفينة لاقضي الليلة هناك.

واثناء اجتيازي السطح مررت بهاريسون، ولاحظت ان السفينة قد انحرفت ثلاث شحطات فنبهته الى ذلك. لكنه رد علي بصوت الوسنان او من يتظاهر بذلك وقال: «خير لك ان تستمر في طريقك. لا تتدخل»، ثم زاد في اتجاه الدفة فاتجهت السفينة شمال شمال غرب.

كنت أهمّ بارتداء ثياب النوم والتمدد على فراشي عندما لحظت حركة غير عادية على السطح، وعلى درابزين السفينة بشكل خاص. هناك كانت يد بشرية ذراعها مفتول،

ويتقاطر منه الماء تتشبث بالدرابزين محاولةً ان تمسك به. ثم تبعتها يد اخـرى مثلها. وفوجئت بما أرى فأخذت أرقب ما سيحدث. اية مصيبة ستقع! لا ادري. غير ان هناك ما لا يسر. وبرز رأس رجل كان مبلولا وشعره قد قف. وسرعان ما تميزت انه رأس وولف لارسن وعيناه. ماذا دهاه؟ كانت وجنته مشقوقة تنزف، وفي رأسه جرح كبير غطى وجهه بحمرة الدم.

وسحب وولف لارسن جسمه بصعوبة من الماء حتى بات على السطح، ثم انتصب قائما وجعل يجول بعينيه في ارجائه. كانت نظراته سريعة فيها وجل ظاهر. وقد القى نظرة على الرجل الواقف عند عجلة القيادة، ربما ليقرر ما اذا كان يأمنه ويطمئن اليه. كان ماء البحر يجري جداول من على لارسن، فأوجست خيفة من ذلك. اين كان؟ ما سبب الدماء التي ينزفها؟ ذاك ما شغلني.

وخـطا لارسن صوب فـراشي الممدود فـانكمشتُ بحكم الغريـزة. هكذا ينكمش الضعيف عندما يخطو صوبه حيوان كاسر. لقد ورثنا ذلك من خبرات اجدادنا القدامى يوم كانوا يقطنون السهوب بعد ان تخلوا عن مساكنهم بين افراع الشجر..

ونظرت اليه حين اقترب. كانت عيناه تصرخان بأن صاحبهما متعطش الى القتل. فارتجف قلبي في صدري، لكني تجلدت ما استطعت، وبقيت متمددا. وقال لارسن:

ـ «انت!همب، لا بأس عليك. اين الريس جوهانسن؟»

انعقد لساني فلم اجب.. فكرر لارسن سؤاله بصوت خفيض موجهاً كلامـه الى هاريسون.

ـ «جوهانسن، اين هو؟»
ـ «لا ادري اين هو يا سيدي. رأيته يسير الى الامام قبل لحظات».
كان صوت هاريسون ثابت النبرة فأدركت ان صاحبه متماسك رابط الجأش.
وقد رد عليه لارسن:
ـ «جئتُ من الاتجاه الذي تشيرُ اليه، لكني لم اره.. كيف تفسر ذلك؟»
ـ «لا بد انك كنت في السفينة يا سيدي؟»
عند ذاك غامرت بالقول:
ـ «هل ابحث عنه في المهجع يا سيدي؟»
فهز وولف لارسن رأسه وقال:
ـ «كلا لن تجده هناك يا همب، لكنك تنفع. تعال معي، لا تهتم بفراشك. دعه حيث هو».

مشيت وراءه. لم يكن هناك ما يثير اية شبهة بين الصواري. وقال لارسن:

ـ"هؤلاء الصيادون الكسالى، عليهم اللعنة، ان الواحد منهم اكسل من ان يقوم بالحراسة ٤ ساعات."

وعند البرج الامامي وجدنا ثلاثة بحارة نائمين، فقلب لارسن كل واحد منهم ونظر في وجهه. كانوا هم طقم حراسة السطح في تلك الليلة، وكانت العادة على ظهر «الشبح» ان ينام الحراس ما عدا الضابط المسؤول عنهم وقائد الدفة، والكشاف. وسأل لارسن:

ـ «من الكشاف؟»

ـ «انا يا سيدي؟ لقد اغمضتُ عيناي هذه اللحظة. أعدك ان ذلك لن يحدث ثانية».

هكذا اجابه هولي اوك، احد بحارة المياه العميقة. فابتسمت غصبا عني من طريقة اعتذاره ومن انتقائه ذلك الاسم: «البلوطة المقدسة».

وسأله لارسن:

ـ «هل لاحظت اية حركة على السطح او سمعت اصواتا؟»

ـ «كلا ابدا يا سيدي».

فأدار لارسن وجهه عنه باحتقار تاركاً اياه يتعجب كيف لم يعاقبه لارسن، واخذ يفرك عينيه بشدة ليتكامل صحوه. وهمس الي لارسن:

ـ «بلطف ونعومة الآن».

لم ادرِ ما عناه من ذلك، فلم اكن اعرف ما سيجري الا بقدر معرفتي ما جرى من قبل. لكني استشعرت عدم الاطمئنان.. فرأس لارسن مشدوخ ولا زال جوهانسن مفقودا.

كانت هذه اول مرة اهبط فيها الى برج السفينة، والذي لن انسى انطباعي عنه ابدا. فهو الحجرة التي يعيش فيها البحارة، وقد جعله بناة السفينة في مقدمتها على شكل مثلث واطىء السقف ضيق كئيب المنظر. هنا كانت أسرة ١٢ بحارا معلقة فوق بعضها البعض في ثلاث جهات، وكانت الاحذية الكبيرة والثياب الوسخة وزقاق الماء الجلدية تجعل ريح المكان اقرب الى النتن. كما كانت حاجيات البحارة منتثرة في كل مكان ورائحة العرق وماء البحر تبعث على التقزز. والأدهى والامرّ من كل ذلك هو ضيق هذا البرج. فقد حشر الاثنا عشر بحارا في مساحة اصغر من غرفة نومي الخاصة وقيل لهم: هنا تعيشون وتنامون. ان اية زريبة لقدان من البقر اوسع من زريبة بشرية لـ ١٢ رجلا يعرقون ليصيدوا عجولا بحرية تدر الذهب على صاحب سفينة الصيد والتجار الذين يعـاملهم. فهل يبقي لدى الرجال آثار من الشعور بانسانيتهم في هذه الحال!! إن واقع الحال ينفي ذلك. من ثم كان من الخطأ ان احاول تفسير سلوكهم باعتبارهم بشرا اسوياء. انهم اشبه بالرقيق في عهود العبودية الاولى، قلوبهم عامرة بالحقد حانقة على القدر القاسي، وعلى الأداة التي تنفذ تلك القسوة. وما هذه الاداة الا صاحب السفينة وزبائنه من التجار، بـل هي ذلك المجتمع القائم على الاستغلال الوحشي لمن يعملون في البحر.

هنا كان الهواء العفن راكدا، والاصوات البشرية خافتة الا حين تثور. وبدلا من ذلك كان صرير الخشب هو المسيطر على موسيقى المكان، تردفه طقطقة الاحذية الثقيلة حين تطرق بالواجهات. وهنا كان ثمانية رجال فقط وجدتُهم لا مبالين بواقعهم التاعس. بل وجدت بعضهم يشخر اثناء نومه المكدود. ولكن هل كانوا نائمين حقا؟ نعم، أنا اسمع صوت الشهيق والزفير منهم كالدواب بعد يوم مضن في حقل تربته صلبة، لكني كنت احس

بان هناك شيئا مصطنعا في ذلك النفَس. وهذا ما كان يحسّه وولف لارسن ايضا. والواقع انه لم يهبط الى هنا ويجرّني معه الا للبحث عن النائمين حقا وعمن يتصنعون مظاهر النوم. مما ذكّرني بقصة للكاتب الايطالي بوكاتشيو في كتابه «دي كامرون» قرأتها منذ زمن طويل.

وأخذ وولف لارسن مصباحا كان معلقا في البرج وناولني اياه قائلا : «سر معي». وعلى ضوء ذلك المصباح جعل لارسن يتفحص أسرة النائمين واحدا واحدا . وكان أول ما تفحّص لارسن بحار يلقبه زملاؤه اوفتي اوفتي، كان مستلقياً على ظهره في نوم عميق راضٍ وكأنه امرأة مسالمة. لقد جعل احدى ذراعيه تحت رأسه والثانية فوق بطانية تغطي جسده. وجسّ لارسن نبض ذلك الرجل من الرسغ، فاستيقظ كاناكا، وهو اسمه الحقيقي. وكان استيقاظه بهدوء تام، وحملق في وجه لارسن. فوضع الأخير سبابته على فمه اشارة اليه بالصمت.. فلم يتكلم كاناكا. وحين تركه لارسن عاد الى النوم من جديد.

وفي السرير السفلي كان يرقد لويس الضخم، المتعرق بشدة بفعل الحرارة، والكثير الشحم وكأنه برميل من الشحمة. وكان نومه مصطنعا.. فحين أمسك لارسن رسغه ليجسّ نبضه انتفض لويس وتمغط بجسده حتى كاد يرتكز على كتفيه وعقبيه وحدهما. ثم انفرجت شفتاه عن اسنان وسخة كبيرة وخرج منهما صوت متكلف فهمت منه :

« الشلن يسوى ربع جنيه لكن ابقِ مصابيحك بعيدة، والا دفعّوك ستة بنسات بدل ثلاثة».

كان النائم في حلم غير مفهوم، فهو يهلوس . لكن نبرة صوته دلت على انه لم يكن نائما فعلا .

ثم انه عدل وضعه ورقد على جنبه وهو يتمتم :

«ست بنسات تساوي زقّا مدبوغا، وثلاثة تساوي قدحا كبيرا، لكن ما هي قطعة «الحصان» لست ادري».

ويبدو أن لارسن اقتنع من تمتمة لويس ان الرجل نائم حقا، لذلك تركه وانتقل الى سريرين آخرين كان في احدهما ليش وفي الثاني جونسون.

وحين انحنى على السرير السفلي ليجس نبض جونسون رأيت رأس ليش يرتفع متسللا من تحت بطانيته الى مستوى حافة السرير ليتطلع الى ما يجري. لا بد أنه ادرك ما يقصده لارسن من التحري على صدق نوم النائمين. ففي تلك اللحظة قذفتْ ضربة من يد ليش بالمصباح من يدي وعم البرج ظلام دامس.

كانت الأصوات الأولى التي سمعتها الآن جلبة عراك هائج بين ثور وذئب: جعرةً من الألم صدرت عن لارسن، وزعيقا يجمد الدم صدر من ليش. هكذا اذن. كان المظهر الوديع الذي بدا فيه ليش بضعة الأيام الأخيرة جزءا من خطة مدروسة للتضليل والمخادعة.

ولقد استولى عليّ الرعب والفزع من هذا العراك في الظلام، فانسللت الى جهة السلم ووقفت عند الدركة الأخيرة. وهناك هاجمني ألم المغص الشديد، يزيد من حدته توقّعي ان

تنالني ضربة طائشة من احد الوحشين المتصارعين. كان هذا المغص يدهمني حين ارى وحشية العنف الجسدي في القتال، لكنني الآن ما كنت ارى شيئا في ظلام البرج وانما أسمع فقط. فهل انتقل تأثير الصوت الى العين! هذا عجيب. لكنّ حواس الانسان تتبادل الاحساس والتأثر، وهذا ما حدث لي الآن، فزحفت الى سرير فارغ تكوّمت فيه .

كنت اسمع صوت انسحاق اللحم البشري، وصوت ارتطام الجسدين والأنفاس المسحوبة تحت ضغط المهاجم العنيد من كليهما. انها انفاس الحياة والموت معا، حياة تكاد تقضي على حياة فتجاهد الأخرى لتقضي على مهاجمتها. انها المادة المتحركة تود أن تضيّق مجال حركة بعضها .

وبدا لي أن أكثر من رجل واحد كان متآمرا للقضاء على لارسن وريّس البحارة جوهانسن، اذ أن اصواتا كثيرة انضافت الى ليش وجونسون. ها هو احدها يصرخ:
ـ « هاتوا سكينا ».

وعرفت فيه صوت ليش، لماذا السكين؟ ليطعنوا لارسن؟ كلا، وانما ليذبحوه من الوريد الى الوريد.. او ليمزقوا احشاء جوهانسن. وعلى ذلك ردّ صوت آخر:

ـ «لا ، اسحق رأسه ، انثر نخاعه بضربة قاضية .»

والواقع انني لم اسمع صوت لارسن أبدا، فبعد ان جعر من الألم أول مرة لزم الصمت. كان الذئب حكيما، فلم يُرد ان يعرف خصومه اين يقف في الظلام. ولا بد أنه تلقّى عدة ضربات موجعة لكنه ظل ساكتا خشية أن يتلقى اكثر واشد.. هذه خطة مقاتل متمرس، ومثلها تفعل الذئاب في القطيع الجائع خشية أن تفترسها رفاقها.

ومع ذلك.. فقد شعرت أنه لا أمل له في الخروج حيا. فهو يواجه الحقد الأسود والقوة القادرة على البطش. أنى له أن يصمد لمؤامرة مرسومة للتخلص منه! غير ان «الذئب» لا يستسلم ابدا. كان يسمع :

ـ «كلنا جميعا. لقد امسكناه. امسكناه. ازهقوا روحه.»

ـ «من الذي وقع؟»

وكان هذا الاستفسار من قبل بعض النائمين الذين ايقظتهم ضجة العراك.

وجاء جواب ليش:

ـ «انه ريس البحارة، جوهانسن».

وثارت زوبعة من صيحات الفرح، فقد كان الريّس مكروها. لكن هل كان ليش يمسك جوهانسن فعلا او انه يضلل رفاقه في التمرد ليتم القضاء على لارسن باعتباره جوهانسن! هذا ما قدّرته من صوت ليش، فقد كان فيه نغمة مخادعة.

وسمعت لاتيمر يصرخ من على السطح:

ـ «من هناك؟ ما هذا الصوت في البرج؟»

كان هذا ادعاءً منه بعدم المعرفة. والواقع انه كان يعلم ان المعركة في جحيم البرج محتدمة الأوار. لذا لم يجرؤ على الهبوط، إما عزوفاً عن الاشتراك في القتال او رغبة في أن

يباشر دوره فيما بعد . ففي البرج كان سبعة رجال اشداء فوق لارسن يلكمونه بكل ما في نفوسهم من حقد ورغبة في الانتقام، وكان هو كالفهد الجريح الذي يحاول التملص ليعيد الوثوب اذا استطاع ذلك.

وندّ صوت لم استطع ان اميزه:

ـ « هاتوا السكين ، حزوا حلقومه . اليس هناك سكين ؟ »

ربما كانت كثرة المهاجمين هي العامل الفعال في انسحاب لارسن حيّا، فقد كانوا يسد بعضهم طريق بعض. وربما كانت اللكمات تنهال على رأس او صدغ بعضهم بعضا أيضا، فالبرج غارق في الظلام والمساحة ضيقة، وروح الانتقام مكشرة عن أنيابها.

كان هم لارسن آنذاك ان يزحف بأية طريقة الى اسفل السلم. وقد فعل. ويستحيل ان يفعل ذلك رجل هو اقل من مارد عملاق. وحين وصل ادنى درجة منه لحقته شلة المتآمرين ..لكنه بمجرد ان وضع قدمه على الدرجة صار في الوضع الأفضل والمركز الأقوى. لقد حاولوا ان يجروه ثانية الى ارضية البرج لكنه بعضلات ذراعية الفولاذية استطاع ان يطرحهم ارضا ويصعد الى الدرجة الثانية. وعاودوا الكرة، لكن لارسن كان يكسب درجة واحدة كل مرة فيصعدها. وحين غدا قريبا من الدرجة العليا شاهدت لاتيمر يأتي بمصباح من على السطح ويدليه جهة السلم قائلا:

ـ « من هناك ؟ »

عند ذاك ايقنت ان لاتيمر لم يكن احد المتعاونين مع ليش وجونسون، وعلى ضوء مصباحه شاهدت لارسن المكدؤد وسمعته يجيب:

ـ « أنا لارسن يا لاتيمر » .

مد لاتيمر يده ليسحب لارسن الى أعلى، لكن الرجال كانوا يمسكون رِجليْ عدوهم محاولين سحبه الى أرضية البرج. واخيرا قذف لارسن ذراعه في الهواء فأمسك يد لاتيمر الممدودة.. وجعل يركل خصومه بساقيه وقدميه فيدفعهم بعيدا عنه ليقعوا على درابزين الدرج. وقد نجح في ذلك، حتى انه اختفى عن نظري هو ومصباح لاتيمر. لقد صعد الى السطح، أما أنا والبحارة الآخرون فقد ظللنا في البرج يغمرنا الظلام المتوتر.

الفصل الخامس عشر

كان هناك سباب وأنين حين ارتطم الرجال بأرضية البرج. وسمعت أحدهم يقول:

ـ « ليشعل احدكم عود ثقاب. ابهام قدمي قد انفك».

كان ذلك صوت بارسونز قائد القارب الذي يخدم هاريسون مجدفا فيه، وكان لئيما حاقدا. واجابه ليش من على السرير الذي كنت اختبىء فيه طوال القتال:

ـ «سوف تجده بالقطعة. فتش عليه».

وجيء بعود ثقاب، وتم اشعال المصباح البحري الواهن الكثير الدخان. وعلى ضوئه جعل البحارة يضمدون جروحهم ويتحسسون الرضوض الكثيرة في وجوههم وابدانهم. وقد لاحظت ان وسطى اصابع كاناكا كان لحمها مشققاً يَبين منه العظم. هكذا عَرَضها الرجل غير متقزز من المنظر ومبديا اسنانه البيضاء الجميلة وهو يتكلم قائلا:

ـ «عضني لارسن حين لكمته في فمه».

فرد عليه صوت عدواني متشنج قائلا:

ـ «اذن كنت انت، ايها الشحاذ الأسود!»

كان المتكلم هذه المرة هو «كلي» البحار الايرلندي الأميركي مجدف قارب الصياد كيرفوت. ثم اكمل:

ـ «لقد لكمتَني فأنشبت انيابي في يدك. كنت اظنني نلت من لارسن اللعين». ثم بصق «كلي» دما وبضعة اسنان تخلعت من فمه، ونظر الى كاناكا نظرة غريبة، فوثب كاناكا الى سريره حيث استخرج سكينا طويلا حادةً جعل يلوّح به. وقدّرت ان تلك السكين ستنغرز في بطن كلي بعد لحظات، ولربما كان ذلك سيحدث لولا ان تدخل ليش بحزم. قال:

ـ « كيف يستطيع ان يميزك في الظلام يا كلي؟ لقد لكمك لأنه لا يراك. اخرج يا كلي ولا تواجه كاناكا».

وخرج كلي راضخا. وابتسم كاناكا بامتنان الى ليش، فقد كان فعلا يود حسم الخصام. وكان كاناكا هذا رجلا وسيما اقرب الى نعومة المرأة من حيث تقاطيع وجهه، في عينيه الكبيرتين ما يوحي بأنه رقيق حالم.. وذلك على النقيض مما عرف عنه بين رفاقه من قسوة وسرعة في الأداء.

وسأل جونسون رفاقه الحاضرين:
- «كيف استطاع ان يتملص؟ذلك اللعين؟»
كان يجلس على طرف سريره، قميصه ممزق ووجهه منتفخ، وهناك شق كبير في وجنته ينزف دماً سالَ على صدره العاري وفخذه التي بانت من سروال مقطع مشقوق، فكانت نقط الدم تتقطر من ذلك الجرح على الأرض. وأجابه ليش:
- «استطاع الذئب ان يتملص لأنه «شيطان»، ابليس خبيث، كما قلت لكم من قبل».
وبدت في عينيه خيبة الأمل والاخفاق حتى لمعت فيهما الدموع. ولا عجب! فقد جهد في تدبير التمرد مع جونسون والآخرين، وبذل كل ما استطاعه في سبيل التخلص من لارسن.. لكن الأخير قد نجا وما اسرعَ أن يعاقب خصومه بقسوة. ثم قال ليش:
- «عليكم اللعنة، لا أحد يجلب سكينا! لو فعل أي منكم ذلك لانتهى الأمر.»
وساد السكوت. ربما كانوا جميعا يفكرون في عاقبة فشلهم وما سوف يلقونه من عقاب... وقال أحدهم عرفت فيه كاناكا:
- «كيف يدري من الذي هاجمه أو لكمه دون أن ينز من أحدنا وشاية بذلك؟»
فأجابه كلي:
- «سوف يعرف بمجرد ان تقع عيناه علينا. إنه شيطان لعين. كيف ابرّر اسناني المقلوعة؟»
- «قل له ان درابزين السطح هو الذي فعل ذلك حين وقعت عليه دون انتباه».
هكذا قال لويس الذي لم يغادر سريره اثناء القتال، فهو يزهو بأنه لا يعاني من أية رضوض. ثم اضاف:
- «انتظروا حتى يراكم، جميع الشلة المتفقة ضده».
- «قولوا انكم ظننتم أن ريس البحارة جوهانسن هو الذي تؤدبونه».
- «انا سأقول: كان البرج مظلما وتلقيت لكمة على فكي من شخص ما فجعلت اضرب ذلك الشخص دون أن أدري من هو.»
- «اذن أنا الذي كنت تضربني..»
وكان هذا المتكلم الأخير هو كلي مرة ثانية.
لم يشترك ليش ولا جونسون في هذا العراك الكلامي الطويل، وبدا لي ان رفاقهما كانوا ينتظرون لهما اسوأ عقاب: الموت، الخاتمة الوحيدة لكل منهما. وقد ادرك ذلك ليش وازال مخاوفهم لفترة، ثم انفجر قائلا:
- «كلكم جميعا تبعثون على القرف. شلة من الإمّعات الثرثارين. لو تكلمتم اقل وفعلتم اكثر لكان الشيطان قد استقر في الجحيم الآن. بُحّ صوتي وانا اصرخ سكين سكين، وتكسرت ايديكم فلم يأت احدكم بنصلة. ها أنتم ترتجفون فرقا وكأنه سيذبحكم ويسلخكم. اطمئنوا أيها الأخسّاء: انه لن يفعل. هو لا يتحمل أن يخسر ايا منكم.. لا

مجدفين ولا قادة قوارب متوفرون في هذه الرقعة من البحر.. وهو متعاقد على الصيد !! انه لن يفرط برزقه. أنا وجونسون هما اللذان سيواجهان انتقامه. اذهبوا الى اسرّتكم وادفنوا وجوهكم فيها.»

وبدا ان هذا اقنع بارسونز فقال :

ـ «نعم، نعم. انه لن يسبب لنفسه خسارة فقدان احد، فهو عاجز عن توفير البديل. لكن.. تذكروا كلماتي هذه.. سيكون قاسيا جدا في تصرفاته معنا من الآن فصاعدا. تذكروا ذلك.»

طوال هذا الجدال وأنا مختبىء لم يشعر بي أحد، وأنا أفكر: كيف بالله سأخرج من البرج!؟ انني لا أستطيع أن أشق طريقي الى السلم بالقوة كما فعل لارسن، فلست من وزنه، ولا امتلك العنف الذي انجاه. كذلك لا أستطيع تبرئة ذمتي من أنني في خدمته، فهم لا يدرون انني معهم!! وقد يظنون انني سأنقل اليه كل ما سمعت.. فمن الحكمة لديهم أن يتخلصوا من شاهدٍ ضدهم. كنت ارتجف خوفا لكني عاجز عن الاهتداء الى طريق.

في هذه اللحظة من الضياع سمعت صوت لاتيمر على السطح يصرخ :

ـ «يا همب ! العجوز يريدك.»

فرّد عليه بارسونز:

ـ «ان همب غير موجود عندنا.»

وقلت دون ترو على الاطلاق:

ـ «بلى، انه هنا.»

ونظر البحارة كل منهم الى الآخر بدهشة، وظهرت امارات الخوف على وجه كل فرد منهم. «اذن فالجاسوس وسطنا!» ربما كان هذا هو الذي فكروا فيه. وصحتُ من أسفل:

ـ «ها أنا صاعدٌ اليك يا لاتيمر.»

ـ «لن تصعد.»

هكذا انتهرني كلي وعيناه تقدحان شرراً . ولاحظ ذلك ليش فنهر كلي بحزم:

ـ «دعه يذهب.»

ـ «كلا . وأنت حي.»

وبدا الحنق على وجه ليش، تزحزح من جلسته على السرير ونظر الى كلي:

«قلت : دعه يذهب.»

ورضخ الايرلندي الأمريكي مكرها، فمشيت صوب السلّم. حتى اذا كنت على الدركة الأولى منه تطلعت في وجه البحارة المتجمعين في البرج وقلت:

ـ «أنا لم أسمع شيئا مما قلتم. ثقوا من ذلك.»

كنت اقصد ان اطمئنهم انني لن اقوم بالوشاية بأحد، كما أنني لست جاسوسا عليهم عند لارسن.

وسمعت ليش يقول معلقا على ذلك:

ـ «اطمئنوا، انه نظيف. انا أكفل ذلك.»

ارتقيت السلم الى السطح، وهناك وجدت لارسن في قمرته. كان يعاني من جراح وهشوم وسحجات كثيرة بعضها ينز دما وبعضها قد تخثر دمه فيه. وقال:

ـ «تعال يا دكتور، باشر مهمتك. ستحظى بتدريب طبي جيد في هذه الرحلة. هكذا تشير الدلائل. كيف كانت «الشبح» ستدبر امرها دون خدماتك الثمينة! لست ادري، لكن قبطانها سيظل ممتنا لك.»

كان في صوته نبرة من السخرية المقنّعة هذه المرة لكنّه يحاول جاهدا ان يمد جسور الألفة بيني وبينه من جديد. وسارعت الى صندوق الاسعاف في السفينة والى النار في المطبخ حيث جئت بالماء الساخن وبعض خرق التضميد، ثم باشرت فحص الجروح والكدمات واخذت اعالجها قدر ما أستطيع، فأنا لست طبيبا على الاطلاق.

واقتضت ظروف المعالجة ان يتعرّى لارسن فتجرد من ملابسه. وحين نظرت الى تضاريس جسده استحوذ علي الشعور بالذهول من روعة النحت في ذلك الجسد. كان الرجل اقرب الى تناسق التمثال الاغريقي! انني لم اثمّن جمال اللحم البشري في حياتي على الاطلاق، لكن همفري ذا الحس الجمالي الأصيل هو الذي طغى عليّ في تلك اللحظة. لقد انكسف الطباخ همب وبرز الى الوجود همفري فان ويدين المثقف المرهف الحس من جديد..

سبق ان استرعت انتباهي اجسام البحارة في البرج بعضلاتهم المتينة النافرة، لكن ايا منهم لم يكن كامل التناسق. كان فيه عيب ما: عضلة غير نامية بالقدر الكافي، التواء غير لطيف في ناحية ما، دقة في عظم الساق، او قصر في عظمة الفخذ، اتساع في الحوض، او حنفٌ في القدمين. نعم كانت خطوط جسد او فتي اوفتي جميلة لكن فيها نعومة انوثة.

أما وولف لارسن فقد كان انموذجا للرجل الذكر ـ الكامل كأنه إله. فعندما كان يدير جسده أو يرفع ذراعه كانت عضلاته تبرز تحت جلده في تناغم اقرب الى لحن موسيقي. كان بدنه ابيض ناصع البياض أحلتَ املس كأنه امرأة. شكراً لأصله الأسكندنافي على ذلك. ولا زلت اذكر كيف رفع ذراعه ليتحسس الجرح الذي في رأسه.. لقد نفرت العضلة ذات الرأسين في ذراعه تلك في حركة منسجمة، وكانت صلبة مثل نابض فولاذي في غمد ابيض.

وأنا أذكر هذه العضلة جيدا، فقد كادت تزهق أنفاسي في يوم من الأيام. والآن.. كنت أمسك في يدي لفة من القطن المعقم وفي الأخرى سائلا مطهّراً، لكني لا اطهر الجرح وانما أقف مشدوها أمام وليمة تناسق الطبيعة في جسده. ولاحظ لارسن ذلك. وادركت انه لاحظ فقلت:

ـ «لقد أحسن الله صنعك.»

ـ «هل فعل؟ طرقتني هذه الفكرة أحيانا وكنت اعجب لماذا.»

ـ «الغاية من ذلك..»

ـ «لا. المنفعة والاستخدام.»
هكذا قاطعني لارسن ثم استطرد:
ـ «لقد وُجد هذا الجسد لاستخدامه: العضلات للقبض والامساك والتمزيق وتدمير الأشياء الحية التي قد تحول بيني وبين أن اظل حيا. لكن هل فكرت يا همب في الأشياء الحية الأخرى؟ ان لها عضلات أيضا وهي للقبض والامساك والتمزيق وتدمير غيرها، لكني اتغلب على عضلاتها فأقبض عليها وامزقها وأعدمها الحياة. ان الغاية التي تود الحديث عنها و«الحكمة العليا» لا تفسر شيئا من الواقع. ان الانتفاع والاستخدام وحده هو المقنع في هذه الحال.»
ـ «ان مبدأ النفعية غير لطيف.»
ـ «اذن انت تقول: الحياة غير لطيفة. فالنفعية هنا هي الاستخدام الأفضل طلبا للبقاء، ومع ذلك تقول: لقد صُنعت باتقان. انظر.»

وضغط لارسن بقدميه واصابعهما على أرضية الكابينة فتعقفت اصابعه وكأنها براثن أحد الجوارح، وتوترت عروقه مثل أسلاك مشدودة، أما عضلات أعلى قدميه وعرقوباه فقد تصلبت وكأنها قُدّت من صخر غرانيتيّ أسود. وقال:
ـ «جسّهما.»

تحسست ذلك، فوجدته مثل ما لحظته قبل ان تمر اصابعي عليه. لكني بالتحسس لاحظت ان جسده كله قد توتر. كانت كل عضلة في جسمه خاضعة لقوة ماصّة «قوة شفط» أكسبتها وضعا محددا فيه تحفّز للوثوب. فعضلات اسفل بطنه تجمعت متعجرة عند حقويه، وارتفعت عضلات خاصرتيه الى صدره حيث اتصلت بصخرة عضلات الكتفين، وبحبال الياف مجدولة من الأنسجة في عضلات العنق وقفا الرأس. كانت كل عضلة في جسمه قادرة على القبض والتشبث بما تقبض عليه. ان فيها طبيعة ماصة مثل ضغط المخالب. كل هذا دون ان يبذل وولف لارسن جهدا ملحوظا في اتخاذ هذا الوضع! فهل ترى تتمثل فيه غريزة التيقظ والحذر التي كانت سائدة لدى اجدادنا في غابات ما قبل التاريخ!! وقال لارسن:

ـ «انه الثبات والاتزان.. القدمان للتمسك بالتراب الذي تقفان عليه، والساقان للانتصاب، واليدان والأسنان والأظافر للقتال، تحطيم الغير والنجاة من أن يحطمني الغير. هذا هو الانتفاع والاستخدام، وهي كلمة افضل من «الغاية» و«الحكمة» لأن ذلك كلّه كلام اجوف.»

لم أناقش رأيه، فالشاهد الصادق امام عيني. إنه جسده الذي ينطق فصيحا بسمات «الوحش المقاتل» استبقاءً للحياة، لا بتصورات وجود «غاية» سامية وراء هذه الهندسة. فالهندسة ذاتها اداة لخدمة البقاء.

والحق انني شعرت بشيء من الزهو في أن أضمد جراح صاحب هذا الجسد اللحن، وبقدر من الاعتزاز بالجهود التي بذلها حتى نجا من مجزرة اكيدة له في البرج. تُرى هل

كان صاحب اي مبدأ غير «صراع البقاء» في الحياة كفؤا لأن يحفظ حياته رغم مخالب وحوش البرج في «الشبح»؟

تابعت تضميد جراحه: فقطبتُ جلدة رأسه دون حاجة الى أي تخدير.. لم يشكُ، ولم تندّ عنه آه واحدة، انما كان يصر أسنانه حين أغرز الابرة وأشد الخيط. ثم انتقلت الى عبلة ساقة.. وكانت ممزقة وكأن كلبا مسعوراً قد نهشه فيها اكثر من مرة. ومع ذلك قمت بقص التشوّهات الجلدية وخياطة فم الجـروح والرجلُ مـطرق ينظر الى البحـر كأن الطبيب المتدرب يقص لحم رجل غيره.

وبدا انه قد سر بعملي، فلما فرغت من العناية به قال:

ـ «اسمع يا همب. أنت رجل حاذق اليد. وانت تعلم أنني في حاجة الى ريّس بحار. من هذه الساعة ستكون ريساً، تقوم بنوبة حراسة وتصدر اوامرك للآخرين. ويكون راتبك ٧٥ دولاراً شهرياً. سيكون اسمك: السيد فان ويدين»

ـ «لكني لا اعرف من فن الملاحة شيئاً.»

ـ «ليس ذلك ضرورياً. أن مرؤوسيك يعرفون كل شيء.»

ـ «أنا أكره المراكز والمناصب وراضٍ تماما بوضعي الحالي.»

وكشّر وولف لارسن وهو ينهض قائلاً:

ـ «قم الى عملك يا سيد فان ويدين. باشره فورا يا ريس. مع السلامة.»

الفصل السادس عشر

لست ازعم أن منصب «ريس البحارة» قد انطوى في حالتي الخاصة على اية متعة غير التخلص من غسل الأطباق وجلي القدور. ولولا تعاون البحارة وخاصة لويس ـ لكان عملي الجديد نكتة بحرية لا أكثر. فأنا لا أعرف واجبات الريس ولا متطلبات مركزه على الاطلاق، بل ولأكن صريحا، لا أعرف واجبات البحار النفر! لذلك كان لويس صبورا في ارشاده لي وتعاونه معي.. كان هو الريس الحقيقي وانا ظل الريس. اليست هنالك في بعض البلدان حكومة قائمة وحكومة ظل! هكذا كان الحال على ظهر «الشبح».

واختلف الحال مع فريق الصيادين، فهؤلاء خبراء في مهنتهم يتقنون فن الملاحة وفن الصيد معا، وها «جاهل» من أهل «البر» يرئس سفينتهم في مهمتها وارواحهم في يده! من ثم نظروا الى «ريس البحارة» الجديد على أنه مجرد نكتة قائمة في الواقع كان ينبغي ان تظل مقتصرة على وجودها في الخيال. لقد عاملوني باستخفاف.. والواقع ان الحق معهم، فقد كنت أنا نفسي انظر الى منصبي الجديد باستخفاف ايضا. أنّى أن اتقن التعامل مع الحبال والقلوع وتجهيزات بكرات الأشرعة وعراضات قلع الدقل والصاري الرئيس، وخطافات القوارب المعلقة!

هنا جاء دور وولف لارسن.. فقد كان يحدد لي الواجب المطلوب لسير العمل بصورة لطيفة اقرب الى التنبيه الذكي منها الى الأمر الواجب التنفيذ. كان يقول «يا سيد فان ويدين.. الا تأمر بشد حبال الشراع..» ويقول ذلك على مائدة العشاء مثلا، فأهرع الى السطح حيث استوضح من لويس كيف يتم ذلك. ويشرح لويس ما يجب عمله، حتى اذا استوعبته باشرت اصدر التعليمات اللازمة في تلك الحال. ويتعاطف معي المرؤوسون فينفذون. وهكذا أبدو وكأني املأ مركزي بجدارة واتقان.

ولقد حضر وولف لارسن اصداري التعليمات المطلوبة ذات مساء فأعجبه ذلك واخذ يتمشى معي على سطح السفينة مسرورا من الموقف، وقال:

«اهنئك يا همب، آسف يا سيد فان ويدين، فأنت لا تحتاج كثيراً حتى يغدو بوسعك ان تقوم بقيادة اية سفينة صيد مماثلة. ان بضع عواصف وتمرداً أو اثنين وجنوحا واحدا تنجح في معالجتها ـ تكفي لأن تخلق منك ريسا كفؤا. الآن يا سيد فان ويدين بوسعك ان

تقول: انا أمشي على ساقيّ. ردّ ساقي والدك اليه، فقد كبرت عن الحاجة اليهما وغدوت تمشي بمجهودك الخاص، وفي طريق انت تشقه بجهدك لا بوراثتك.»

والحق، ان هذه الأيام المعدودة بين موت سلفي جوهانسن وامتلاكي زمام المهنة كريس للبحارة ـ كانت احسن ايام قضيتها على ظهر «الشبح»، ذلك أن لارسن يساندني،والبحارة متعاطفون،وانا اكسب معرفة جديدة كل يوم وامارس خبرة جديدة. أنا الآن في حالة من الاستقرار، أحاول أن أشبع غريزة تحقيق الذات في نفسي وفي ظروف مواتية جدا. حتى ماكريدج الطباخ الحقود تجاهلتُ مشاكساته، وترفعت عنها. ألستُ ثاني رجل في السفينة بعد وولف لارسن!

ولقد بت اشعر بنوع من الحميمية بيني وبين سطح «الشبح» وانا اجتازه رغم الارتجاج الدائم ، وآمر بتوجيه عجلة القيادة غربا ثم الى الشمال الغربي كي نعرّج على جزيرة صغيرة نملأ براميلنا من ينابيعها .

غير ان هذه الفترة الرخية من الحياة لم تكن هناء خالصاً، فقد عكر صفوها ذلك الشعور بالاشفاف على عناء البحارة في السفينة. اذ أن وولف لارسن لم ينس محاولتهم ان يقضوا عليه، فأرهقهم بالعمل ليل نهار ولم يترك لهم لحظة للراحة، ومن شأن ذلك ان ينعكس عليّ أنا.. مساعده الجديد!

كان وولف لارسن يتقن فن المضايقة والازعاج ويدرك ان استمرار التنكيد مع استمرار العجز عن ازالته يحطم النفس البشرية ويخلق فيها القرف المفضي الى اليأس والعذاب. وكان يركّز على السفاسف،فهو يستدعي بحارا في منتصف الليل ليطلب منه أن يغير مكان فرشاة للدهان نسيها على السطح. ثم يوقظ حارسين من نومهما ليرافقا البحار في نقل الفرشاة من موضع الى موضع.

وتتكرر هذه المضايقات كل يوم بخطة مدروسة متعمدة: لارسن يود الانتقام والرجال عاجزون عن التصدي له في ذلك.

ومن الطبيعي ان ينشأ تذمر، وان تحدث انفجارات صغيرة بصورة مستمرة احتجاجا على ذلك، ويكون الجزاء لكماتٍ قليلة او كثيرة من قبضة لارسن التي تفرض النظام. لم تكن هناك امكانية للتمرد الناجح، اذ أن الصيادين لن يشتركوا فيه كما ان الأسلحة المتوفرة في قمرة لارسن ستفتك بمن يحاول ذلك. ومن الطبيعي ايضا أن يكون ليش وجونسون هما الهدفين اللذين توجّه إليهما سهام الانتقام، لذا بتّ أرى علامات الذلة والمهانة بادية على وجه جونسون، وسمات الحقد المكبوت تلوح في كل نظرة من ليش. لقد التوت شفتاه وصارتا تبديان تكشيرة ماكرة يعجز ليش عن لجمها كل مرة، فيزمجر ويتوعد. انه رجل تتملكه غريزة القتال المتوحش اليائس لكنه لا يجد لها متنفسا في غير تضخم حنجرته، وزم شفتيه، وجحوظ عينيه. يا له من معذب تاعس!

وإن أنس لا أنسى مرة قبيل الظهيرة اقتربت منه ووضعت يدي على كتفه من الخلف. كنت اود ان اطلب منه القيام بعمل ما، لكن مجرد لمس يدي لكتفه دون أن يراني

اوهمه ان يد لارسن هي التي تلمسه ـ فاستفزّه ذلك ووثب الى الامام ثم استدار متحفزا للدخول في معركة. وإني لاذكر فجأةَ وثوبه وتغير سحنته قبل ان يدرك خطأ تقديره. كان يكره لارسن ويتوقع منه كل شر، فتظل نفسيته قلقة للرد على هجوم منه لا يدري متى يقع ولا أين يقع. لقد استقر ذلك في اللاوعي عند ليش فغدا هذا الهاجس في قوة الحقيقة الصلبة. كل ذلك مع ان لارسن أحكمُ من أن يهاجم بغتة ودون سبب، اذ أنه يلذه الانتصار وعرض قوته بعد انذار الخصم، لا الغدر ولا اختلاس الفرصة.

وقدّرت ان ليش وجونسون مصممان على قتل لارسن عندما تلوح أول فرصة. بيد أن تلك الفرصة لم تأت ابدا. فالريس العجوز اذكى من ان يسمح بها كما أن سلاحه اقوى من سلاحهما معا. وما ذلك السلاح الا عضلات كل من الثلاثة.

لم يكن يظهر ليش على السطح الا وتنفتق الأرضية عن جونسون، وذلك كي لا يتفرد لارسن بأي منهما. وكثيرا ما بدأ ليش العدوان في تلك الحال. فقد رأيته مرة يقذف بسكين حاد على لارسن لتحزّ عنقه،غير أن الضربة اخطأت انشا واحدة عن حلقوم لارسن. كذلك اسقط ليش قضيباً فولاذيا ثقيلا ذا ثلاث شوكات من أعلى الصاري على رأس لارسن لكن الأخير انزاح في اللحظة الحرجة فانغرزت الشوكات الى عمق بوصتين في خشب السطح. ومرة ثالثة جاء ليش بطلقة من كحل البارود وخرج من البرج قاصدا قتل لارسن غير ان كيرفوت أمسكه وجرده من سلاحه.

وكثيرا ما تساءلت: لماذا لم يقتل لارسن خصمه ليش مع انه يعرف كل محاولاته، ويدرك انه لا بد مؤذيه على حين غرة!! لماذا ضحك ساخرا بعد كل محاولة! أتراه ينتشي بمواجهة الخطر ام انه كالحيوان الكاسر يتلذّذ بتعذيب فريسته قبل قتلها! وسألته مرة عن ذلك فقال:

ـ «في ذلك نشوة تهب الحياة متعة وقدرا. هذا ما يسمّونه «حياته على كفه». فالانسان بطبعه مقامر، وأكبر نرد يقذفه على طاولة القمار هي حياته نفسها. وكلما كانت المخاطرة اعظم كانت المتعة اكبر. لماذا احرم نفسي من متعة إثارة ليش الى درجة الحمّى!؟ انني اقدم له خدمة حين افعل ذلك، فانا احرق الخبَثَ كي يصفو الجوهر فيه كرجل، كقطعة متوثبة من الحياة! والشعور بالسرور متبادل في تلك الحال بيني وبينه: هو يتجوهر وانا كذلك. هذه هي طبيعة الحياة.

فبمحاولة قتلي وارادته ذلك يحيا ليش اكثر من اي رجل على ظهر هذه السفينة. ان له هدفا يسعى اليه، وما دام له هدف وضعته ارادةُ الحياة فيه ـ فهو حي ناشط. وستظل حياته ناشطة ما دامت تسعى في الوصول الى هدفها. بذلك يبقى ليش حيا حقيقة الحياة. بل اني احسده يا همب احيانا عندما اراه متوقد الارادة يغلي في داخله لتنفيذ هدفه. ألست معي في ذلك؟»

ـ «كلا، لأن في الأمر خسة. فانت الاقوى، وتعامله بنذالة وجبن لانك تستغل تفوقك عليه».

ـ «انت وانا، اينا الاكثر جبنا والأشدّ نذالة!؟ اذا كان الموقف كريها في نظرك فانت تسلك مسلكاً تصالحيا مع ضميرك حين تجعل من نفسك فريقا فيه. ولو كنتَ رجلاً حقا، صادقا مع نفسك ـ لكنت انضممت الى ليش. فالحياة التي فيك تصرخ طالبة ان تبقى، دون النظر الى الثمن الذي يفرضه ذلك البقاء. وهكذا تعيش وتبقى ـ لكن دون كرامة، وبخيانة أعزّ ما تحلم به خاطئا بالنسبة الى ضميرك. ولو كان هناك جهنم لكنت تسير اليها مباشرة دون تأخير. هذه حالك يا همب. اما انا فأسلك سلوكا اكثر شجاعة ونبلا.

انا لا اقترف مثل هذه المعصية، كلا، فانا اتصرف بصدق مع دوافع الحياة في هذا الجسد. انا مخلص مع نفسي على الاقل وهذا ما ينقصك انت».

اصغيت الى مقالته وتدبّرت معانيها فوجدت في كلماتها جِمةً لاسعة هي آثار من الصدق فيها. فقد اكون فعلا اتصرف بجبن. وكلما امعنت النظر في تلك العبارة وجدت انه من واجبي حقا ان انضم الى ليش وجونسون في محاولة اهلاكه. لكن لماذا يدلني هو على الطريق؟ اليس هذا عجيبا! ما الغرض الذي يرمي اليه!!... قلبت الامر على وجهه، وعند ذاك عدت الى صلابة اجدادي القدامى ونزوعهم الى القسوة في اتخاذ القرار وجزمتُ ان الجريمة نفسها شيء مقبول سلوكيا ما دامت الغاية نبيلة. لماذا لا أعين ليش وجونسون في التخلص من هذا الوحش، واراحة العالم من شروره؟ ذلك هو القرار الاخير.

ولقد عذبني تبرير هذا القرار وأرّقني ليالي طوالا. كنت اظل اروز الموقف واروز احتمال النصر ايضا. وقد تحدثت في ذلك الى ليش فراعني جوابه. كان فيه واقعية حكيمة وتقدير صائب. لقد قال:

ـ «اسمع يا سيد فان ويدين، الموقف يائس، فانا وجونسون لا شك هالكان ولن ينفعنا في ذلك ان تهلك معنا ايضا. خلّ تعاطفك معنا لنفسك ولا تنطق بكلمة. اجتر غضبك دون ان تبدي حقيقتك. قد ينفعنا عدم اتخاذك موقفا معلنا، اذ تستطيع ان تقدم لنا خدمة في يوم من الايام».

في تلك الليلة هاجم لارسن ليش بعد ان هاجم جونسون واذل كل واحد منهما، وبعد فض القتال خاطب ليش قائلا:

ـ «انت توقن يا ليش انني قاتلك في يوم من الايام. الست متأكدا من ذلك»؟

فزمجر ليش في رده على السؤال الغريب. ثم استدار لارسن الى جونسون وقال:

ـ «وانت يا جونسون.. سوف تقرف حياتك فتلقي بنفسك الى السمك ـ لن يكون ذلك بعيدا».

وأخيرا التفت الي وهمس:

ـ «ذلك ايحاء مني اليه، واراهنك انه سينفذه. والرهان مرتّب شهر كامل».

آلمني ذلك بطبيعة الحال وصرت اتمنى ان يدبرا امر فرارهما اثناء رسونا في الجزيرة الصغيرة لنتزود بالماء العذب. لكني ما كنت اجرؤ ان أُسِرّ لهما بذلك. كما ان

لارسن اللعين فطن الى احتمال ما فكرت فيه فاختار موقعا للرسو يستحيل منه الفرار. لقد ابقى السفينة على مسافة ميل واحد من خط الشاطىء. وكان الموج عاليا والشاطىء صخريا فلو حاول اي منهما الفرار لهلك قبل ان يبلغ البر. هذا من جانب. ومن الجانب الآخر انه كلفهما بدحرجة البراميل الملأى من مصدر الينبوع حتى الشاطىء، وراقبهما مراقبة صارمة، كما ابعد قوارب الصيد عن متناول اليد... ولن يهربا بطبيعة الحال دون قارب.

واذا كان ليش وجونسون قد عدما الفرصة للهرب، فقد واتت تلك الفرصة هاريسون ورفيقه كلي، اذ انهما كانا يقومان بنقل البراميل الملأى الى السفينة. وقد رأيتهما ينحرفان في اتجاههما بين الصخور المنخربة بعيدا عن السفينة ثم يضربان في عرض البحر. عند ذاك استثار لارسن كلاً من هندرسون وسموك وامرهما ان يطلقا عليهما النار. ها هو هندرسون يسدد بندقيته جيدا ثم يطلق قذيفته. فوقعت في الماء على خطوة من القارب. كذلك فعل سموك. ويبدو ان الطلقتين كانتا للتحذير اذ سمعت هندرسون بعد ذلك يقول: «بهذه الطلقة سأحطم مجداف هاريسون». واطلق النار، فرأيت المجداف يتحطم من وسطه. ومثل هذا فعل سموك مع مجداف كلي. وهكذا بات الرجلان محكوماً عليهما بالهلاك فآثرا النكوص عن محاولة الهرب وعادا ذليلين الى السفينة.. فهناك نجاة من الموت على كل حال.

بعد كل هذا رفعت «الشبح». مرساتها في وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم وانطلقت ثانية الى عرض البحر. كان امامنا الآن اربعة شهور من الصيد والعمل الناجح. وكان جو السفينة قاتما ملبدا فيه تجهم على الوجوه وقرف في النفوس، فحتى انا لم استشعر بهجة مركزي الجديد. كنت اعاف اصدار الأوامر الى بحارة حاقدين مغلوب على امرهم، ولا انتظر منهم ان ينفذوا المطلوب عن رغبة فيه. بل حتى لارسن كان متأففا من الوضع الراهن، وداهمتْه احدى نوبات صداعه المزمن. كذلك لاحظت هاريسون يتسلم دفة القيادة لا تكاد تحمله ساقاه، رغم انه لم يكن تعبا على الاطلاق وانما هو التقزز من الخدمة. اما جونسون فقد هبطت الى البرج لأراه في تلك الليلة. وهناك وجدته مستلقيا في سريره المعلّق شاردَ الفكر،ساهم العينين كمن هو على وشك ان يصيبه مس.

في تلك اللحظة طرقني ان الرجل تراوده فكرةً ما أوحى به اليه لارسن،فاقشعرّ بدني وقفّ شعر رأسي رعبا. وصعدت الى السطح حيث استوقفني ليش ليقول:

- «ارجو منك خدمة يا سيد فان ويدين. اذا عدتَ الى السفينة وبلغتم سان فرنسيسكو فحاول ان تعثر على رجل اسمه مات ماكارثي، وان تبلغه انني آسف اشد الأسف على المتاعب التي خلقتها له. قل له انني عشت لأندم على اساءتي اليه واطلب منه ان يسامحني بصدد ذلك».

- «لا تقل هذا يا ليش. سنعود الى فرنسيسكو، وستكون معي، فقابل الرجلُ بنفسك. لا تكن متشائما يا ليش، واحذر ان يستولي عليك اليأس بعد تهديد لارسن».

ـ «اشكرك على محاولتك ان تطمئنني يا سيد فان ويدين لكني موقن ان لارسن سيتخلص مني. فهو يفعل ما يقول كما انه مجرم عريق. كل ما انتظره منه ان يسرع في تنفيذ ما هدد به، فقد سئمت هذه الحياة اللعينة».

وانصرف ليش فقلت في نفسي: «اذا كان لارسن يود قتله فمن الأفضل ان يفعل بسرعة. ذلك خير من ان يبقيه ينتظر الموت طويلا».

ثم انتبهت الى التردي الشديد في المعايير الخلقية التي باتت تسيطر عليّ انا همفري فان ويدين.. أقبل الجريمة وارجو الاسراع في اقترافها! اين هي القيمة السامية للنفس البشرية في تلك الحال؟! وما الحكمة في ارتضاء تدمير روح الانسان! أليس هذا نقيضا لفكرة خلود الروح التي ظللت اعتنقها عن اقتناع بصوابها طيلة حياتي، قبل ان أنحط الى درك وولف لارسن على سفينته الحمقاء!! ليتني انسى كل هذا، بل ليتني أغيب في عالم النسيان ولا اعود!

الفصل السابع عشر

من الغريب أن أقول في هذا الفصل ان أي شيء مثير لم يحدث على ظهر الشبح، فقد تابعنا الابحار غرباً ثم الى الشمال حتى ناطحنا ساحل اليابان وتجمعات قطعان عجول البحر.

كانت هذه تفد من المحيط الهادي الشاسع، تتقاطر الى مجمّع تزاوجها في بحر برنج، فسرنا نرافقها طريقها ونحن نُعمل فيها تقتيلا ومذابح. كنا نلقي بالجثث اللاحمة الشاحمة لتنهشها انياب اسراب القرش، ونبقي على الجلود اللدنة، فنملّحها ونكدسها في عنبر السفينة. ولماذا كل هذا العناء؟ لتتزين بها بعض المهووسات من سيدات المدن وما يسمونه المجتمع الراقي على الخصوص. فهل هناك جمال زينة في جريمة ظاهرة!

ما كان أحد من رجال الشبح يأكل لقمة واحدة من لحم عجل البحر ولا شخص واحد يستفيد من دهنه، كلا، وإنما الجلود والجلود فقط. ولما كان ذلك يتطلب سلخ الجلود بسرعة فقد امتلأ سطح السفينة بالدم ومِزق اللحم والزيت من اكباد العجول. هنا كان مسلخ قذارته مضاعفة. فحتى الحبال وخشبة الصاري وبكرات العراضات غدت حمراء زنخة يبعث منظرها على التقزز ورائحتها على الغثيان.. نعم كان يتم كسح السطح كل ليلة وتُدلق عليه مئات من سطول الماء المالح ـ لكن رائحة الدهن الزلق تظل تفوح... ولربما يجوز لي ان اقول «انها كانت تزكم انوفنا» لكن، هل ظلت لنا انوف تتحسس الزكام!

كنت انظر الى المجزرة فتقفز معدتي الى اعلى وكأنها تشاء ان تندلق من فمي، فأُجهد نفسي في ردّها الى موضعها. هذه معدة على كل حال.. اما نفسي فكنت اشعر انها قد انمسخت بحكم الاعتياد المكرور لما اشهده كل ليلة. بل لقد تتابع الانمساخ حين اخذتُ احس نوعا من الرضا عن أني انا هو المسؤول عن المسرح الذي تتم فيه المأساة. صرت اقول لنفسي «والان يا سيد فان ويدين: حاول ان تكشف عن قدراتك على تولي منصب اداري وتنفيذي معا. فانت رئيس البحارة والمكلف بانجاز عمليات السلخ في اقصر وقت ممكن». ولاحظت انه لن يكون بمقدوري العودة الى ما كانه همفري فان ويدين ولا الى ما كانه همب ايضا. فانا الآن «ريس» يعد سكاكين السلخ ويعد الجلود المسلوخة ويأمر بالقاء جثث العجول وتنظيف سطح السفينة من الاثر. لقد تغير فيّ كل شيء، حتى لهجتي نفسها

في مخاطبة الآخرين، فبات صوتي اجش قاسيا وجلدي مشدودا جاسيا مثل وجه كيس الملح الخشن.

وتساءلت: تراني امد قدمي الآن لأخطو اولى خطواتي على أرضية الواقع الحقيقي في هذا العالم! هل كان العالم المثالي الذي كنت متقوقعا فيه مجرد احلام وتهويمات نظرية لم تصمد امام حرارة الواقع الفعلي! ذاك ما يبدو على كل حال، فالوجود الفعلي صلب المكسر، اما تصوُّره في الذهن فهو رقيق كله نعومة.

في هذه الاثناء كانت قوارب الصيد الستة تنطلق بطواقمها بعيدا نحو الساحل فلا يبقى على «الشبح» الا حضرة «الريس» ولارسن والطباخ كوكي. ولما كان «كوكي» لا في العير ولا النفير فقد اعتبر لارسن ان على السفينة رجلين لا اكثر. وليس من السهل على اثنين ان يقوما بخدمة سفينة... كان لارسن يظل يراقب القوارب بمنظاره كما يتعهد كل ما تحتاجه القلوع. وهو الذي يتولى توجيه السفينة الى موضع امين وفي متناول اطقم القوارب خشية ان يعترض احداها طارىء مكروه. وكنت انا اعتني بالجلود المملّحة واستّفها في العنبر بعد نقلها من على السطح، كما احاول ان اتعلم من توجيهات لارسن كل ما استطيع. ولقد خامرني احساس بالغرور في ذلك. اما «كوكي» او «ماكريدج» فقد ظل منهمكا في اعداد العشاء للجميع حين يرجعون في المساء، وكانوا يعودون من الصيد يكاد يقتلهم الجوع، فعليه ان يملأ خوابي بطونهم بالطعام الساخن.

واني لأذكر يوما جميلا انطلقتْ قوارب الصيد باكرا في صبيحته وكان الجو رائعا بدت فيه صفحة البحر تلمع وكأنها مرآة مصقولة. وبعد ان تفرقت القوارب حتى بات لارسن لا يكاد يرى اياً منها بمنظاره ـ استشعرت ان الرجل يخشى شيئا. كان قلقا من امر لا ادريه. ولم تطل حيرتي، فقد هبط من السطح الى القمرة حيث قال لي:

ـ «انها قادمة. فاذا فاجأتنا بان ابعدتْ السفينة عن مهب الريح فان بعض الأسرّة في المهجع لن تجد من يبيت فيها».

وأدركت من كلامه ان عاصفة توشك ان تداهمنا. وهو يغدو شديد الانزعاج في تلك الحال. ولم يكذب تنبؤه! وكيف وهو الخبير اليقظ لكل ما تنم عنه اية حركة في النوّ! فما كادت الشمس تتوسط السماء حتى خفتَ كل ريح وهجع البحر مثل طفل ينام على وسادة الطبيعة. هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة كما يقول المثل. ولا ادري لِمَ صفا الجو وزالت من السماء كل سحابة داكنة. لقد استطعت ان ارى اخاديد البر المقابل على الشاطىء، وحتى بعض الاشجار وقمم المرتفعات الساقطة على سفوحها كان جليا الى درجة كبيرة. لكني استشعرت تجهّماً في الطبيعة وضيقا عجيبا في نفسي. اهي غريزة الحيوان بقدوم ما يتهدده؟ اهذه بقية قدرةٍ كانت في اجدادنا القدامى في العصور الغابرة!! ربما كانت كذلك.

لاحظ ذلك لارسن وقرأ افكاري فقال:

ـ «هذه امنا الطبيعة، وهي على وشك ان تقف على قائمتيها السفليتين وترفع قامتها

الى اعلى ثم تعوي بملء فمها الأشدق، اذ ذاك قد يعن لها ان تتقيأ كل ما في جوفها بكل عنف تقدر عليه. وعندئذ قد تجرّدنا من نصف قواربنا. أسرع يا همب... ارخ حبال الصاري ليقلّ تأثير شراعه المنتفخ».

ـ «ولكن... ماذا يصيبنا والذئبة تعوي ونحن اثنان فقط على السفينة!؟»

ـ «علينا ان نعمل ما في وسعنا يا همب. سارع الى القوارب قبل ان يتمزق شراع السفينة وبعد ذلك لا يهمني ما يحدث.. حياتنا اولا.. أما الصاري الرئيس فهو يتحمل العاصفة، غير ان علينا عملاً كثيرا نقوم به قبل ذلك».

عند ذاك ادركت مبلغ الخطر الداهم! فها هو لارسن يود النجاة تاركا السفينة وما فيها يواجه مصيره المجهول. وفكرت: اذا كان لارسن الذئب العجوز يفكر في النجاة بروحه وهو على سفينة متينة البنيان، فما الذي سيحدث لقوارب الصيد الصغيرة التي انطلقت لصيد العجول!؟ ستتحطم جميعها لا محا لة. ولن يعود من طواقمها احد. لكنني فطنت الى ان الخطر على السفينة اكبر من مثيله على قارب صغير، فقد يلوذ القارب وراء اية صخرة ناتئة على الشاطىء، وقد يقف طاقمه ساكنا فلا تضربه العاصفة. انه لا صاري له ولا شراع حتى تنفخه الريح ثم تدفعه الى حيث يرتطم بما يقضي عليه. وقد سررت بهذه الفكرة وبدا لي انني أذكى مما كنت اتصور.

واود ان اصف تقاطيع وجه لارسن ومظهره في هذه اللحظة:

كان منخراه ملتويين، وجبهته العريضة متجعدة، وعيناه زرقاوين صافيتي الزرقة وكأنهما قاع بحر عميق. كذلك كان سريع الحركة حازم الخطوة وهو ينتقل من مكان الى آخر على السطح. وبدا لي ان عضلات جذعه كلها نافرة من اماكنها. وملخص القول: كان الرجل مستعدا لمواجهة الخطر. بل لقد بدا لي انه يتلذذ بذلك. ولم لا؟ هو رجل تحكمه غريزة الحياة وهذه هي قساوة الحياة، فالامر طبيعي في نظره. وهو سيقاتل قبل ان يموت، مثل اي ذئب في قفار الجليد او نمر في الادغال.

ان موجة عارمة من جموح الحرص على الحياة تتملكه الآن، حتى انه يضحك بصخب في وجه العاصفة. اتراه يتحداها! ها انا انظر اليه يقف على السطح فارجاً ساقيه قبالة الريح كالقزم في ليالي بغداد. اما العاصفة فهي المارد الجني الذي خرج من القمقم. بيد ان الفارق شاسع... فهذا لارسن لا يخشى العاصفة بل يتحداها، فيما كان قزم «الف ليلة وليلة» مصعوقا ذليلا امام جبروت الجني المنطلق من الحبس.

ومشى لارسن الى الطباخ وقال:

ـ «اسمع يا كوكي، بمجرد ان تنهي العمل في تنظيف القدور والاطباق تعال الى السطح. نحن في حاجة اليك هناك. هل فهمت؟»

ثم صعد الى السطح حيث وجه كلامه الي:

ـ «همب، ان عنف العاصفة يبخّر اثر الوسكي. هنا اخطأ «عمر» الذي عرّفتني عليه. لقد عاش صاحبك نصف الحياة فقط».

وادركت ما يرمي اليه لارسن، فهو يود ان يعبر بطريقته الخاصة عن ان مواجهة الخطر وتحدي القدر هو النصف الاخر من الحياة الذي افتقده الخيّام.

كان نصف السماء في الغرب قد بات ادكن، وتضاءل نفوذ اشعة الشمس فيه حتى تلاشى تقريبا، مع ان الساعة كانت الثانية بعد الظهر. وبدا افق شبحي تشوبه مشحات من الضوء القرمزي ـ يحط على البحر والسفينة معا. في هذه المشحات القرمزية تألق وجه لارسن ولمع، حتى بدا ان هالة نورانية تلفه كله. أهي ارادته على الصمود طفَحَ بها جسده حتى غدت اشعة متداخلة من النور!!! ام انها هي الحياة المتحفزة للبقاء قد سكبتها الطبيعة على من يصارع قواها العنيفة في سبيله!!

وقال لارسن:

ـ «همب! هاك ترى. نحن الآن في بؤرة من الهدوء الكامل، لكن كل ما حوالينا يعج بالحركة. والحركة هي الحياة. لكن هذا الهدوء لن يطول. فالعاصفة قادمة».

ولا ادري لم شعرت بارتفاع الحرارة فجأة، اذ اخذ العرق يتصبب من جبهتي ويتقطر من ارنبة أنفي حتى كدت يُغشى عليّ، فسارعت الى الاستناد على درابزين السلم.

في تلك اللحظة تسللت نسمة خفيفة من جهة الشرق كانت مثل همسة خفية جاءت وذهبت، حتى ان الشراع لم يتأثر بها على الاطلاق. ومع ذلك فقد احسست بها وابترد وجهي من اثرها. وصاح لارسن:

ـ «كوكي»!

فجاء توماس ماكريدج بوجه يلفه الهلع ويثير الشفقة على صاحبه.

واكمل لارسن عبارته:

ـ «فك حبال المقدمة واسحبها بالعرض، وحين ترى العراضة في حاجة الى الفك، اطلقها لتتحكّم فيها حبال البكرة. لا تخطىء في ذلك والا كانت هذه آخر مرة في حياتك. هل تفهم؟

وانت يا سيد فان ويدين! استعد لتوصل القلوع العليا ثم اقفز الى القلوع الاعلى وافردها بسرعة كما يقدّرك الله.. وكلما كنت اسرع، كان ذلك اسهل عليك. واذا لم يبد كوكي نشاطا وحيوية فاصرعه بين عينيه.»

سرّني ان تعليمات لارسن الي جاءت لطيفة خالية من التهديد والوعيد. كنا الآن متجهين الى الشمال الغربي تماما، وكان لارسن يود الاستفادة من اية نسمة تساعدنا في تلك الحال. وقد شرح ذلك:

ـ «سيكون النسيم على زاوية ٩٠ درجة من عرض السفينة. وحين يطلق الصيادون في القوارب آخر طلقاتهم يكون اتجاهنا قد تغير الى الجنوب».

ثم ركض الى عجلة القيادة وركضت انا الى بكرات حبال القلوع. وهبت نسمة ثم تبعتها اخرى وثالثة.. فاصطفق الشراع ببلادة. وقال كوكي:

ـ «الحمد لله يا فان ويدين انها لن تنقض علينا دفعة واحدة». وبالفعل كنت ممنونا

لما يحدث، فانا ادرك الخطر الذي يحيق بنا لو داهمتنا العاصفة والشراع غير مطوي.. اذن لنفختْه الريح ودفعتنا الى الجحيم .

وتلاحقت نسمات الهواء وامتلأت القلوع تدريجيا. وبفضل ذلك تحركت «الشبح» على الماء برفق. عند ذاك تخلى لارسن عن عجلة القيادة بعد ان صحح الاتجاه، وسارت السفينة بهدوء صوب الجنوب وغدت الاحوال على ما يرام. ولقد نفذت تعليمات لارسن السابقة بالتمام والكمال حتى انني حين مشيت الى عجلة القيادة لأرى لارسن ـ كان وجهه مشرقا بالرضا، فأومأ برأسه موافقا على ما فعلت وسلّمني عجلة القيادة.

كانت الريح تقوى بثبات والبحر يزداد ارتفاعا، وظللت ادير عجلة القيادة ساعة كاملة والصعوبة تزداد دقيقة بعد اخرى. ان الخبرة تعوزني في السيطرة على العجلة عندما يكون البحر عاليا، فانا حديث عهد بالكار.. ومع هذا فلم اقع في اي خطأ.. وقال لارسن:

ـ «حسنا فعلت يا همب. الآن خذ المنظار وتتبع بعض القوارب. اتدري اننا كسبنا عشر عقد، وان سرعتنا الان ١٢ أو ١٣ عقدة. هذه «البنت» تعرف كيف تسبح في الماء».

تسهيلا لتتبع اطقم القوارب ارتقيت حتى مجمّع الاتصال في الدقل الامامي الذي يرتفع حوالي ٧٠ قدما عن سطح السفينة. كان المنظار معلقا في عنقي، وحين تمكنت من جلستي على المجمّع رحت اجوب امتداد الماء من عدستي المنظار. فأدركت على التو حاجتنا الى السرعة الزائدة اذا ما اردنا ان نستعيد ايا من القوارب ورجاله. كنت امسح الماء اللماع المتلاطم فلا تكاد تقع عيني على اي شيء طاف على وجهه. اين ذهبت القوارب واطقمها؟ هل ابتلعتها اللجة!! اعوذ بالله. وتساءلت مستهجنا: وهل يمكن ان يصمد ذلك الخشب والحبال والمسامير في وجه هذا العنف المنفلت من إله الريح وجذْب هذه الكتلة الهائلة من مياه المحيط!

لم اكن اشعر بقوة اندفاع الريح لأن السفينة كانت في اتجاه هبوبها، لكنني حين نظرت الى صفحة الماء بعيدا عن الثلم الذي تشقه السفينة رأيت جبالا تتدحرج في معركة محتدمة، ايها يغوص وايها يبرز. اما «الشبح» فقد تصورتها حيوانا ضخما ثارت في حيزومه غريزة الحياة فبات سكّيناً قاطعاً يشق عضلات صدر المحيط. وتنتفض تلك العضلات فترشق بدمائها سطح السفينة وتلطم صفحاتها بضربات قاسيات. ها هو الموج ابيض مزبد يتكسر.. وها هي الشبح تكاد ترقص رقصة الموت بعد كل لطمة يوجهها المحيط الجبار.

وما كادت تنتهي في ذهني هذه الصورة الحية للواقع حتى شعرت بانني اكاد اسقط من موضعي العالي في الهواء. لقد اخذني دوار.. فالخطر يواجهني مكشراً عن انيابه المميتة. غير انني تمالكت نفسي وتمسكت باصابعي واقدامي، بصدري وفخذيّ، بخشبة الدقل وبكل قواي. ولم لا؟ لقد نشطت لديّ غريزة الحياة في هذه اللحظة. دع القوارب واهلها فانما تهمني روحي أولاً. وهكذا بت وولف لارسن صغيرا.

واستشعرت الامان بعد لحظات، فعاودت التفكير في جبال الموج ورجال قوارب الصيد. بذلك نسيت نفسي وعدت افتش بالمنظار عن رفاق «الشبح». ولم ابصر أثرا لأي قارب على رقعة الماء الممتدة بعيدا حتى الأفق. وداخلني الشك في حدوث نكبة، لكن شعاعا من الضوء نفذ من طبقات الدكنة في السماء فأبصرت نقطة سوداء تتحرك. هذا قارب اذن. وهل القارب في المحيط سوى نقطة سوداء يتقاذفها الموج الفضي المتدحرج في البعيد! وفرحت. ثم لاحت نقطة سوداء ثانية، ووقع عليها الضوء بعد قليل، فلمعت في عدسة المنظار. واغتبطت بذلك وكنت على وشك ان اصرخ من الفرح. لكني تماسكت واكتفيت بنقل الخبر الى لارسن بأن لوحت له بذراعي.

عند ذاك غيّر لارسن الاتجاه واشار الي «اهبط الى السطح لئلّا ان تقذف بك الريح من ذاك العلو الشاهق»، وفيما انا اهبط بكل مشقة وعناء لاحظت مقدار السرعة العظيمة التي تندفع بها السفينة. حتى اذا مسّت قدماي خشب السطح باشر لارسن يلقي عليّ تعليماته بعد ان سلمني عجلة القيادة. قال:

- «توقع ان ينفلت عقال الجحيم مرة واحدة. لكن لا تهتم بذلك، اعمل واجبك بالطريقة السليمة ودع الباقي. احرص على ان يظل كوكي قريبا منك وفي خدمتك لتطلب منه ان يقوم بما تريد».

حاولت ان اسير على السطح، لكن الماء كان يغطيه فخضت فيه الى حيث كان يقف توماس ماكريدج وافهمته التعليمات اللازمة ثم عدت اتسلق خشبة الصاري الكبير بضعة اقدام. ومن هناك طوحت ببصري الى وجه الماء فبان لي في عدسة المنظار قارب يتقدم صوب السفينة. كان يتسلق الجبال حينا ويهبط الى القرار حينا آخر، لكنه يظل طافياً فوق بطن الموجتين آخر الامر. ومع كل جبل يرفعه وواد يخفضه كان رجاله يتشبثون بالحياة اكثر فأكثر. لقد طووا شراعهم الصغير واعملوا مجاديفهم شبه المحطمة، واظنهم باتوا رجلا واحدا يصارع البحر، مخافة ان يعانقه الماء ثم يشده اليه فيقبّله قبلة لا ثانية لها.

وفجأة بدا لي ان لارسن غير اتجاه سير «الشبح»: لقد تلاعب بعجلة القيادة. واستولى عليّ الفزع! لماذا يفعل لارسن العنيد كل ذلك؟ هل قرر التخلي عن محاولة انقاذ القارب بعد ان تبين له استحالة نجاته! هل قرر قتل طاقم القارب لكن بطريقة لا يفطن اليها احد منهم؟!

كدت اسأله تفسيرا، وبكل حنق، لولا ادركت بعد قليل ان الرجل أنبل مما ظننت. فهو يود ان يقوم باندفاع سريع جهة القارب، ولكن بعرض السفينة. هذا ما فعله لارسن حقا. وكنت لا اعرف هذه المناورة الجريئة الخطرة. اذن كان الرجل يود الانقاذ بسرعة لا التخلّي عن الانقاذ.

وهكذا غدت «الشبح» الآن في وجه الريح.. وشعرت ان التوتر قد خف وان تزايد السرعة بات اكبر فأكبر. اما القارب فكان قدّامنا تماما لكنه بعيد نسبيا .

عندما صارت السفينة في وضعها الجديد تيسّر لي ان اقدِّر قوة هبوب الريح. لقد

تحاشينا ذلك حتى هذه اللحظة. اما الآن فها هو سد هوائي صلب يصفعنا ويسد علينا الطريق. كدت اطير عن ظهر السفينة من شدة صلابة ذلك الجدار فلجأت الى الامساك بأي شيء جامد على السفينة. حتى رئتاي لم تستطيعا ان تنفثا الزفير من شدة اطباق الريح على صدري وكادت روحي تزهق في تلك اللحظة. كيف يقاوم لارسن كل هذا! لا ادري، لكني رأيت الرجل راسخاً في وقفته على السطح وكأنه عمود ثخين من الحديد.

واندفعت موجة عاتية، ارتفعت فوق السفينة وغسلت كل ما كان على السطح. ثم تبعتها دفقة عنيفة من الهواء رضّت كل عضو في جسمي وإن لم تؤذ أيا منها. هذا هو الضغط المميت غير القاطع. بفعله كدت اختنق لأن اضلاعي كانت على وشك ان تتكسر وتنغرز في معدتي وامعائي. وهو ما يسميه البحارة «العناق» فأي عناق كريه هو!

ثم نزلت الصاعقة، وانفك عقال الكارثة.. وبدا ان كل شيء قد انفجر دفعة واحدة. اذ اكتسحني الموج ونزع يدي من كل ما حرصت على التشبث به. ولم اشعر إلا وأنا وسط الثَّبَج، قد غمرني الماء من كل جانب.. يدفعني الى حيث لا يعلم احد. هذا هو «الثلم» الذي يدفن البحارة في المحيط. يا له من فزع! كان جسدي يتدحرج لا اسيطر عليه، ورئتاي لا تعملان، والماء المالح ينفذ الى كل مسام جلدي وامعائي معا. ولو طال الامر لحظات لما كان هنالك هذا الكتاب، لكن موجة اخرى رفعتني الى اعلى فاستنشقت هواء الجو من جديد. وهكذا كُتبت لي الحياة من جديد.

والواقع ان صحوي لم يفارقني في كل هذه الأثناء، بل أكثر من ذلك، فانا لم اشعر بالخوف من ان أموت. كنت واثقاً ان لارسن سيدبر الامر، أما كيف يفعل ذلك فأمر لم افكر فيه ابدا. كذلك تبين لي انني لم اغرق في البحر وانما غرقت وانا على السفينة. فما ان خفّت حدة الموجة التي دحرجتني حتى وقفت على قدمي وخضت الماء الى درابزين السلم وامسكت به. ومن هناك رأيت لارسن عند عجلة القيادة يعالجها بكل قوته وهو واقف يتحدى العاصفة بإرادته الصلبة التي لا تلين.

كنت في حاجة الى الهواء المنعش فسحبت نفسا عميقا، وأتبعته بآخر، ثم حاولت تحسين وقفتي، لكني اصطدمت بالدرابزين فوقعت على يديّ وركبتي. ودفعني الماء قريبا من منصة الصاري الرئيس وانا على تلك الحال. وفيما كنت أحبو على هذه الصورة - ابصرت جثة توماس ماكريدج مكورة مثل كومة من العفش. ما كان الوقت يسمح بمعرفة احواله ولا مساعدته.. اذ كان علي أن أصل بكرة الحبال فأشدها.

وبعد لأي شديد وصلت موقع البكرة على سطح السفينة ونظرت حولي.. كان كل شيء قد اصبح حطاما: تشققَ الخشب، وتمزق الخيش وتبعثرت عدة الحديد هنا وهناك. كانت الشبح اشلاء ممزقة تتطاير احشاؤها في الهواء. لقد انكسر الصاري الثانوي ومال الدقل، وحمل الهواء بتوت الحبال التي فسّختها العاصفة. وكان هناك صفير اقرب الى فحيح الافاعي هو اللحن الذي تعزفه الريح ابتهاجا بانتصارها الاخير.

بيد ان هذا الدمار لم يبعث في نفسي اي شعور بالرهبة ولا الفزع. على العكس من

ذلك، لقد وجدتني انشط الى العمل. ولم اجد الموقف ميئوسا منه، كلا. هذه هي الطبيعة القاسية وانا هو «البحار» العنيد، والحرب بيننا قائمة على الدوام. ان شيئا ما لا يقهر ارادة الانسان. هكذا يقول لارسن، وها انا اتحقق الآن من انه على صواب. ولقد تذكرته الآن اذ سبق ان حذرني قائلا: «توقع ان يفلت عقال الجحيم مرة واحدة» وها قد انفلت. لكن اين هو لارسن نفسه؟ آه، انه هناك يشد قاعدة شراع الصاري ليعيدها الى موضعها الطبيعي. وهي قاعدة ثقيلة، لكن عضلات ظهره النافرة كفيلة بالتغلب عليها. وقد نجح. بيد ان الموج القى به في الزبد وغاب عن عيني بعد ذلك.

لم اهتم بمعنى غياب لارسن ابدا ولم اقلق عليه. كنت اعرف ان شد حبال البكرة بقاعدة الصاري يفرد الشراع، فيساعد ذلك في تحسين وضع السفينة. فسارعت الى انجاز هذه المهمة. وما كدت افرغ منها بجهد جهيد حتى وجدت لارسن بجنبي. كان قد ثبّت الدقل وعدل ميَلان الصاري وهو يود ترتيب الامور من جديد. وقال:

ـ «اسرع يا همب، شد الحبال وتعال معي.»

مشيت وراءه. ولاحظت ان «الشبح» جبّارة فعلا، فكل ما تحطم منها كان ثانوي المفعول: فالصاري الرئيس قائم، والقلع الكبير لا يزال مطويا. فلو استطعنا فرده لباتت السفينة كفوءاً للصمود في وجه الريح.

وتذكرت قارب الصيد واذا به قريب جدا من صفحة عرض السفينة. كان عاليا في الجوّ، حملته موجة متجهة صوب سطح السفينة. ولو ارتطم بالسطح لما صمد وانما تحوَّل الى شظايا من الخشب والمسامير المخلَّعة. لكن لارسن ادرك ذلك فألقى بكُلاّبه من السفينة اليه، والقيت انا باخرى، وامسكنا به.. بذلك نجا رجاله الثلاثة، كما ان قوة اندفاعه في الجهة المضادة عدلت وضع السفينة في الجهة الاخرى.

هكذا نجا كل من اوفتي وكيرفوت وكِلي. لقد انقذتْهم خبرة لارسن. ثم إننا جذبْنا القارب بعنف الى جانب السفينة حتى استقر واخرجناه من الماء الى سطحها، وابقيناه هناك. ولاحظت دما يسيل من ذراع كيرفوت ففحصت ذلك، وإذا باحد اصابعه قد انهرس فغدا مثل كتلة من عجينة الورق. ومع هذا فان كيرفوت لم يهتم ذلك. لربما انه تساءل: «أأفقد اصبعا ام الحياة؟» واجاب: بل الاصبع» وعلى اساس ذلك تصرف الرجل.

لم يُمهل لارسن ايا من الصيادين كي يفرح بحياته من جديد فقال على التو:

ـ «انت يا اوفتي، استعد لتثبيت قاعدة البكرة في موضعها. وانت يا كـلي، تعال لإرخاء حبال الصاري الرئيس. واذهب يا كيرفوت لترى ماذا جرى للطباخ. اما انت يا فان ويدين فاسرع الى تسلق الصاري وتخلص من كل عقدة تعترضه في الطريق».

هكذا اصدر اوامره، واسرع وهو يزم شفتيه الصارمتين الى عجلة القيادة.

والواقع اننا كنّا نعمل لانقاذ سفينة جانحة، لكن العمق كان ضحلا. وهذا من حسن حظنا. اذ كان الدقل الكبير والدقل الصغير والصاري الرئيس كلها موازية لسطح الماء. وما كان قول لارسن «تسلق واربط» الا على اعتبار ما كان لا ما هو في الوضع الراهن. ومع ذلك

ورغم الصعوبة الشديدة التي تفرضها معالجة هذا الموقف فقد استطاع لارسن بتعاون صادق من الجميع - ان يعيد السفينة الى وضع طبيعي فوق صفحة الماء. وبعد ذلك بنصف ساعة شاهدت القارب الثاني. كان مقلوبا قعره يواجه السماء ويتمسك بحافته كل من لويس السمين وجونسون وثالث اسمه جوك هورنر. فرمَيْنا لهم حبالا ذات خطافات تعلقوا باطرافها وكأنهم سعادين الشجر.

وغاصت «الشبح» ثانية في موجة عالية خُيِّل الي معها انها لن تظهر فوق الماء مرة ثانية، لكن «العجوز الخشبية»، تحمّلت وعامت في البحر من جديد.

في مثل هذه اللحظات كنت اشعر بالتوحد مع الله وارقب الفوضى التي يخلفها في الطبيعة غضبه الشديد. وحين تبرز من الماء عجلة القيادة وراءها كتفا لارسن العريضتان أشعر بشيء من الطمأنينة. اليس هو إلهاً على الارض!! لم اجرؤ آنذاك ان افكر في من سينتصر، لكنني بطبيعة الحال كنت اود الإبقاءَ على حياتي، ولن يتم ذلك الا اذا انتصر لارسن.

وقد استغرق العمل ساعات طوالا حتى اوشكت الشمس على الغروب. وعند ذاك تتعقد الاوضاع، وخاصة فيما يتعلق بأطقم القوارب. لذا كرر لارسن مناورته الجريئة اكثر من مرة، لكنه في الأخيرة منها أخطأ مسافة اربعين قدما. بذلك هشم القارب رقم ٤ كما قال اوفتي ذو العينين الحادتين. وهو قارب هندرسون وهولي اوك ووليامز. لكن اين كان الرجال؟ لا احد يدري. لهذا استشاط لارسن غضبا وقال: «لن افقد قاربي مهما تكن العاصفة جامحة». وعاود مناورته من جديد. وكانت هذه المرة اقرب الى ما يفعل الجريء اليائس، لكنها نجحت. حتى ان جونسون عدو لارسن اللدود صاح فرحا: «رائع!» غير انه في الواقع كان يثني على تحمّل «الشبح» للمناورة لا على مهارة لارسن وجرأته في القيام بها.

وغمر الظلام كل شيء، وحاول كل فرد من السبعة الذين على السفينة أن يلقط اي شيء يقرب من حافتها، لكن عبثا. لم يكن هناك رجال. وعندما قطعنا الامل من العثور على شيء كانت دموعي تنهمر على خدي حزنا على رفاق الطريق، مثل امرأة فقدت اهلها دفعة واحدة.

باشرنا البحث عن ماكريدج ونحن نخشى ان يكون قد هلك. ووجدناه عند قاعدة الصاري الرئيس مكوما هناك كالفأر الغارق. فسحبناه الى الكابينة. والتفتنا جهة المطبخ فوجدنا سطحا خشبيا لا اكثر.. إذ كانت العاصفة قد اقتلعت المطبخ بما فيه وقذفته الى الأعماق.

وهكذا.. اجتمع الناجون في صالة الطعام حيث تم اعداد القهوة الساخنة للجميع على موقد صغير هناك فيما كنا جميعا نحتسي الويسكي بشراهة. كان الجو في الصالة مَرِحاً، ولم اتذوق طيلة حياتي قهوة الذّ من هذه المرة. نعم كانت اقداح القهوة ترقص في ايدينا من شدة ارتفاع السفينة وانخفاضها وينسكب بعض القهوة على وجوه بعضنا.. ومع هذا فما كان ألذ تلك القهوة!

وحتى لارسن الحرون صار واحدا من الرفاق، فبعد ان ملأنا معدنا بالطعام والشراب بدا جذلا حين قال:

ـ «لا حاجة الى خفارة على السطح. ان كان سيقع لنا شيء فليقع. إننا لا نبالي ولا طاقة لنا على دفعه. قوموا الى النوم ايها السادة وليصر ما يصير».

انصرف البحارة الى المهجع بعد ان أُطفأوا المصابيح الجانبية، فيما بقي الصيادان ليقضيا تلك الليلة في صالة الطعام. وقبل ان ينام كيرفوت قمت انا ولارسن بقطع اصبعه المهروس، ثم خاطه لارسن بضع غرزات دون اي تخدير بطبيعة الحال، ودون صرخة ألمٍ من جانب كيرفوت بطبيعة الحال ايضا. اما ماكريدج الذي كان يشكو على الدوام من الم في معدته فقد زعم الآن ان احد ضلوعه قد انكسر. وعند الفحص وجدنا ثلاثة مخلوعة فعلا. لكنا أجّلنا الجراحة الى اليوم التالي، فالواقع انني اجهل كل شيء عن طبابة مثـل هذه الحالات، فعلي ان اعود الى كتاب. وقلت لـ لارسن:

ـ «اظن ان الامر لا يسوى. قارب محطم لقاء حياة كلي.» وكان قد ارسله لجلب القارب فلم يعد.

فعلّق على ذلك:

ـ «ان حياة كلي لا تسوى كثيرا. ليلة سعيدة».

وانصرفت لأنام. وحين أملتُ رأسي على الوسادة تعاقبت امامي الصور وتتـالت الافكار: ها سفينة «الشبح» ـ أفضل اسطول صيد عجول البحر كما أخبرني لويس سابقا ـ تغدو عرجاء ينقصها ثلاثة قوارب.

لكن هذه الافكار لم تطُل، حيث ازاحها الانهاك بعد ذلك المجهود العضلي الذي بذلتُه وانا لا ادري انني استطيع بذله فعلا. ربما فرضته الحاجة وتعاونتْ في ذلك ارادتي ـ فتم لي ان اصير بطلا بالصدفة والاكراه.

وهكذا رحت اغط في نوم عميق انا وجميع ركاب «الشبح» فيما تركنا السفينة وحدها تقاوم العاصفة من جديد.

الفصـل الثـامن عشـر

في صبيحة اليوم التالي كانت العاصفة ما زالت هائجة، لكن اتجاهها قد تغير حتى باتت لا تشكل خطرا على «الشبح». فانتهز لارسن هذا الموقف وقمنا معا باصلاح اضلاع ماكريدج. يومذاك طبقنا ما نعتقده علم جراحةٍ وتشريح، لكنه علمٌ وضعناه نحن ولن يورده كتاب على الاطلاق. وما ان فرغنا من «الطب الارتجالي» حتى أمر لارسن جميع الناجين بمباشرة اصلاح القوارب وترقيع الاشرعة والقيام بصيانة البكرات والحبال. واستمر ذلك بضعة ايام.

واخيراً انكسرت حدة العاصفة وسارت «الشبح» بأمان في عرض البحر. وكنا في هذه الأثناء نشاهد سفن صيد العجول تمر واحدة إثر اخرى، كل منها تفتش عن قوارب افقدتها اياها العاصفة، أو تحمل قوارب واطقما التقطتها من عرض البحر اثناءها.

وبفضل السفينة «سيسكو» عاد الينا قاربان كان رجالهما سالمين لم يلحقهما مكروه. ما اجمل ذلك من لقاء وما اعظمها من فرحة حين صعد الرجال الى سطح «الشبح»! لكن الفرحة لم تكتمل فقد جردتنا العاصفة من ٤ رجال: هندرسون وهولي اوك ووليامز وكلي، فحزنت على فقدانهم اشد الحزن، لكن لارسن بدا في غاية الفرح والسرور!

وهكذا وبعد خمسة ايام من العذاب اصبحنا مرة ثانية نتتبع قطيع العجول. وقادنا ذلك صوب الشمال حيث دخلنا في منطقة الضباب الكثيف. ويوماً اثر يوم كان يتم انزال قوارب الصيد، فما تكاد تلامس الماء حتى تختفي ويبتلعها الضباب. كنا ننفخ البوق في فترات منتظمة ونطلق قنبلة كل ربع ساعة، وكانت القوارب ما اسرع ان تضيع ونلقاها، اذ ان من عادة قارب الصيد ان يباشر عمله بكل حرية تحت اشراف اي سفينة صيد تلتقطه ثم يعود الى السفينة التي تملكه بعد ذلك. لكن وولف لارسن لم يسلك هذا السبيل.. كان في حاجة الى القوارب. اما فقد ثلاثة منها! لذلك أجبر اول قارب التقطته «الشبح» ان يعمل لحسابه. وانا اذكر كيف اكره لارسن الصياد ورفيقيه في ذلك القارب بقوة السلاح على الصمت، حين مرت سفينتهم الاصلية وطلبت معلومات عن رجالها.

والعجيب ان توماس ماكريدج، الطباخ الذي جربنا على ضلوعه علم البيطرة، كان متعلقا بالحياة. فنجحت عمليتنا الجراحية له وسرعان ما عاد يقلز ويقوم بوظيفة الطباخ

والمساعد معا. اما جونسون وليش فما اكثر ما اصطدما مع لارسن وذاقا علقة ساخنة من قبضتيه! وكانا يتوقعان أن تنتهي حياتهما بانتهاء موسم الصيد. اما بقية الرجال فكانوا يعملون مثل مجموعة من كلاب الصيد في خدمة سيد عديم الشفقة. ويبقى انا ولارسن.. وقد سارت الأمور بيننا بشكل حسن، وان ظلّت تراودني فكرة قتله، باعتبار ذلك هو التصرف السليم لمن هو في موقفي. كنت معجبا به غاية الاعجاب لكني اخاف منه اشد الخوف. ومع ذلك فلم اتصوره منطرحا قد تغلّب عليه الموت وقهره. كان هناك طيف من شباب ابديّ وقوة طاغية تظل تحيط بصورته في ذهني فلا أراه الا سيداً مطاعا يقاتل وينتصر، يقتل ويحطم. لكنه يظل حيا مثل سنديانة عملاقة في قمة الجبل.

كانت احدى تصرفاته غير السوية انه انزل قاربا وطاقمه للصيد والبحرُ عالٍ جدا لا تسمح امواجه بذلك، وآثر ان يرافق ذلك القارب بنفسه. وكان صيادا حاذقا، فقد عاد بعدة جلود مع ان رجال «الشبح» اخبروني ان الصيد مستحيل في تلك الظروف. وبدا لي ان نفَس منخريه ـ وهو يحمل روحه على كفه ويصارع الشدائد ـ لهو كفيل بفوزه في كل حلبة.

كنت اكتسب خبرة جديدة في فن الملاحة كل يوم حتى اصبحت قادراً على قيادة الشبح وانزال قوارب الصيد والتقاطها مع اطقمها بسهولة دون مساعدة لارسن. وشاءت الظروف ان اجرب ذلك، اذ داهمت لارسن نوبة من الصداع الشديد. فبقيتُ خلف عجلة القيادة من طلوع الفجر حتى الغبش. في ذلك اليوم كنت قبطانا حقيقيا.

ولقد واجهتنا العواصف بين فترة واخرى، فالمنطقة ذات مناخ قاس متقلب. واني لأذكرُ اعصارا مدمرا واجهناه في منتصف شهر حزيران وخلّف اثرا بارزا في حياتي بكاملها بعد ذلك.

ولا بدّ ان الاعصار قد هاجمنا على مقربة من مركز دورانه، ومع هذا فقد تخطاه لارسن. لم ار في حياتي بحرا عاليا مثل ذاك، حيث كان بطن الموجة يتسع الى نصف ميل. نعم، واجهنا عواصفَ كثيرة من قبل اما مثل هذا الاعصار فلا. الريح تلف حول نفسها، وهناك دوامات فرعية متداخلة وهوة عميقة هي قرارة الدوامة الكبرى.. وجبال الموج تنحدر في ذلك القرار وتتلاشى، ومع ذلك فقد وقفتْ خبرة لارسن في الملاحة ضد هذا الجبروت. بل لا أخالف الواقع اذا قلت: لقد استغلّه لارسن. فما كدنا نخرج من جحيمه حتى كنا وسط قطيع من عجول البحر لا اول له ولا آخر.

هناك لم يعد مجال لاستخدام قوارب الصيد بل للبنادق.. وتمت مجزرة فظيعة لتلك الحيوانات الانيسة المسالمة طوال ذلك النهار.

في تلك الليلة اقترب مني ليش وهمس :

ـ «قل لي يا سيد فان ويدين، على مسافة كم ميلا نحن عن الشاطىء، وما هو الاتجاه السليم الى يوكوهاما؟».

ادركت ما يرمي اليه ليش من سؤاله هذا، وسرني ذلك، فأجبته:

ـ « نحن على مسافة ٥٠٠ ميل والاتجاه هو غرب / جنوب غرب».

ـ « اشكرك يا سيد فان ويدين».

ثم انسلّ في الظلام. وفي صبيحة اليوم التالي كان القارب رقم ٣ قد اختفى وعلى ظهره كل من جونسون وليش. كذلك كان كل ما يحتاجه الهاربان مفقودا من قوارب الصيد الاخرى. وعلم بذلك لارسن، فبات كالأسد الجريح. لقد اطلق الجميع كي يفتشوا في عرض البحر عن «العبدين الآبقين»، وجعل بعضهم يرقب بمنظاره صفحة الماء في كل الجهات، لكن عبثا. بل ربما فكر في ان يرسلني انا وراءهما ايضا لولا انه يعرف رضاي عما فعلاه.

كانت الريح في ذلك اليوم هادئة والجو مناسباً للتفتيش، ومع هذا فقد بدت جهودنا مثل جهود من يفتش عن ابرة وسط كومة من القش. وما قارب صغير وسط امتداد المحيط! اذن ماذا يفعل لارسن؟ لقد وجه «الشبح» لتعترض بين القارب وبين بر الساحل.. وهي اسرع من القارب بطبيعة الحال. وبعد ان انجز ذلك جعل لارسن يناور بطريقة اعتراضية في الطريق الذي قدر انهما سيسلكانه لا محالة.

وفي صبيحة اليوم الثالث بعد الساعة الثامنة بقليل انطلقت صرخة من سموك الذي كان يراقب بمنظاره من رأس الصاري: «ها هو القارب قد ظهر. اني اراه».

وتجمع الموجودون عند درابزين السلّم. كان النسيم منعشا والشمس اول عروجها في السماء، فظهرت صفحة الماء لماعة تتلألأ. ومن على بعيد هناك في لمعان الشمس لاحت نقطة سوداء صغيرة.

عدّلنا اتجاه السفينة نحو تلك النقطة، وشعرت بقلبي ثقيلا كأنه من رصاص كما داهمني احساس بالمرض. ونظرت الى لارسن.. كانت عيناه تومضان ببريق طاغ فيه نشوة الانتصار، فكرهت الرجل حتى حدثتني نفسي ان اهاجمه في تلك اللحظة. نعم انه قد يسحقني، لكنني بتصرفي هذا اكون صادقا مع نفسي. اما عيّرني بذلك من قبل!؟

لم أتأثر آنذاك بالقسوة التي سيلقاها كل من ليش وجونسون حين يتم القبض عليهما. لماذا؟ هل فارقني الاحساس بالود نحوهما؟ كلا، وانما بتّ في حالة ضياع فكري. ها انا لا اتمالك نفسي حين هبطت الى المهجع ثم ارتقيت سلم الدرابزين وفي يدي مسدس جاهز للاطلاق. في تلك اللحظة سمعت احد رجالنا يصرخ: «انهم خمسة رجال في القارب». اذن فلربما كان هذا القارب لا يخص «الشبح».. اذ ذاك لا يكون فيه ليش ولا جونسون.

انتظرت دقيقة حتى يتأكد المراقبون من حقيقة ما يرون، وحين فعلوا لم اجد نفسي الا واقعا على الأرض. لم تحملني ساقاي من الفرح: نجا صديقاي ولم اقترف تلك الفعلة الشنعاء بمهاجمة لارسن!! فتخلصت من المسدس وصعدت الى سطح السفينة.

لم يلحظ احد غيابي في تلك الاثناء.. اصبح القارب الآن على مسافة قصيرة من السفينة، فوجده المراقبون اكبر من اي قارب صيد،كما ان بناءه يختلف. واقترب اكثر، فطوى ركابه شراعهم واوقفوا عمل مجاديفهم وهدأوا ينتظرون ان تلتقطهم الشبح ليصعدوا اليها. وفي هذه الأثناء هبط سموك من على رأس الصاري ووقف الى جانبي ثم اخذ يطقطق اصابعه ويقرقر حديثا. وانتبهت له، فقال:

- «شيء مضحك!»
- «ما الذي يدعوك الى ذلك؟ اهناك خطأ ما؟»
- «نعم. ألا ترى ستائر تغطي طاقات المهجع؟ هناك امرأة.»

وحدقتُ فيما ارى جيدا. ثم انفجر جميع ركاب الشبح في ضحكة واحدة. نعم، هناك امرأة.. اربعة رجال وامرأة! اهذه الأخرى صيادة عجول!! وضحك الجميع واستولى عليهم الاندهاش، الا وولف لارسن، فقد ارتسم على وجهه الاحباط وخيبة الامل. لم يكن القارب يعود الى الشبح فماذا يهمه اكان في القارب الجديد امرأة ام بقرة!

انزلنا احد قواربنا وجدفنا حتى وصلنا القارب الغريب، فقطرناه وعدنا به وبأهله الى السفينة. وحين صعد ضيوفنا الى السطح القيت اول نظرة على تلك الانثى الوافدة معهم.

كانت ملتفة ببطانية خشنة من الصنف الذي يستخدمه البحارة، على رأسها قبعة بحار كبيرة يبرز من تحتها شعر اشقر جميل. كان وجهها ابيض ملوَّحا، وعيناها واسعتين فيهما شهوة وقوة، وكان فمها حلوا ينم عن حس مرهف، ووجهها بيضاويا ناعما.

بدت لي تلك المرأة وكأنها مخلوق من عالم آخر بعيد، وشعرتُ برغبة قوية في الاقتراب منها كما يفعل الرجل الشديد الجوع حين تقع عينه على رغيف ساخن. واظن عذري واضحا.. فانا رجل لم ابصر امرأة منذ عهد بعيد، وبخاصة ان اليوم الواحد مع رفقةٍ مثل رجال الشبح يغدو دهرا طويلا. ولا زلت اذكر تلك الابتسامة الرقيقة الشاكرة التي رشقتنا بها تلك المرأة حين حملها البحّار والقاها على ذراعي لارسن الممدودتين نحو القارب لرفعها الى السفينة. كانت ابتسامةً لا تستطيع ان تمنحها الا امرأة.. وكنت آنذاك قد نسيت كيف تبتسم النساء. اذن لقد سيطر علي الذهول مما أرى وما اشعر. ويبدو ان لارسن فطن الى ذلك، فقد قطع علي ذلك الحال الانجذابي وردني الى الواقع حين قال:

- « انت يا سيد فان ويدين. خذ السيدة واهبط بها الى الصالة. انظر ما تحتاجه وقم بخدمتها جيدا. لقد احرقتها حرارة الشمس وملوحة المحيط».

ثم انه استدار واخذ يستجوب الرجال الاربعة، وكان جافيا في حديثه معهم كعادته مع جميع البحارة. أما انا فقد طلبت من السيدة ان تهبط السلم مستندة الى الدرابزين. ولاحظت انها منهوكة القوى فأمسكت بذراعها لأساعدها في الهبوط.

لا ادري لماذا شعرت بالخوف من تلك المرأة، ولا لماذا تصرفت بسماجة... لقد نسيت كيف تعامَل السيدات. اتراني اعتبرتها بحارا فظا فعاملتها على ذلك الاساس! ربما. فعندما امسكت ذراعها وجدته شيئاً شديد النعومة تحت اصابعي. عند ذاك تذكرت ان النساء قوارير سهلة الكسر، وان اعضاءهن ما اسرع ان تتعرض للعطب. نعم، كانت المرأة نحيفة لكنها بدت لي ناحلة طيّارة كأنها من الاثير، حتى خشيت ان يتحطم ذراعها في يدي. وانا اطنب في هذا الوصف رجاة ان اكون قادرا على التعبير عن احساسي الغريب تجاه «مود بروستر» ضيفتنا الجديدة، على الخصوص.

ـ «لا حاجة لأن تتعب نفسك من اجلي وفي خدمتي».

هذا ما قالته السيدة عندما حاولت مساعدتها في الجلوس على «كنبة» جررتها من قمرة وولف لارسن. ثم اكملت كلامها:

ـ « كان الرجال يحاولون العثور على اقرب نقطة من اليابسة هذا الصباح، ولا بد ان تصل السفينة في المساء. الا تتوقع ذلك؟»

كانت واثقة مما سيحدث في المستقبل القريب. وأجفلني ذلك، كيف استطيع ان اشرح لها الموقف على «الشبح»؟كيف اعرّفها بواقع حال ذلك الرجل العجيب الغريب الذي يقود الشبح في عرض البحر وانه عات في تصرفاته كالقدر!! ومع هذا فقد اجبت: «لو كان القبطان غير هذا الموجود لقلت انك ستكونين في يوكوهاما صباح الغد، لكن قبطاننا رجل غير عادي فاستعدّي ايتها السيدة لان تتوقعي اي شيء. هل هذا مفهوم»؟

ـ «الواقع انني لم افهم منك شيئا.»

قالت ذلك بنبرة واضحة لا يشوبها اي شعور بالخوف.. ثم اضافت:

ـ «هل تجدني مخطئة حين اقول: ان ركاب السفينة المحطمة يلقون كل مساعدة واحترام من اية سفينة تلتقطهم؟ اليس هذا هو المتعارف عليه في البحر؟»

ـ «بصراحة، لا اعرف. كل ما اردته هو ان أُعدّك لان تتوقعي اسوأ الاحتمالات. هذا اذا حدث سوء. ان قبطان هذه السفينة وحش، شيطان، ولا يمكن التنبؤ بأية خطوة مما قد يفعل».

ـ « آه، هذا اذن!»

قالت ذلك وبدا عليها انها توشك ان تفقد الوعي. فقد اطرقتْ تفكر وزاغت عيناها، لكنها تماسكت ولم تسقط عن الكنبة. بعد ذلك لم توجه الي اسئلة جديدة فلزمتُ الصمت. وما الفائدة من كلامي! قد يتصرف لارسن عكس ما اقول فيكون موقفي حرجا في تلك الحال. لقد طلب لارسن إليّ ان اسهر على خدمتها فماذا يدعوني الى تجاوز اوامره!؟ لهذا جئتها بحنجور دهون يخفف اثر حروق الشمس، وبزجاجة من النبيذ الجيد وجدتها في قمرة لارسن، وطلبت من توماس ماكريدج ان يُعد حجرة النوم الاضافية عند القمرة لتحتلها «الغريقة الناجية».

كانت الريح جيدة الآن و «الشبح» تسير وتسير. وحين انتهى إعداد الحجرة كانت الشبح تندفع بتوثب ونشاط. وكنت قد نسيت قضية ليش وجونسون حين سمعت صرخة وصفقة عرفت فيها صوت سموك واصطفاق كفيه. لقد قال: «القارب! هناك هو».

ونظرتُ الى المرأة فرأيتها قد اسندت رأسها على ذراع «الكنبة» وأغمضت عينيها واستسلمت للنوم غير عابئة بالمصير. واخذت قوائم الكنبة تنزلق على الارضية، فخشيت على المرأة ان تسقط او يرتطم رأسها بالجدار..

وحين دخلت لأطلب منها الانتقال فتحت السيدةُ عينيها وبانت عليها الدهشة من ان تجدني، ثم تذكرت وقبلت الانتقال حين أفهمتها ما اريد.

والآن، لماذا سارعت في نقلها الى حجرة صغيرة مطبقة؟ لأني وددت ان أجنبها رؤية الفظاعة التي ستحدث عند القبض على البحارين الهاربين. ولم يسرّ ماكريدج ان اكون مسؤولا عن رعاية السيدة فخرج يذيع ان السيدة الحلوة على وفاق مع فان ويدين. وتأويلُ ذلك الى ما هو اكثر من مجرد اللفظ شيء يسير في ذمة رفاق العجول. ومما قوّى اقوال ماكريدج انه رآها تنام على كتفي اثناء انتقالها من «الكنبـة» الى الحجرة، وانني قمت بتعديل رأسها على المخدة وتغطيتها جيدا ببطانيتين احضرتهما من قمرة لارسن.

الفصل التاسع عشر

انتهيت من خدمة «مود» وصعدت الى السطح. هناك وجدت رجال «الشبح» مصطفّين عند الحافة يترقبون رجوع ليش وجونسون، فيما كانت السفينة منطلقة نحو قاربهما الصغير الذي يعلو ويهبط مع القمم. وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر حضر لويس لتسلم عجلة القيادة، فسألته:

ـ « ماذا سنفعل؟ ماذا هناك؟».

ـ « نواجه زوبعة صغيرة قد يصحبها بعض زخات المطر. هذا ما أتوقعه يا سيد فان ويدين».

ـ « كان سيئا ان نشاهد قاربهما!»

ـ «تعني ليش وجونسون يا سيد فان ويدين؟ كان من حسن حظهما ان يلمحهما منظار المراقب».

ـ « كيف؟ ماذا تعني؟ »

ـ «اعني ان قاربهما الخفيف ما كان يستطيع الصمود. في تلك الحال سيقبرهما المحيط قبل ان يبلغا اقرب نقطة من اليابسة. اما وقد ابصرناهما فقد بات لهما حظ في النجاة».

ـ « هذا ما تحسّه بصدق؟»

ـ « نعم ان سطح «الشبح» افضل كثيرا من امعاء السمك!»

وانقطع الحديث بقدوم وولف لارسن الذي كان آتيا من عند قاعدة الصاري الرئيس حيث كان يتحدث مع ضيوفنا الجدد. وقال لي:

ـ « انهم ثلاثة من عمال الزيت والرابع مهندس، لكننا سنجعلهم صيادين او مجدفي قوارب على الاقل. ما خبر السيدة؟».

لم اشعر بالارتياح من سؤاله عنها.. على العكس، احسست وكأن سكّينا تجرحني في عظم القص. اهو خشية من فظاظة منتظرة قد تواجهها منه؟ ام حرص زائد على مخلوق

رقيق يقع في حظيرة من الضباع؟ كلا الامرين جائز. ولذا فلم أجب وولف لارسن باكثر من ان هززت كتفي وكأني اقول: لا ادري.

عند ذاك جمع لارسن شفتيه واخرج صفرة طويلة فيها معان كثيرة ثم قال:

ـ «إه، ما اسمها؟»

ـ « لا اعرف. هي نائمة الآن. لقد هدها التعب. اسألها عن ذلك حين تفيق. والواقع انني انتظر ان تخبرني انت بذلك. ما اسم السفينة التي تحطمت؟»

ـ « هي سفينة للبريد اسمها «طوكيو» قادمة من سان فرنسيسكو في طريقها الى يوكوهاما، قلَبها الاعصار وشقها نصفين بعد ان طوح بها الى مركزه. وقد ظل ركابها في البحر اربعة ايام، ولا ادري شيئا عن المرأة اهي عذراء، متزوجة ام ارملة».

ثم انه غمزني بعينيه ساخرا فقلت:

ـ «هل انت...»

كنت أود الاستفسار عن وجهة «الشبح» بعد ان التقطنا الرجال والسيدة.. هل نحن متوجهون الى يوكوهاما.. لكن لارسن قاطعني:

ـ «ماذا انا؟»

ـ «اعني ماذا ستفعل مع ليش وجونسون؟»

ـ «الواقع يا همب انني لم افكر في ذلك. انت تعرف عدد الرجال الجدد الذين جاؤوا الى السفينة. لستُ في حاجة الى طقم اكبر».

ـ « وتتركهما يهربان! لماذا لا تغير معاملتك لهما حين يقدمان فيكونان من افضل رجال «الشبح»! انت اجبرتهم على الهرب فاقلب صفحة جديدة في ذلك».

ـ «انا الذي دفعتهما الى الهرب!؟»

ـ «نعم انت».

ـ «وتصر على ذلك؟»

ـ «نعم. انا احذّرك يا وولف لارسن، فقد اجد نفسي مكرها على ان «احب الحياة» كما تقول، فاحاول قتلك! اقتلك، نعم اقتلك؟».

لا أدري من اين عبّأتني هذه الدفقة من الشجاعة، كما اني لم افكر في ما قد يفعله لارسن بعد اظهار حماستي الرعناء. لكنه صمت لحظة ثم قال:

ـ «حسنا، برافو. انت تجعلني فخورا بك يا همب. ها انت قد نبتَ لك ساقان من عظم وعصب. كان من سوء حظك ان عشت حياة هادئة، اما الآن فها هو الانتقام يشعل نار رجولتك. وانا احب ذلك لك».

كان هذا الرد آخر ما توقعته من لارسن، وبخاصة انني لاحظت كونه جدّيا في نبرته. بل لقد تغير صوته حين استطرد يقول:

ـ «هل تثق بالوعد؟ والوفاء به؟»

ـ «نعم، ذاك ما يجب ان يكون».

ـ «اذن دعنا نلتزم بالوعد: لا تمس يدي اياً من ليش او جونسون ولا تحاول انت ان «تقتلني»، وليس ذلك لانني اخشاك، كلا.»

سمعت ذلك ورأيت لارسن ينطق به، لكنني كذّبت عيني ولم اصدّق اذني. ما الذي جرى لهذا الرجل! اي تحول غريب اشهده في شخصيته! وحين هدأت مما أعتبره صدمة غير متوقعة قلت:

ـ «اتفقنا؟»

ـ اتفقنا».

ومد يده ليصافحني توثيقا لذلك الاتفاق العجيب. وحين سحبتُ يدي من يده كان يغمرني فيض من السعادة والحبور. لقد اصبحت نـدّا يخشاني حتى لارسن، وحش «الشبح» المخيف! أما ضمنت سلامة صديقين ورفعت عنهما ظلما! بلى. اذن فمن حقي ان اغتبط. لكن عيني لارسن تغيرتا في هذه اللحظة ولمحت فيهما خبث الذئب وغدره، مما نغص عليّ فرحتي وجعلني أنتظر في حيرةٍ بضعة الأيام التاليات.

كانت «الشبح» تقترب من قارب ليش وجونسون بسرعة حتى بات في متناول يدنا ان نأسِره، ورأيت جونسون يتولى القيادة وليش يجدف. كانت سرعتنا ضعفَ سرعتهما، غير ان لارسن أمر لويس ان يظل بعيدا، فأبطأت السفينة سيرها. ثم ان لويس عارض بالسفينة مناورا. وفي تلك اللحظة تدحرجت موجة عالية فرفعت السفينة الى اعلى وخفضت القارب في القرار بين الموجتين. وهكذا بات القارب في خطر، مما جعل جونسون يتولى التجديف وليش يتولى القيادة.

وازداد الموج، والسفينة لا تقترب من القارب ولا تسمح له ان يغير اتجاهه. كانت تعليمات لارسن ان يظل لويس يدفع القارب بصورة غير مباشرة الى عرض البحر، وان يسد طريقه الى اليابسة. هناك في البحر كان الموج يرتفع وتباشير زوبعة بحرية على الطريق. ولن يصمد القارب في وجه ذلك بطبيعة الحال.

بقي لارسن يناور على هذه الحال طيلة بعد ظهر ذلك اليوم، وظل القارب معرضا للخطر. ويبدو ان جونسون وهو البحار العتيق ـ فطن الى مناورة لارسن، فأخذ يجدف بمَيْلٍ ويتجه الى السفينة. وحين كان على مسافة تسمح بسماع صوت رجالها قال له لارسن من على السطح:

ـ «آه، يبدو انك غيرت رأيك وتود العودة الى السفينة. حافظ على المسافة التي تيسر عليك الصعود اليها».

ثم صاح بـ اوفتي الذي تسلم عجلة القيادة بعد لويس قائلا:

ـ «ادفع بتلك العجلة قدر ما تستطيع».

وابتعدت السفينة عن القارب بسرعة حتى بات ما بينهماماية قدم، ثم تابعت سبقه معارَضة. وقلت في نفسي: «ما الذي يريده لارسن! هل يود ان ينهك الرجلين من باب الاذلال

والانتقام جزاء تَجرُّئهما على الهرب! لا مانع من ذلك، لقد وعدني الا تمسهما يده. وإشباع رغبته الدائمة في القهر والسيطرة أهون شرا من ان يقتلهما».

كان لارسن يظل يلوّح اليهما من بعيدٍ أن «الحقا بنا لتصعدا الى السفينة»، ومع ذلك ظل يزيد في سرعته نحو اعالي البحر. وأدرك جونسون لعبة لارسن الشديدة الخطر، فزاد من سرعة تجديفه وغيّر اتجاهه بحيث صار يقترب حثيثا من السفينة. وشاهد ذلك لويس فقال لي:

ـ «لاحظ يا سيد فان ويدين.. ان جونسون يستميت كي يعود. هذا بحر عالٍ وما تلبث موجة عظيمة ان تقلب القارب رأسا على عقب، ويغوص هو وليش في عمق المحيط. اذ ذاك لن يستطيعا لا السباحة الى السفينة ولا الى اليابسة. هل فهمت؟»

لم اصدق ما يرمي اليه لويس.. هل ينكث لارسن بوعده الذي قطعه على نفسه؟ كان الاتفاق الأخير: الا يؤذيهما ولا اقتله! ولا رسن رجل يحفظ كلمته لكنه يتلذذ بالانتصار واذلال الاخرين، وعلي ان احمل مناورته على هذا المحمل.

كنت ألاحظ السفينة تقترب حيناً من القارب بأن تبطىء سيرها، وتبتعد عنه حينا بأن تسرع. وهذا ما رجّح لدي ان لارسن لا ينوي شرا. لذلك اجبت لويس:

ـ «لا اعتقد ما تقول. سيعذبهما قليلا ثم يلتقطهما من الماء».

ـ «اهذا ما تراه انت؟»

ـ «بكل تأكيد. وانت؟»

ـ «انني اهتم بسلامة شخصي فقط في هذه الأيام».

كان جوابه غير حاسم، ومعنى ذلك أنه ظل على رأيه في المناورة. وقال:

ـ «الواقع ان عقلي مشوش بفعل الويسكي فهي تفعل بي مثل ما فعل منظر السيدة برأسك.»

ـ «ماذا تعني؟»

كنت اود أن أعرف منه ماذا أشاع ماكريدج عن تلك المسألة غير أنه فطن الى ذلك فأجاب:

ـ «لا اعني شيئا. ليس يهم ما أعنيه أنا بل ما يعنيه ويريده وولف لارسن يا سيد فان ويدين.»

ـ «اذا نشبت المتاعب فهل تكون الى صفي.؟»

ـ «الى صفك؟ ان لويس السمين يقف الى صف نفسه. لقد بدأت المتاعب وما زلنا في اول الطريق».

ـ «يا لك من جبان! ما كنت اظنك مخلوع الفؤاد يا لويس!»

ـ «اذا لم ارفع يدي لأشدخ رأس انسان فهل معنى ذلك انني جبان! هل تريدني أن أعارك من أجل سيدة لم تمسها يدي بعد؟»

شعرت باحتقار شديد لذلك الرجل، فهو يفكر في المتاعب للفوز بالمرأة لا لانقاذ من هم على وشك الهلاك في القارب. ما اقذره!! لذلك رشقته بنظرة فيها تقزز وقرف، وانصرفت.

كان من باب الانقاذ لي أن صاح وولف لارسن في تلك اللحظة:
- «انشر الشراع الكبير يا سيد فان ويدين.»

فقمت بذلك. ومن شأن هذا ان يزيد السرعة وييسِّر على السفينة تسلق أعالي الأمواج، لكن من شأنه أيضا أن يجعل ليش وجونسون عاجزين عن اللحاق بنا.

وزاد ارتفاع الموج.. وجعلت السفينة تعلو وتهبط والقارب يظهر ويختفي حسب علو الموجة التي تحمله. ومع هذا ظل في مدى نظرنا جميعا. لكن زخات كثيفة اخذت تتساقط الآن، وكان المطر غزيرا بحيث حجب القارب كما خلق اضطرابا في صفحة الماء. وما كاد ينقضي نصف ساعة من الزمن حتى كان القارب قد انعدم اثره ووجهُ الماء أسود من الشآبيب.

ونظرت الى وولف لارسن:

- «أين الوعد الذي اخذته على نفسك؟»
- «لقد وفيتِ به. هل مستهما يداي؟»
- «لقد وعدتَ ان لا تؤذيهما!»

- «كذلك فعلت. ان البحر العالي هو الذي قنطر القارب واهلك صاحبيه، فهل انا مسؤول عما يفعل سواي؟ هذا الى اني لم أفكر ابدا في ارجاعهما الى السفينة، وقد اخبرتك ان الطاقم المتوفر عليها كاف للخدمة. الا تذكر يا سيد فان ويدين حديثنا يومذاك؟»

تذكرت كل ذلك فأحزنني ذلك الغباء الذي ابديته في ذلك اليوم. لماذا لم افطن الى امكان التلاعب بالألفاظ ومضامينها!

انصرفت من عنده حزينا على فقدان رجلين لا ذنب لهما الا سوء الحظ يوم وقعا تحت يد «ذئب» مناور شرير.

وحين استعدت ما جرى ذلك اليوم وأنا اتمدد على فراشي وجدت ان لارسن كان صادقا مع نفسه الى أبعد الحدود. وطرقتني فكرة: «اي خطر تواجهه تلك المرأة المستسلمة للنوم في الحجرة من عقلية مثل عقلية لارسن وتصرفات فظة مثل تصرفاته! لقد شعرت اني مسؤول عنها وان رجولتي تفرض عليّ ان أحميها من كل أذى مهما كان الثمن الذي ادفعه، لكني آثرت الانتظار وعدم استباق الأحداث. فقد يتصرف لارسن بطريقة غير متوقعة. ان الرجل مزاجيّ متقلب أحيانا فعليّ بالصبر والانتظار.

الفصل العشرون

مضت بقية النهار دون حادث يُذكر ، فبعد ان رطّبت الزوبعة خياشيمنا اخذت تخف وتتلاشى ؛ وتَسلَّمَ المهندس ورجال الزيت الثلاثة اطقم شغلٍ من مستودع «الشبح» وباشروا عملهم في قوارب الصيد ونوبات الحراسة على السفينة، ثم قبلوا ان يتكوموا في المهجع للمبيت . نعم كانوا يرفعون اصواتهم بالاحتجاج احيانا، لكن مقابلةً مع وولف لارسن كانت كفيلة بخفض تلك الأصوات .

وتبقى الآنسة مود بروستر التي عرفنا اسمها الكامل من المهندس . كانت في حاجة شديدة الى الراحة فظلت نائمة حتى صبيحة اليوم التالي . وفي موعد الغداء كنت انوي اصدار تعليمات الى ماكريدج أن يقدم لها وجباتها في حجرتها، لكن وولف لارسن تدخل في الموضوع معترضا : من هي حتى تترفع عن مشاركة رفاق السفينة على المائدة وفي الحديث؟!

والحق ان وجودها في صالة الطعام كان فيه شيء من التسلية وبعض الإحراج .

فالصيادون كتموا انفاسهم ولم ينطقوا بكلمة . أما جوك هورنر وسموك فلم يتهيّبا من حضورها، وكانا يختلسان اليها النظر من زوايا عيونهم ويشاركان في الحديث احيانا . وأما الأربعة رجال الآخرون فقد سمّروا جفونهم بأطباق طعامهم فلم يرفعوا نظرهم اليها على الاطلاق . كان الواحد منهم يلوك لقمته ويمضغها واذناه تتحركان مثل اذني القط النهم .

وماذا عن وولف لارسن؟ لم يكن يتكلم الا حين يوجَّه اليه الحديث . لكنه لم يبد عليه اضطراب ولا تهيب . على العكس من ذلك كان واثقا من نفسه كل الثقة، لكنه اعتبرها انموذجا جديدا على مجتمع ظلّ يعاشره سنواتٍ عديدة، مجتمع البحارة والصيادين، فهو يريد ان يدرسها بعمق . لذا كان نظره لا يرتفع عن وجهها الا ليحط على يديها الصغيرتين وحركة كتفيها الدقيقين . ولقد راقبت ذلك منها مثل وولف لارسن .. لكن بخجل لا بفضول جريء مثله، كنت أنا الذي ادير الحديث على المائدة لكني ظللت اتهيب . اما وولف لارسن فكان ينظر الى المرأة مثل نظره الى العاصفة .. فهو يتحدى، ومستعد دائما للقتال . وقالت الآنسة بروستر وهي تنظر في عيني لارسن مباشرة :

ـ «متى نصل الى يوكوهاما؟»

هكذا القت القنبلة .. عند ذاك توقفت الفكان عن المضغ والأذنان عن الاهتـزاز وصار الصيادون كلهم آذانا صاغية . وكان رد لارسن :

ـ «خلال اربعة اشهر، وربما ثلاثة فقط اذا جاء الموسم جيداً» .

وسحبت المرأة نفسا عميقا من الدهشة ثم تلعثمت وهي تقول:

ـ «قيل لي إن يوكوهوما على مسيرة يوم واحد!»

وتطلعتْ الى وجوه الحاضرين فرأت فيها عدم التعاطف معها فتابعت :

ـ «اذن كان انطباعي غير صحيح؟»

ـ «ذاك امر يمكن الاتفاق بشأنه مع السيد فان ويدين، فهو مرجع موثوق في مثل هذه الأمور، الصحيح وغير الصحيح.»

قال لارسن ذلك وهو يرشقني بغمزة تبينت فيها الخبث مع سخـرية مبـطنة. ثم استطرد كلامه موارِبا:

ـ «لست الا مجرد بحار ..من ثم فقد انظر الى الموقف من زاوية مختلفة. لربما انه من سوء حظك ان تبقي معنا ايتها السيدة لكنّه من حسن حظنا على التأكيد.»

قال ذلك وابتسم لها مجاملاً، فغضّت من بصرها ثم نظرت اليه بتحدٍ ظاهر. كانت تود اجابة عن السؤال الذي أحاله لارسن الي: هل هو صحيح؟ وكنت قد قرّرت ان اتخذ موقف الحياد في كل ما يجدّ من أوضاع على السفينة.وقالت:

ـ «هل هو صحيح، ماذا تعتقد يا سيد؟» ولم تذكر الاسم. فأجبت:

ـ «من سوء الحظ انه كذلك، وبخاصة اذا كانت لديك ارتباطات محددة في بضعة الأشهر التالية. لقد فهمت انك تقومـين بالرحلة من اجـل المتعة والاستجمـام لاعتلال صحتك. فلا فرق اذن بين ان تكوني على سفينتنا ام على غيرها».

ورأيت عينيها تلمعان بالإهانة لي، فكان دوري انا أن أخفض بصري هذه المرة. ماذا كان بوسعي ان افعل؟ وهنا انقذ لارسن الموقف كعادته فقال:

ـ «ان السيد فان ويدين يتكلم بصوت المسؤولية الواثقة.»

ثم ضحك.. فأفسد بذلك من الموقف ما كان اصلح. عند ذاك أومأت برأسي مؤيدا تعليقه وتجاهلت معنى ضحكته الساخرة. وبدأ ان موقف السيدة قد تحسّن، لكن لارسن استطرد كلامه غير المرغوب فيه:

ـ «اقول (صوت المسؤولية الواثقة)، هذا في الوقت الحاضر، ولو شاهدتـه يـوم صعد أول مرة الى ظهر هذه السفينة لاختلف الأمر. كان انموذجا متهالكا من انسان يثير الشفقة يومذاك. اليس هكذا يا كيرفوت؟»

فوجىء كيرفوت الصامت بطبعه من توجيه الحديث اليه فوقعت السكين من يده، ورنت على حافة الطبق، ثم سقطت الى الأرض. وكانت اللقمة في فمه فلم يستطع الكلام واكتفى مؤمّناً بالاشارة.. ووفر ذلك فرصة طيبة لنشاط لسان لارسن فتابع كلامه:

- «انظري اليه الآن، نعم انه ليس من اصحاب العضلات المفتولة لكنه قوي الى حد ما، اقوى بكثير مما كان يوم جاء الى «الشبح». كذلك صار له ساقان يمشي عليهما، اما يومذاك فما كان بمقدوره ان يقف وحده.»

انسحب الصيادون عن المائدة.. ونظرت اليّ السيدة بعين الشفقة فكان ذلك تعويضا سخيا عن سماجة لارسن في حديثه الهازىء. ومن الغريب انني استمرأت ذلك الحنو المشفق وأسَرَني، فبت خاضعا لها خضوعا مطلقا. غير انني ظللت حانقا على لارسن ومن محاولته امتهان ذينك الساقين اللذين يتباهى بأنه هو الذي منحني اياهما. ماذا أفعل؟ سأرد بجرأة وقلت:

- «نعم لربما أنني تعلمت الوقوف والسير على ساقي، لكن هاتين الساقين تستطيعان ايضا ان تدوسا بعض الناس.»

وفطن لارسن الى ما وراء هذه العبارة فانتفض قائلا:

- «اذن فلا زال تعليمك ناقصا يا هذا. انك لم ترشُد بعد.»

ثم التفت الى السيدة قائلا:

- «نحن اصحاب مروءة وكرم على ظهر «الشبح». لقد خَبَّر ذلك السيدُ فان ويدين.. ونحن نفعل كل ما من شأنه ان يجعل ضيوفنا يشعرون أنهم في بيوتهم. اليس كذلك يا سيد فان ويدين؟»

- «نعم، الى درجةٍ جعلهم يقشرون البطاطا ويغسلون الصحون. هذا عدا المخاصمة معهم وما يتبع ذلك».

وود لارسن ان يغير مجرى الحديث فاعترض:

- «ارجو الا تكوّني انطباعات سيئة مما يقوله السيد فان ويدين. ستلاحظين يا آنسة بروستر انه يحمل خنجرا في بطانة حزامه. وهذا شيء غير مألوف من ريس البحارة في سفينة! ان فان ويدين كثير المشاكل والمشاحنات لكن الاجراءات الصارمة ضرورية في بعض الأحيان. هو الآن هادىء وعلى قدر من التعقل يجعله لا ينكر أنه هدد حياتي بالأمس. لقد قال انه سيقتلني.»

كنت على وشك ان اختنق.. فهو يخزني بسكين حادة تنطوي عليها كل كلمة ينطقها امام هذه المرأة الغريبة. لماذا؟ ما الذي يقصده من تشويه صورتي في نظرها؟ لماذا جلب انتباهها الى شخصي؟ وتابع لارسن:

- «انظري اليه الآن، انه لا يكاد يمسك نفسه في حضرتك، فهو لم يتعود مجالسة السيدات. وعليّ أن اتسلح لحماية نفسي منه كلما صعدت معه الى السطح.»

وهز رأسه بحزن وأسف. وانفجر الرجال ضحكاً من قيامه بهذا الدور التمثيلي السخيف، اما أنا فكنت أغلي كالمرجل على نار مشبوبة.

كانت اصوات رجال البحر الداوية في مكان محصور تترك اثراً عميقاً وحشيا، بل ان الوسط كله كان وحشيا غريبا. ولأول مرة فكرت في ظاهرة التنافر الذي يخلقه وجود تلك

المرأة في هذا الوسط، وفطنت الى أنني انا شخصيا جزء من الوسط نفسه! فقد عرفت هؤلاء الرجال وطرائق تفكيرهم. أنا واحد منهم أعيش حياة صيد العجول وآكل من أجر صيد العجول وافكر تفكير محترف في صيد العجول ايضا.. ومن ثم لم أعد أشعر بغرابة هذه الحياة ولا غرابة هذا الوسط: لا في الملابس الخشنة ولا الوجوه المتجهمة ولا الضحك المتفجر، ولا جدران صالة الطعام والمصابيح البحرية التي تظل تتأرجح.

وفيما كنت أفرد بعض الزبدة على قطعة من الخبز وقعت عيني على يدي وهي تتحرك بسكين المائدة. كانت عقد اصابعي منتفجة بالالتهاب والقشب، واصابعي متورمة وأظافري ممتلئة تحتها بالسواد.. وشعرتُ بلحيتي الكثة النامية وكأنها طراحة محشية تحت جلد رقبتي، كما لاحظت أن كمّ قميصي ممزق الأطراف، وان احد ازرار القميص قد هرب. وحتى الخنجر الذي اشار اليه وولف لارسن احسست به ثقيلا معلقا عند الورك. كان طبيعيا لديّ قبل هذه اللحظة ان يكون الخنجر هناك، أما الآن فقد بدا الأمر غير طبيعي على الاطلاق. ولو نظرتُ اليه بعينيها هي لقدرت كم يبدو ذلك غريبا فعلا.

مع كل هذا الوضع المزري فقد رمقتني الآنسة بروستر بنظرة ودية وتجاهلت سخرية وولف لارسن .. لكني لحظت في نظرتها شيئا من الانجذاب لولا أن السخرية جعلت الموقف محيرا. وقالت:

- «لا بأس قد تتيسر لي سفينة مارة تأخذني معها.»

- «لا تمر من هنا الا سفن صيد العجول يا آنسة بروستر. أنا القبطان وأعرف ذلك جيداً.»

- «ليس معي ثياب. وانت تعرف أنني لست رجلاً ولست متعودة على الحياة الخشنة غير المبالية التي الحظها عند رجالك يا سيدي».

- «كلما اسرعتِ في تقبّلها والتعود عليها كان ذلك خيرا لك. أنا أزوّدك ببعض القماش والإبر والخيطان، ولا أظنه عملا مرهقا أن تخيطي لنفسك رداء أو اثنين. ذاك يكفي.»

قوقأت الآنسة بر وستر بفمها أنها لا تعرف التفصيل والخياطة، ولاح على وجهها فزع تريد ان تخفيه. لكن لارسن ما كان يهتم بمشاعرها، وقال:

- «اظن انكِ شأن السيد فان ويدين سابقا كان لديك من يسهر على خدمتك حتى في اصغر الأمور. حسنا، لكن بعض الأعمال الصغيرة مثل خياطة رداء لن تخلع أيا من مفاصلك! ماذا تعملين لكسب قوتك؟»

ونظرت اليه الآنسة بدهشة واستغراب. اذ ماذا تعمل امرأة لكسب قوتها؟ هل يعني شيئا غير أخلاقي! وفطن لارسن الى هذا الاحتمال فاستدرك:

- «أنا لا اقصد الاساءة اليك، صدقيني، الناس يأكلون، ومن ثم فان عليهم ان يعملوا شيئا لقاء طعامهم.. هذا ما عنيته لا اكثر. هؤلاء الصيادون يصيدون العجول ليعيشوا، ولنفس الغرض اقوم أنا بالإبحار في هذه السفينة، والسيد فان ويدين في الوقت

الحاضر على الأقل- يقوم بمساعدتي في العمل كي يعيش. فماذا تعملين أنت؟»

ضحكت الآنسة وهزت كتفيها، فقال لارسن:

- «هل تقومين بالانفاق على نفسك او ينفق عليك غيرك؟»

- «لقد انفق عليّ غيري معظم حياتي».

وضحكت ثانية، محاولةً مسايرة لارسن والدخول معه في حديث النّد للند، لكني لاحظت الفزع ما زال يرتسم على وجهها. وقال:

- «واظن ان غيرك يجهز لك الفراش أيضاً!»

وانتفضت «الأنثى» عند كلمة «فراش» قائلة:

- «كلا انا الذي أمهد فراشي.»

- «كثيرا جدا؟»

وحركت رأسها مستنكرةً غاضبة.. لقد راعتها عبارته. وقال لارسن:

-«هل تعرفين ماذا يفعلون بالفقراء في الولايات المتحدة الذين هم مثلك لا يعملون من أجل طعامهم؟»

- «أنا اجهل ذلك. ماذا يفعلون بأمثالي ممن لا يعملون من اجل طعامهم؟»

- «يرسلونهم الى السجن بتهمة التشرد والتسول. لو كنت أنا مثل السيد فان ويدين يظل يبحث عن الصحيح والخطأ، الحق وغير الحق - لسألتك: بأي حق تعيشين وانت لا تقومين بعمل يردّ نفقة عيشك؟»

- «ما دمتَ أنت لست فان ويدين فليس عليّ أن أجيب عن سؤالك.»

كان ردها حاسما هذه المرة. لقد اثقل عليها لارسن في استجوابه فردت عليه بجفاء، بل وفي نبرة من ينتهر محدثه السمج الذي يتعمد المضايقة والازعاج. غير أن لارسن لم يبال بذلك وقال:

- «هل كسبت في حياتك دولاراً واحداً من جهدك الشخصي؟»

- «نعم، أعطاني أبي دولاراً لأظل هادئة خمس دقائق وانا فتاة صغيرة.»

كانت تسخر منه هذه المرة وبخاصة حين اضافت:

- «وانت لا تنتظر من بنت ٩ سنوات ان تكسب اكثـر من دولار واحد في خمس دقائق !»

ضحك لارسن مما سمع، لكن ضحكته كانت وقحة فيها اصرار على المضايقة. فقالت:

- «كان ذلك منذ زمن طويل، اما الآن فانا أكسب ١٨٠٠ دولار في العام.»

عندما لفظت الآنسة بروستر هذا الرقم انفتحت احداق عيون البحارة واشرأبت اعناقهم.. تكسب هذا المبلغ! لهي جديرة بأن «يتفرج» عليها هؤلاء جيدا! حتى لارسن نفسه فوجىء بهذا الرقم. وقال:

- «تكسبين هذا المبلغ كمرتب او لقاء عملك بالقطعة؟»

- «لا، بالقطعة»

وحسب لارسن: ١٨٠٠ دولار في السنة = ١٥٠ دولارا في الشهر ثم قال:

ـ «حسنا. اعتبري نفسك تتقاضين هذا الراتب طوال ما أنت على ظهر هذه السفينة. ان «الشبح» ليست شيئا حقيراً».

لم تشكره ضيفتنا على ذلك ولم تعبّر عن موافقتها ولا رفضها لما عرض. فقال:

ـ «أنا آسف، لقد نسيت أن أسألك عن طبيعة مهنتك. ما هي الأصناف التي تتعاملين بها والأدوات والمواد التي تحتاجينها في العمل؟»

ـ «حبر وورق» ثم ابتسمت مضيفة «وآلة كاتبة ايضاً».

ولا أدري كيف فطنت الآن الى القول:

ـ «آه، انتِ مود بروستر تلك.. أليس كذلك؟»

ـ «نعم مود بروستر.. تلك. لكن كيف عرفتَ ذلك؟»

الآن كشفت ضيفتنا الغريبة عن شخصيتها الحقيقية: الكاتبة والأديبة مود بروستر، فكان على وولف لارسن ان يعجب ويحتار. اما أنا فقد كنت فخورا لأن الاسم يعني شيئا معيناً أعرفه واحترم معرفتي له. من ثَم شعرتُ بموقفي الأفضل من موقف لارسن.. فمن حيث الكتابة في الأدب، ليس لصاحبنا من نصيب. وقلت:

ـ «أنا اذكر انني كتبت تقريظا لمجلد ادبي صغير منذ فترة و..»

وقاطعتني قائلة:

ـ «اذن أنت!. أنت همفري فان ويدين! هذا صحيح!»

ـ «نعـــم.»

ـ «ما أعظم سروري بك.. انا اتذكر ذلك التعليق الأدبي.. لقد كان كلّه تقريظاً ومجاملة لطيفة..»

انطلقت الآنسةُ بروستر على سجيتها الآن ولم تنتبه الى ما قد يفسره الآخرون من عبارة «ما أعظم سروري بك» فقلت:

ـ «لم يكن في التقريظ مجاملة ابدا، انما هاجت قصائد الديوان قريحتي واثارت فيها شجى انطلقت منه حين كتبت التقريظ. الم يعتبر زميلنا الناقد الأدبي لانج قصيدتك «قبلة محتملة» من اروع المقطوعات في الأدب النسائي في اللغة الانكليزية!»

ـ «لكنّك سميتني «السيدة مينيل الأمريكية» الشاعرة رفيعة القدر، وانا لم ارتقِ الى مستواها بعد..»

ـ «كان هذا حقا لك. أنا اعتبره كذلك.»

ـ «لا أعني هذا وانما أعني انك الحقت بي أذى.»

وفطنت الى ما شاع عن اخلاق الشاعرة مينيل فقلت:

ـ «انما يقيس النقدة الأدبيون الكاتبَ أو الشاعر غير المعروف بمقارنته بالمشهور. ولقد ذاع صيتك الآن فاصبحتِ مقياساً يقارَن به الآخرون. ان سبعة دواوين ومجلدات صغيرة تضم اشعارك ومقالاتك على رف مكتبتي الآن، وكلها من الأدب الرفيع: الأشعار والمقالات. ولن يطول الوقت حتى تظهر اديبة مثلك في بريطانيا فيقول عنها النقاد الأدبيون

هناك: ها هي مود بروستر بريطانيا.»
- «هذا لطف كثير من جانبك. أنا متأكدة من ذلك.»

والواقع أنني شعرت بارتياح نفسي كبير حين استعدت عالم الشعر والأدب، ولو في الخيال، وتصورت نفسي على الجانب الآخر من المحيط،في امريكا، على اليابسة، وسط جمهور من المهتمين بالثقافة والنشاطات العقلية الأصيلة. وعند ذاك غمرني احساس بالحنين الى الوطن. لذلك لا أدري لماذا قلت:
- «آه، اذن انت مود بروستر!»
- «آه، واذن انت همفري فان ويدين! انه لغريب، نلتقي هنا في هذا المكان الذي لا يتوقعه احد! اظن القراء ينتظرون رواية بحرية عجيبة من قلمك السيال الرصين، هل تقوم بالرحلة لهذا الغرض!»
- «كلا، انا لا اجمع مادة لرواية من هذا القبيل في الوقت الحاضر على الأقل، فلا اجد نفسي ميالاً الى كتابة قصة خيالية على الاطلاق».
- «قل لي. لماذا دفنت نفسك على الدوام في كاليفورنيا؟ لماذا قصرت نشاطك على التواجد في تلك الناحية! ليس هذا عدلا منك، فنحن سكان المناطق الشرقية من الولايات المتحدة - لم نرك الا مرات قليلة. هل يجوز هذا من.. من عميد كتاب المقالة الأدبية في امريكا، الثاني!»
انحنيت تواضعا وأدبا، فأنا لست أهلاً لهذا الاطراء العظيم، واعتبرت كلمتها مجاملة مشكورة وقلت:
- «اظنني قابلتك مرة في فيلادلفيا بخصوص الشاعر براوننج.. كنت ستلقين محاضرة او حديثا أو شيئاً من ذلك عن الرجل، لكن موعد قطاري تأخر اربع ساعات كما أذكر.»

بعد هذا التعارف غير المنتظر تطرق بنا الحديث الأدبيّ الى مجالات شتى ولم نفطن الى وجود لارسن معنا. فذاك عالم رحب خاضت فيه مود بروستر وهمفري فان ويدين، أما الغريقة الناجية بفضل سفينة لصيد العجول وهمب ثم ريس البحارة - فلا مكان لهما في ميدانه. كذلك وولف لارسن، فهو اجنبي غريب عن فراديس النشوة الأدبية حين يلتقي مَن طال ما رتعا في جنانها. وقد ظللنا في ذلك الحلم حتى شدتنا خيوط الواقع. ها هما عينا وولف لارسن زائغتان على الطاولة قبالتنا.. ثم ها هما تتحولان الى عينين متقدتين. اذن فالرجل يستنكر من تجاهله.. وقد ندفع ثمنَ ذلك. غير ان لارسن كان دائما صادقا مع نفسه. ها هو ينهض من على مقعده ثم يحملق فينا ويقول:
- «لا بأس. استمرا في حديثكما. تابعا نقاشكما. لا تهتما بشأني. أنا لست منزعجا ولا غاضبا».

قال لارسن هذه الجملة وكأنه ختم بها قرائحنا بقفل على بوابة. لقد ألجم لسانينا معا وطارت من رأسي أنا كل فكرة جميلة كنت أود التعبير عنها. وهكذا نهضت الآنسة بروستر ونهضت معها ونحن نكاد ننفجر ضحكا على غباء الصدف.

الفصل الحادي والعشرون

رغم ما اتسم به لارسن من صدق مع نفسه وشبه موضوعية في تصرفه مع الآخرين فقد خلّف تجاهلُنا انا والآنسة بروستر ـ له في الحديث ـ مرارة في نفسه. لا بد أن يجد الرجل متنفسا لتلك المرارة. على رأس من سيقع ذلك الحقد المكبوت؟ كان توماس ماكريدج هو الضحية التاعسة الحظ، فهو لم يبدّل من اسلوبه في الخدمة ولم يستبدل قميصه القذر، كما ظلت الشحوم والدهون تلطّخ الطناجر والمقلايات والصحون.. وها هو لارسن يفطن الى كل ذلك:

«لقد حذّرتك يا كوكي، لكنك لم تأخذ بتحذيري. الآن عليك ان تلقى جزاء عفونتك واهمالك».

شحب وجه ماكريدج تحت طبقة السناج الذي تكسوه مما سمع، وحين دعا وولف لارسن بقطعة من حبل واثنين من البحارة ـ هرب كوكي التاعس من صالة الطعام وقفز الى السطح يتبعه البحاران مثل كلاب الأثر. كان البحارة جميعا متشوقين الى معاقبة كوكي، اذ كان الطعام الذي يقدمه على المائدة زنِخاً والمقبّلات التي يعدها منفرات تماما. كانوا يريدون ان يربطوه بالحبل ثم يلقوه في البحر لتسحبه السفينة وهي تعلو وتهبط في امواج عاتية. ولربما شاهد كوكي رفاقا له في المهنة يلقون مثل هذه العقوبة.. لكن الماء الآن كان شبه متجمد كما كانت بِنيته لا تقاوم هذه القسوة.

وبدا ان المناوبين في الحراسة ينظرون الى معاقبة ماكريدج على هذه الصورة باعتبارها نوعا من التسلية وعبث رجال البحر، اما هو فكان شديد الخوف من النزول في الماء. وقد عبّرت شدة خوفه عن نفسها في شكل رشاقة في الحركة وخفة في الهرب. ها هو يقفز الى ظهر الكابينة ثم ينحدر الى مؤخرة السطح ويركض الى المقدمة قاصدا ان يرتقي خشبة الصاري. وحين اعترضه هاريسون يود امساكه رفسه كوكي بكلتا رجليه فألقى به يتلوّى من الالم. وكانت الرفسة في قاع بطن هاريسون، اي في مقتل منه، او دون الحزام كما يقول المصارعون.

وقد ضحك المطاردون على هاريسون واعجبتهم خفة ماكريدج، لكنهم لم يكفوا عن

المطاردة. اما هو فكان يزوغ منهم جميعا وهو يركض على السطح وكأنه في ملعب كرة قدم، يداور ويحاور بخفة اعجزتهم عن الامساك به وأبقته في مأمن من ان يشدوه بالحبل.

وفي احدى زوغاته استطاع نلسون ان يمسك به، غير ان ماكريدج الذي تحول الى كتلة من العصب كوّر جسمه وتدحرج على الارضية، ثم دفع نلسون فأوقعه ارضا واستطاع الافلات منه. وهكذا نهض ماكريدج هاربا في حين كانت الدفعة عنيفة فلم ينهض نلسون.. كان ذلك في صالح ماكريدج الذي لم يجد مكانا للنجاة الا ان يتسلق الدقل نفسه. وإلى هناك جدّ في اثره اوفتي وبلاك،مجدف قارب الصيد العائد الى لاتيمر، فتسلّقا الخشبة وراءه.

كان من العجيب جدا ومن غير المتوقع من ماكريدج ان يصعد الدقل بهذه الخفّة و السرعة التي تعجز عنها السعادين. ها هو يرتقي بيديه ورِجليه معا وكأنه يمشي فوق ارض منبسطة. يا للخوف ما أشدّه من حافز على الحرص على الحياة! لكن الى اين؟ ان رأس الدقل خشبة مدببة. اذن فهي محدودة الارتفاع في السماء. واذا ما بلغها المسكين الى أين سيفر بعد ذلك! هذا عدا ان الرجلين اللذين يطاردانه اقدر منه على الصعود. هل يغامر بان يطوح بنفسه في الهواء على عراضات الشراع! من يضمن له السلامة حين يقفز في الهواء على علو ماية قدم فيما السفينة ترتج وتتأرجح بفعل الامواج! اذن من الافضل له ان يظل متعلقا بخشبة الدقل.

الى هناك كان يلحقه المطاردان. ها هو اوفتي يقترب من حيث يتعلق ماكريدج.. لكن ماكريدج يرفس يدي اوفتي فيزيح احداهما من موضعها. هكذا بات اوفتي معلقا بيد واحدة، فهل تكفي لحمله! لو وقع من هذا العلو الشاهق لكان في ذلك نهايته. ومع هذا فها هو بلاك يسند اوفتي فيعيد اوفتي يده الى موضعها. وتتأرجح رجل كوكي حول خشبة الدقل لتضرب اي يد تحاول الارتفاع. لكن ها هي ذراع اوفتي القوية تمسك القدم.. انه يثبتها ويشدها الى خشبة الدقل. ثم ها هو بلاك يمسك القدم الاخرى. مسكين كوكي!! لقد نجحا في امساكه! ويشد كل من اوفتي وبلاك بقدم.. فيضطر كوكي الى ان يسحل من موضعه. وهكذا يأخذ الثلاثة في النزول. ولا يستمر ذلك الا قليلا ثم يرتطمون جميعا بخشب السطح. عند ذاك لا يدري كوكي اي يد هي التي تقبض عليه، لكنها يد لارسن الذي كان ينتظر عند قاعدة الدقل. واذا كان هنالك امكانية لأن ينفلت المسكين من قبضة اوفتي او بلاك ـ فإن قبضة لارسن لا يفلت منها احد.

ان البحارة والصيادين والحرّاس جميعا يتضاحكون حول الدقل.. ها فأر قد وقع في المصيدة، وما عليهم الا ان ينتظروا مشهدا رائعا من العاب التسلية والمجون.

لقد جاء لارسن بقطعة الحبل ثم ادخلها تحت إبطي كوكي وشد الانشوطة حول كتفيه. وحين قاست بكرة الحبال ٦٠ قدما أمر لارسن ان يُلقى بالمسكين في البحر. وهكذا غاص كوكي مكرَها ٦٠ قدما، ثم أمر لارسن بانتشاله الى السطح لانه في حاجة الى الهواء.. كان كوكي لا يكاد يسحب نفسا واحدا او اثنين حتى تتسلق السفينة قمة موجة، فيغطس المسكين تحت الماء وتسحبه حركة السفينة الى الامام. كان غارقا لكنه ليس غريقا. فهو غير

مسموح له ان يغرق وغير مسموح له ان تمتلىء رئتاه بالهواء. هـذا هو العـذاب الذي اخترعه له لارسن وها هي التسلية الممتعة التي يضحك عليها بحارة الشبح.

مالي استرسلتُ في وصف شيـطانية لارسن ولم افـطن الى وجود بـروستر عـلى السفينة! الآن تذكرتها.. هي تمشي على السطح ثم تتقدم الى حيث يتجمهر البحارة قريبا من حافة السفينة يتفرجون على كوكي. وحين رأت المسكين يغوص مرة ويبرز اخـرى، وسمعت ضحكاتِ الرجال المتندرة بظهوره فوق الماء ـ ودّت الآنسةُ بروستر ان تفهم ما يجري، فسألت:

ـ «ما سبب هذه المتعة والتسلية؟»

كانت نبرتها تُشعر بالتقزز والقرف مع ان الآنسة لا تعرف واقع الحال. وقد وجهت سؤالها الي، ربما كرها منها في التحدث مع لارسن. فقلت:

ـ «اسألي القبطان لارسن ايتها السيدة؟»

واستدارت فعلا الى لارسن لتكلمه، لكن اوفتي هو الذي واجهها في تلك اللحظة. كان جسمه المشدود وعضلاته المتوفزة هي التي وقع نظرها عليه من ذلك الرجل. وأعجبها كمال رجولته لكنها قالت له:

ـ «هل تقوم بصيد السمك ايها الرجل؟»

لم يجبها اوفتي، بل ربما لم يسمع كلماتها اصلا، فقد كان محدقا في الماء يركز كل اهتمامه فيه. وفجأة صاح:

ـ «سمكة قرش يا سيدي!! ها هي!»

وجاء امر لارسن على الفور:

ـ « اسحب. شد الحبل. ارفع الرجل. كل الايدي معا».

كانت اول يد تعمل الآن هي يد لارسن نفسه. الجميع يشد، فالخطر محدق وقد تتحول العقوبة الى جريمة.

سمع كوكي صيحة اوفتي، حيث كان على السطح في تلك اللحظة، فقفز الى الامام في الماء قفزة عملاقة لا تقفزها الا حرارة الروح. لكن السفينة ارتفعت بفعل موجة عالية، فغاص المسكين في الماء مرة ثانية. كان الصراع قائما الآن: قوة سواعد الرجال تسحب الحبل وقوة اندفاع القرش تطارد ذلك الحبل. اليس هناك طعم معلق بـه!! هكذا تفهم سمكة القرش. لمن تكون الغلبة يا ترى.. ان ذراع لارسن جبارة فعلا، لكن توتر جسم سمكة القرش جبار ايضا. ليس هنالك معركة الا وفيها خاسر، فمن سيكون هذه المرة؟

بنترة عنيفة توترت منها عضلات ظهر لارسن برز رأس كوكي من الماء، وبنترة ثانية تم سحبه الى صفحة السفينة عند افريزها. ثم مد لارسن ذراعه فانتشله من الماء. لكن، هل انتشله كله؟ مع الاسف.. على السطح حيث تكوّم جسد كوكي كان خط احمر طويل

وعريض تغذّيه دفقات شريان او وريد كبير. فقد بترت سمكة القرش قدم كوكي من الكاحل!

هذا ما رأته مود بروستر في تلك اللحظة. وراعتها تلك الوحشية وشعرت انها ستفقد الوعي، فمدّت يدها الي مستنجدة، فاسندتُ جسدها قبل ان يسقط الى الارض. ثم انني حملتها الى مقعد في الكابينة ريثما تستعيد قواها، وتركتها هناك.

وهذا ايضا ما شاهده لارسن.. فتأثر به وصاح:

- «الآن يا سيد فان ويدين، اظهر براعتك.»

لا ادري لماذا ترددت في الاستجابة لأمره، ربما استنكارا للجريمة وربما بعامل الحقد الشخصي ضد طغيانه. لكن الآنسة بروستر نظرت الي وكأنها تقول:

- «المسكين، ما ذنبه؟ ساعده.»

باشرت العمل في التو. وما هي الا بضعة ارشادات من لارسن وبحاران، وعدد من المساعدين، حتى كنت قد قطبت القدم المبتورة بعد ان اوقفت النزيف. ثم انني ضمّدت موضع البتر وقطعت اللحم المشرشر من آثار اسنان الوحش البحري حين قضم لقمته. بعد ذلك لففت كامل القدم بقماش جاؤوني به من صيدلية السفينة وامرت ان يعطى كوكي قليلا من الويسكي وبعض الحساء الساخن، كما حقنته بالمورفين.

والآن.. علي ان اعود الى لارسن. لقد انتصرت عليه سمكة القرش، فهل يتقبل الهزيمة؟ كلا طبعا. لقد حقد عليها. فما اسرع ان جاء بكلّاب كبير على شكل قوس فشبك به قطعة كبيرة من لحم الخنزير جعلها طعما، ثم القاه في الماء حيث كانت السمكة. وسرعان ما هجمت سمكة القرش وعضت بكل اسنانها. هكذا عَلِق الكلّاب الضخم في سقف حلقها، من اعلى ومن اسفل، فباتت اعجز من ان تبلعه واعجز من ان تخرجه. ثم ان لارسن قطع الحبل الذي يشد الكلاب بالسفينة وترك سمكة القرش حرة في البحر. لكن.. اية حرية هي هذه! ان السمكة حرة في ان تموت جوعا، فالكلاب الحديدي الكبير يمنعها من ان تطبق فكيها. اذن فهي حرة عاجزة، ما اسرع ما يهاجمها سمك القرش المتوحش من امثالها فينهشها قطعة قطعة. اذ ذاك تتمزق تلك السمكة اشلاء وهي ما تزال حية تتنفس. فهل هناك اشد ايلاما من هذه العقوبة!! لقد قضمت قدم رجل من رجال لارسن فكان عليها ان تدفع الثمن. وهذا هو الثمن الذي فرضه «ذئب الشبح» على سمكة قرش طولها ١٦ قدماً.

الفصل الثاني والعشرون

كنت أقدّر ما ستفكر فيه مود بروستر تلك الليلة. وقد صح ما قدرته بالفعل. ها هي تنهمك في حديث حاد مع المهندس الذي التقطناه معها يوم جاءت الى الشبح، حتى اذا انتهى ذلك الحديث تطلعتْ اليّ الآنسة بروستر بتساؤل. كانت عيناها الواسعتان تحدقان في عيني. ماذا تريد؟ لا ادري. لكنني شعرت بشيء من الخوف مما تنوي ان تقوله لي. ولماذا لا اخجل لو حدثتني عن مسلكي على ظهر هذه السفينة وليس فيه شيء يبعث على الاعتزاز! لقد ظللت جباناً ذليلا في منزلة العبد عند الطاغية لارسن.

وأشرت اليها ان نتمشى عند مقدمة السفينة اذا كانت تريد الكلام. كنت اقصد بذلك ان نبتعد عن مسامع قائد الدفة، فقد يكون ذاك البحار عيناً لدى لارسن ينقل اليه كل كلمة.. وحين صرنا بمنجاة من استراقه للسمع سألتها:

ـ « في فمك شيء، فماذا تريدين ان تقولي؟»

ـ «اريد ان اقول: ان بتر قدم الطباخ كان حدثا غير محسوب حسابه، وان وجود سمكة قرش فتاكة انما جاء صدفة لم يكن يريدها قبطانكم ولم يفكر فيها ـ لكن السيد المهندس هاسكنز اخبرني ان رجلين اثنين قد أهلكا عن قصد قبل بضعة أيام، فماذا تقول في ذلك؟ ان في الامر جريمة، فما رأيك انت؟»

كان في كلماتها نوع من التأنيب احسست به يخز ضميري، فوقفت امامها موقف المتهم في قاعة المحكمة.. لا المتهم الفاعل وانما المتواطىء معه. وقلت:

ـ «ان ما اخبرك به المهندس صحيح مائة في المائة.. نعم لقد قتل الرجلان.»

ـ « وسمحت أنت بذلك؟»

ـ « كنت عاجزا عن منع وقوعه، اما انني سمحتُ به فكلمة غير دقيقة.»

ـ «لكنك حاولت ان تمنعه؟»

وشدّدتْ على كلمة «حاولتَ» ولم تترك لي فرصة للاجابة بل قالت: «أنت لم تحاول على التأكيد». ثم اضافت: «فلماذا؟» اذن انا متهم امامها بصراحة، فكيف ادافع امام قاض قانونه الضمير والمبدأ الاخلاقي وحده!

ضايقني هذا الموقف فقررت ان اشرح لها حيثيات القضية وظروفها قبل الدخول في مرافعة خاسرة، وقلت:

ـ «اسمعي يا آنسة بروستر، عليك ان تتذكري انك جديدة في هذا العالم الصغير القائم على السفينة، وانك لا تعرفين القوانين التي تسود فيه. لقد جلبتِ معك اليه مجموعة من المفاهيم النبيلة الانسانية، الرجولة، السلوك الشهم.. جلبت ذلك من عالم خارجي بعيد بالنسبة الى هذه السفينة، وسرعان ما تجدين.. ان هذه المفاهيم قيم مغلوطة تماما على ظهر «الشبح». هكذا فعلت أنا يوم جئت الى هذا المكان وهكذا وجدت بعد ان عشت فيه».

هزت الآنسة بروستر رأسها متشككة في ما اقول.. فسألتها:

ـ « ماذا تنصحينني ان افعل؟ اتناول سكينا او مسدسا او فأسا فأزهق بها روح لارسن؟»

ـ « كلا ليس مثل ذلك، فهو جريمة ثانية.»

ـ « اذن ماذا افعل؟ اقتل نفسي؟»

ـ « مالك يا سيد فان ويدين! انك تتكلم بعبارات دعاة المادية في كل شيء في الحياة. انا اعترض. هنالك شيء اسمه «الشجاعة الأدبية» ولا يمكن الا ان تترك اثرا في اي موقف. هذا ما اعنيه.»

ـ « آه.. انت لا تنصحين ان اقتله ولا ان اقتل نفسي! اذن تودين ان اتركه هو يقتلني! ان «الشجاعة الادبية» التي تتكلمين عنها لا تسوى شيئا على الاطلاق في عالم طافٍ على صفحة الماء. القوة، والقوة وحدها هي التي تحكم سطح السفينة وفي اعماق المحيط ايضا: قبضة لارسن واسنان سمكة القرش.

لقد كان «ليش» وهو احد الرجلين اللذين هلكا ـ يملك قدرا عظيما من «الشجاعة الادبية» التي تشيرين اليها، فأين هو الآن! ومثله كان رفيقه جونسون. لقد حطمتهما تلك «الشجاعة». وسيكون ذلك مآلي اذا ابديت القدر الضئيل الذي امتلكه من تلك «الشجاعة» هنا على «الشبح». ارجو ان تدركي ذلك جيدا.»

وددت ان استجمع انفاسي بعد هذه العبارة الطويلة فأطرقت قليلا ثم استأنفت المرافعة قائلا:

« يجب ان تعلمي يا آنسة بروستر وأن تعي جيدا ان هذا الرجل وحش متمرد. انه لا ضمير له ولا شيء مقدس في نظره. ليس هناك ما يعتبره منكرا فيتورع عن اقترافه.. هكذا هو. من جراء احدى نزواته بقيت معتقلا على ظهر هذه السفينة واستعبدني، فانا رقيق لديه الآن. ومن جراء احدى نزواته ابقاك انت على ظهرها فانت بمنزلة عبدة له ايضا. انني لا استطيع ان افعل شيئا ضده وكذلك لا تستطيعين. انا اريد ان ابقى حيا، وانت كذلك. وفي سبيل المحافظة على حياتي تجدينني استخذي. هذه هي الحقيقة».

ظلت الآنسة بروستر صامتة طوال هذا الحديث، لكن ملامح وجهها كانت تنم عن الاهتمام الشديد بما تسمع. اذن لقد أثرت فيها فصاحتي في المرافعة وصدقي الظاهر في

الدفاع. واستكمالا لذلك قلت:

« ماذا يبقى؟ ان دوري هو دور الضعيف العاجز: اظل صامتا واتقبل الرضوخ والذل، كما ستفعلين انت بدورك ايضا: تظلين صامتة وتُغضين على المهانة والاذلال. هذا كل ما نستطيعه اذا اردنا ان نظل أحياء. ليس النصر دائما من نصيب القوي وليس لدينا القوة الكافية لكي نقهر لارسن. اذن علينا ان نلجأ الى الحيلة وعن طريقها ننتصر عليه. اذا قبلتِ يا آنسة بروستر نصيحتي فهذا ما انصح به: نكون حليفين ضده، لكن سرا دون ان يلحظ شيئا من ذلك. ونتجنب استفزازه، لأنه وحش كاسر. ونظل نظهر له ودا مخادعا على الدوام كي نأمن شره،ثم ننتظر الظروف المواتية فيما بعد».

ـ « لم افهم ما تعنيه بالضبط.»

ـ « افعلي كما اقول لك.»

ولاحظتُ ان لارسن يتمشى على السطح جيئة وذهابا برفقة لاتيمر،فغيرت مجرى الحديث حتى ابتعدا عنا ثم قلت:

ـ «تخلصي تماما، في الوقت الحاضر على الاقل،من كل «الشجاعة الادبيـة» التي تتحمسين لها. لا تستثيري عداوةً هذا الرجل. كوني لطيفة معه ودودة تِجاهه في الظاهر. شاغليه دائما بالحديث عن الادب والشعر فهو يعشق ذلك، وستجدين ان لديه اطلاعاً واسعا ونفاذاً فكريا لا بأس به. تجنبي ان تكوني حاضرة عند قيامه بواحد من اعماله الوحشية، ذلك خير لك. انصرفي عندما تلاحظين الموقف متأزما او اقضي معظم وقتك في غرفتك».

ـ «اتريدني يا سيد فان ويدين ان اكذب على نفسي! أزيف شخصيتي، أتخلى عن قيمٍ عشت لها وبها! هذا ما تريد!»

ـ « ارجو ان تفهميني يا آنسة بروستر. افهميني حقا. ان كل خِبرتك السابقة مع الناس لا تسوى شيئا هنا. ابدأي الحياة من جديد. أنا اعلم ـ أستطيع ان ارى ـ انك اعتدت ان تسيطري على الغير بنظرة من عينيك، وان الآخرين كانوا يستجيبون لما تسمينه «التحكم بالذوق». هكذا فعلتي معي وسيطرتِ علي بمجرد النظر. لكن إياك ان تحاولي مثلَ هذا مع لارسن، فالسيطرة على أسد في الغابة ايسر من ذلك. لو جربتِ شيئا من هذا القبيل لجعلك «الذئب» اضحوكة في نظر الجميع. انا اعرف الرجل خيرا منك».

ولاحظت اقتراب لارسن من موضع وقوفنا فانعطفتُ بالحديث قائلا:

ـ « ان المحررين يمقتون العمل معه والناشرين يكرهونه ويرفضون نشر ما يكتب، ومع هذا وبعناده الذي لا ينثني ـ استطاع ان ينشر قصيدة له في احدى المجلات! واظنك تعرفين ذلك يا آنسة بروستر.»

ـ «اعرف ذلك، واعرف أن ما نشره كان شعرا من وزن شعر الجرائد لا اكثر.»

ـ «هذا صحيح، لكن الجميع قد اطلع عليه. بذلك يكون صاحبنا قد كسر الحاجز الذي يعوق الادباء الناشئين.»

واقترب وولف لارسن من مكاننا فالتفتّ اليه قائلا:

ـ « اننا نتحدث عن «هاريس» الشاعر الناشىء.»

ـ «حسناً، انا اذكر قصيدته التي قلد فيها القدامى. لقد كانت مجرد سرد للعواطف الحلوة، نمّت عن ايمان عميق بأوهام الانسان والغيبيات.»

ثم غير لارسن مجرى الحديث كاملا بأن قال:

ـ «ما دمتَ ههنا يا سيد فان ويدين فمن المناسب ان تمر على كوكي. اكشف على قدمه فهو يشكو ويتألم.»

هكذا ابعدني لارسن عن المسرح. لقد طردني. عرفت ذلك حين ذهبت فعـلا الى الطباخ فوجدته يشخر في نوم عميق بتأثير المورفين الذي حقنته به لتخفيف آلامه. وحين عدت الى السطح لاحظت ان الآنسة بروستر تتحدث الى لارسن بود، فسرّني ذلك. ها هي تنفذ ما نصحتها به. كما سرني ان تفعل شيئا ضد رغبتها اكراما لي وارضاء لمشاعري.

الفصل الثالث والعشرون

دفعت الريح القوية سفينة «الشبح» بسرعة الى قطيع العجول المحتشد هنـاك. ولقيناه عند خط العرض ٤٠° شمالا والجو العاصف يطرده صوب الساحل تحت ركام من الضباب الدائم.. كانت تنقضي عدة ايام متتالية لا نرى فيها قرص الشمس، ثم تكتسح العاصفة كل شيء وتبدو صفحة الماء لماعة مشرقة وينجاب كل اثر لغموض الضبـاب.. فندري اين نحن في الاوقيانوس الشاسع الامتداد. ويظل الحال هكذا يوما او اثنين ثم تتلوه ثلاثة ايام او اربعة يخيم فيها الظلام ويغدو الضباب كثيفا لا ينفذ منه بصيص من النور.

الصيد خطر في مثل هذه الظروف، ومع ذلك فقد كانت قوارب «الشبح» تنزل الى الماء كل صباح. وما تكاد تلامس صفحة البحر حتى يحجبها ركام الضباب. وتنطلق طواقمها مع غبش الفجر فلا يعودون الا في عتمة المساء، بل يتأخرون عن ذلك في كثير من الاحيان. هكذا كانت الظروف مشجعة لمن يريد الفرار من رجال القوارب. وهذا ما استغله «وين رايت» الصياد الذي ضمه لارسن الى «الشبح» بالاكراه.. انتهز خروجه في صبيحة يوم ضبابي بارد ولاذ بالفرار. وظل ينتقل مع رفيقيه من سفينة صيد الى اخرى حتى عاد الى سفينته الاصلية وتخلص من لارسن ومتاعبه.

سرتني هذه الفكرة. لماذا لا اهرب انا ايضاً! انني استطيع قيادة قارب صيد الى حيث تلتقطني سفينة اخرى. لكن، ماذا يحدث للآنسة بروستر بعدي! هل أتركها وحدها في جحيم لارسن على «الشبح»؟ كلا، طبعا. اذن ترافقني! عليّ ان ادبر امر اصطحابها معي في تلك الحال.

ما أسهل التفكير وما اصعب التطبيق!! هذا ما قلته لنفسي حين صحوت من تهويمة احلام اليقظة السابقة. اذ كيف لي ان اهرب وانا ريس بحارة! لقد فر «وين رايت» لأنه صياد، والصياد مسؤول عن طاقم القارب الذي يتسلمه من على السفينـة. اما «ريس البحارة» فلا يحق له البتة ان يخرج للصيد، ومن ثَم فهو لا يتسلم قاربا ولا يرافقه طاقم. وفكرت: لماذا لا احتال على لارسن فاجعله يكلفني بمرافقة قارب على سبيل المشاركة في الخدمة!؟ لكن، الن يفطن لارسن لتلك الحيلة؟ بلى، وعندئذ سيشـدد مراقبتي وتـدفع

الآنسة بروستر بعض الثمن في ذلك.

مالي اذكر بروستر كل حين! هل غدوت دائم التفكير فيها! لقد قرأت الكثير من الروايات الغرامية التي كان موضوعها امرأة واحدة بين مجموعة من الرجال على سفينة او زورق. لكني لم أنفذ الى مشاعر المرأة آنذاك، ولم اسبر احاسيس الرجال المتواجدين معها. كنت اظن ان رشاقة الاسلوب عند كتاب تلك الروايات هي لب الرواية لا صدقَ الاحاسيس فيها. وها انا الآن اواجه الموقف نفسه، وبخاصة ان المرأة هي مود بروستر التي راقت في عيني انوثتها الناعمة بعد ان خلبت لبي بمقدرتها الادبية الرفيعة. الآن يخرس «همب» وينطق «همفري» فان ويدين.

نظرتُ في الحال الراهنة: لا يمكن تصور شخصية اقل تواؤما مع الوسط الذي توفره «الشبح» اكثر من مود بروستر! انها انثى وسط مجموعة من فحول البشر يتعاملون مع فحول العجول. وهي رقيقة خفيفة كأنها من الاثير، لكنها قوية مسيطرة بنعومتها، رشيقة في حركتها مثل حزمة من النور. كانت تبدو لي وكأنها لا تنتقل من موضع إلى آخر من سطح السفينة على ساقين وقدمين، مثل بقية البشر، بل تتسرب من مكان إلى مكان بشفافية ملائكية، وخفة طائر يحط على الأرض لحظة هدوء الريح.

كانت في نظري مثل قطعة من خزف «درسدن» الثمين، ما أسهل ان تنشق أو تنكسر وما أعظم الخسارة حينذاك. وتذكرت يوم أمسكت ذراعها لأساعدها في الهبوط على السلّم، وخشيت ان تتقصف عظامها في يدي. لم أصدق أبدا هشاشة في التكوين منسجمة مع رقة في الفكر مثلما أجد الآن في مود بروستر. وهذا ما ينم عنه الشعر الذي تكتبه.. لقد قيمه النقاد الأدبيون انه «رفيع القدر، روحاني بالغ السمو، فيه عذوبة وصفاء»، وذاك يصدق على شخصها أيضا. اذ يبدو أن روحها تفيض على جسدها فيتجرد من «طينّيته» ويعود «روحاً نورانية» يكسوها محيط شفاف.

مالي عدت الى «همفري فان ويدين»؟ هل نسيت أم تناسيت أنني «همب»؟ وهل تتواءم هذه النفحة الشعرية مع واقع «الشبح»؟ إن على «الشبح» وولف لارسن.. فلماذا لا أعود الى الواقع المرّ!. دعني أقارن بين الشخصيتين: مود بروستر و وولف لارسن.

كانت الآنسة بروستر نقيضاً كاملاً «للسيد» لارسن. فهي كل شيء غيره، وهو كل شيء إلا هي. لقد لحظتهما يتمشيان مرة على السطح في الصباح، وشبهتهما بطرفي سلّم التطور والارتقاء في الجنس البشري: الأول خلاصة الوحشية والثانية رحيق الحضارة والتمدن. صحيح أن وولف لارسن يمتلك قدرا من الذكاء والموهبة، وقدرا كبيرا بحق، لكنه وجّه تلك الموهبة في خدمة غرائزه المتوحشة فزادت من فظاعته وقسوته. كان متين البنية، مفتول العضل، يسير بذكورة طافحة لأنها واثقة من نفسها تمام الثقة، لكنها تنقصها الرصانة والثقل. ان طبائع حياة الأدغال تختبىء وراء كل خطوة يخطوها حين يحرك قدمه. وهو أشبه ما يكون بنمر متحفز، يحط قائمته على الأرض في خفة المتسلل المتربص

للفريسة، قوي دائماً، ولا شفقة بين انيابه. حتى عيناه.. كانتا تتقدان مثل جمرة في الظلام. لقد رأيت مثلهما في رأس فهد أرقط شاهدته محبوسا في قفص.

ولأعد بعد هذه الرحلة في شخصية كل من بروستر ولارسن الى سطح السفينة.

كانا الآن يتمشيان جيئة وذهاباً من عند قاعدة الصاري الكبير حتى منصة عجلة القيادة. لكن الآنسة بروستر انهت المشوار حين وصلا حيث كنت واقفا عند السلم. ومع ان ملامحها لم تفصح عن اي شيء غير ودي تجاه مرافقها آنذاك فقد لمحت على وجهها شيئا من عدم الارتياح. كانت منزعجة من نظره إليها وخائفة تماما حين تنظر في عينيه. وقد ضحكت ضحكة خفيفة من عبارة قالها لارسن ثم رفعت نظرها الى وجهه. وبدا لي ان عينيه قد سيطرتا عليها، فأزعجني ذلك تماما.

تطلعت الي عيني لارسن، وهناك وقعت على سبب اضطراب بروستر. فمن العادة ان تكونا شهلاوين، باردتين، فيهما قسوة ظاهرة، لكنهما الآن مختلفتان.. فهما قريرتان بالرضا، هادئتان، تشعان صفرة ذهبية كلها رقة وحنان ما الذي غير لارسن؟ كنت أعرف أن طيف عينيه يظل يتغير على الدوام، وان أطيافا مختلفة تطفو على وجهه مترجمة إحساسه الداخلي. وهذا ما أراه الآن.. لقد توهج وجهه بالعافية واتسعت حدقتاه، وفاضت عيناه بحمرة وردية انسكبت على خديه. وربما كان هذا هو الذي أوهمني بالصفرة الذهبية قبل لحظات. اما في هذه اللحظة فقد كانت نظرته آمِرة آسرة، فيها دعوة صريحة مهما حاول لارسن ان يخفيها. ها هي بروستر ترتجف، ترفع نظرها الى وجهه ثم تخفضه وفي أعماقها رهبة ونفور. لقد شعرتُ ان الرغبة، نداء الدم البشري الذي يفور في جسد لارسن هو الذي يطل من عينيه.. وليس هناك امرأة لا تحس بمثل هذا حين تطالعه في عيني الرجل.. كانت الآنسة بروستر أنثى، وكان لارسن هو الذكر. لكن تلك الأنثى تخشى ان تتصدى له، وهو لا يجرؤ على القسر، فهي أعز نفساً من ان تعرِض، وهو اكثر تهذيباً من ان يطلب بغير عينيه.

رأيت كل هذا في تلك اللحظة. فشعرت ان شهاباً من النار يخترق جسدي كله. لقد استحوذ عليّ خوف شديد، لا رهبةً من أن يؤذيني لارسن وانما خشية الا استطيع دفع أذاه عنها. الآن أدركت كم باتت "مود" عزيزة عندي غالية عليّ. إنه الحب.. وامدّني ذلك الشعور المبهم بعنفوان عظيم، كما رافقه إحساس بالفزع الشديد أيضاً. كنت مستعداً لان اهجم على لارسن فأمزقه ان استطعت، ثم احمل مود بعيدا بعيدا الى حيث أحميها من كل شر. وهنا جبهني عدم التكافؤ بيني وبين لارسن.لقد صاح ما في جمجمتي: نعم إن الحب رفيق الجنون، ولكنه رفيق التعقل ايضا. هنا يخصب ويمور، اما في حال الطيش فانه يتفجر عبثا. ولا ادري ما الذي تفاعل في داخل لارسن في هذه اللحظة. فقد تغيرت أطياف عينيه من جديد. لقد عادتا باردتين، قاسيتين، فيهما شهلة هادئة. وعندما تطلعت اليهما غمرني شعور عميق بالراحة، حتى ان حبات من العرق البارد تشكلت على جبهتي ووجهي، حين مضى لارسن الى عجلة القيادة.

وقالت مود:

- «انني خائفة».

كنت أشد منها خوفاً، ومع ذلك تماسكت وانا اقول:

- «لا تخشي شيئاً. كل شيء سيغدو على ما يرام.»

وردت مود بابتسامة امتنان خفق لها قلبي فيما اخـــذت تهـبط درج السلم الى حجرتها الخاصة.

ظللت واقفا فترة طويلة حيث كانت تقف مود من قبل. كنت جامداً تماماً عن الحركة، لكن دماغي يضطرب من شدة النشاط. فهو منشغل بتدبر الموقف الجديد. كيف سارت الأمور على هذا النحو! لقد طرق الحب بوابة قلبي فاخترقها ونفذ الى الشغاف. هـا قد حصل المحتوم، الذي لا يقاوم، لكن بعد سنوات عديدة من عمري قضيتهـا دودة كتب وجعلتني غير متأهب لاستقباله. فماذا أفعل الآن!

شطحت مع خيال الذكرى. فهناك على رفّ مكتبتي في دارنـا صف من المجلدات ودواوين الشعر الصغيرة الحجم موسومة بـ «مود بروستر» كنت اجمعها واحدا كل عام، وبمجرد صدوره من المطبعة. وكنت اعتز بهذه المجموعة، آنس بها حين أقرأها وأندمج مع تسلسل أفكارها وما تعبر عنه من أحاسيس. كانت تنفذ الى قلبي.

أقول «قلبي»! وشعرت بدفقة من الوحي تغمر كياني كله. ها أنا أقف خارج نفسي، بعيدا عني، حياديا، كيما أروز الأمور.

مود بروستـر، همفري فـان ويدين، وحش بشـري على «الشبـح»رفيق صباي وصديقي النقيض «فورو سيث».. والحب! ما هذا الاتفاق العجيب والتنافر الأشد عجباً!

وطرقـتنـي فكـرة التـحـري عـن عـمــر مــود، فـرجـعـت الى دليـل: «مـن هـــو» الذي تطبعه اكسفورد. في ذلك المجلد الأحمر الصغير الحجم، وجدت انها ولدت في كمبرد ج، وحسبت عمرها فاذا هو ٢٧ عاما. فقلت لنفسي: «سبعة وعشرون عاما ولا زالت حرة! كيف اعرف انها غير مرتبطة مع رجل وخالية الذهن من اي حبيب؟».

شعرت بمطارق الغيرة تدق رأسي. والغيرة دليل الحب. لقد وقعت فيه على التأكيد. وتخوفت مما حصل، لكنني لم أكره حصوله. غير ان الشك راودني في مشاعري. نعم، انا الرجل المثالي الى ابعد الحدود، لكن فلسفتي كانت على الدوام تثمن الحب عاليا وتعتبره اسمى ما في الوجود، أنبل ما في الانسان من عواطف، وأعلى درجة من السعادة تمنحها الحياة للبشر ـ لكن الأمر يختلف الآن.. فأنا هدفه المباشر. هل افوز بهذا القدر من الحظ السعيد! ذاك اكثر مما أتوقع، وأكثر ما أستحق. وهنا تذكرت بيتين من الشعر قـالهما سيمونز يصف مثل هذه الحالة. لقد قال:

« سنوات طويلة قضيتها افتش
ونساء كثيرات جالت طيوفها بخاطري
وأخيرا وقعت عليك أنت. »

الآن توقف السعي، وتلاشت الرغبة في البحث والتفتيش. فهل يناسبني ذلك؟ حقا ان «فور سيث» كان صادقا حين وصفني ذات يوم قائلا:

«انت يا همفري وحش خال من المشاعر الرقيقة. إنك حيوان غريب تتغذى على الكتب، وتعجز عن الاحساس بغير اللذة الروحية، نشوة العقل، لا خفقة الجسد» •مع انني ظللت معظم حياتي في محيط نسوي رقيق فقد اقتصر احساسي برقتهن على الاعجاب بالجمال النفسي فيهن. كنت أرى نشوة الحياة في غيري من الرجال مع النساء. ولا يهزني من ذلك إلا اغتباطي باستمرار الحياة. اما انا فقد ظللت شاحباً، في هذا المجال، مثل قرد بين البشر، يرى عواطفهم فينحّيها جانبا ولا يطمع في مثلها لنفسه على الاطلاق.

بهذه النفسية التي يصطرع فيها الخوف والاكتئاب واضطراب دفقة الحب والحياة وجدتّني اتذكر مقطوعة شعرية نظمتها مسز براوننج:

عشت طول حياتي ترافقني رؤى جميلة
وخيالات صور، لمن يحيطون بي،
بدلا من حقيقة انهم رجال ونساء حقيقيون.
ولقد وجدتهم رفاقاً لطفاء
ولست اذكر موسيقى اجمل من تلك
التي كانوا يعزفونها في نفسي.

هكذا كنت الآن أهيم في بحار من العاطفة، أمواج تتدحرج برفق، وريحها رخية هادئة. وهبت عاصفة وولف لارسن حين صاح بي:

ـ «الى اين تتجه؟ مالك شارد الى هذا الحد؟»

كنت في تلك اللحظة على وشك ان أدلق برميلاً من الدهان، كان امامي في طريقي لكنني لا أراه. وصرخ لارسن:

ـ «تمشي وانت نائم؟ أو أنها ضربة شمس صرعتك؟ مالك؟»

ـ «لا هذا ولا ذاك، إنني أعاني من عُسر الهضم».

بهذا اجبت لارسن، ومضيت في طريقي وكأنه لم يحدث شيء. والواقع أنني صحوت تماما الآن. ان سطح السفينة هو غير حلم الحب على التأكيد.

الفصل الرابع والعشرون

لا يزال من أثبت الأحداث الحية في ذاكرتي تلك التي جرت على «الشبح» خلال الاربعين ساعة التالية لوقوعي في حب مود بروستر. فانا الذي ظلت حياتي هادئة حتى الخامسة والثلاثين أجدني الآن أدخل في مغامرة جريئة تنحفر صورتها عميقاً في ذاكرتي الى الأبد. بل لا زلت أشعر بنسمة من الفخر والكبرياء في ان الامور جرت على ما جرت عليه، رغم كل الظروف الصعبة.

ولأبدأ ذلك بالقول: في منتصف ذلك النهار عمم لارسن على الصيادين ان يتناولوا طعامهم في المهجع بدلا من صالة الطعام. وهذا شيء غير مألوف في أيـة سفينة لصيـد العجول، وأمرٌ لا سابقة له على الاطلاق. اذ العادة ان يُعتبر الصيادون في مرتبة الضباط. فماذا كان الداعي لذلك؟ لقد لحظ لارسن ان هورنر وسمـوك ينظران بجـرأة الى مود بروستر،يتوددان اليها ويحاولان استرعاء نظرها. وهذا امر لا يطيقه لارسن ولا يسمح به. لماذا؟ من الصعب تقدير السبب، لكن عيني لارسن تنمان عن شيء غامض في نفسه.

ولم يعترض احد من الصيادين على هذا التصرف من القبطان لكن نظراتهم إلى هورنر وسموك كانت تقول: «انتما هو السبب، ونحن نحملكما المسؤولية». لهذا اندفع الدم الى وجه سموك وانتفخت أوداجه. ولولا تلك النظرة الفولاذية القاسية من لارسن لنشب بين الرجلين عراك عنيف. ولربما كان هذا ما ينشده لارسن حين التفت الى سموك قائلا:

ـ «هل لديك ما تقول بهذا الصدد؟»

كان هذا تحدياً مباشراً، لكن سموك ادرك ما في رأس غريمه فرفض ان يلتقط القفاز وقال:

ـ «عن اي شيء، وبخصوص ماذا؟»

ـ «لا شيء. لا شيء. ظننت أنك تود الاعتراض».

ـ «الاعتراض على ماذا؟»

كان سموك يتكلم بنبرة هادئة تماما، وكأنه لا يدري اي شيء عن الموضوع. وكان حذراً تماما،يتقن التصنع، ويود استغلال وجود مود بروستر على المائدة، مقدرا أن ذلك يمنع لارسن من التصرف بأية فظاظة تستنكرها السيدة. هذا كما كان متأكدا تماما من

أن ذراعه ليست ندا لقبضة لارسن، فهو راغب حقا في ان يتجنب معركة خاسرة.

وسمعت صرخة من جهة عجلة القيادة:

- «دخان.. يا..»

فصاح لارسن:

- «ماذا؟ كيف الوضع؟»

- «هناك،مقابل عرض السفينة يا سيدي»

- «قد تكون سفينة روسية».

هكذا قال لاتيمر، فران القلق والاضطراب على وجوه جميع الصيادين. اذ ان عبارة «سفينة روسية» تعني وجود «مدمرة او سفينة حربية» لا غير، كما تعنى ان «الشبح» قد تجاوزت الحدود المسموح بها للصيد ودخلت في منطقة صيد الروس، عند ذاك تقطر المدمرة سفينتنا ويقتادوننا الى المحاكمة والنفي الى مناجم الملح في سيبريا.

تركزت عيون الجميع على لارسن، الذي حدق في السفينة بعيني الصقر ثم انفجر ضاحكاً:

- «كلا. نحن في أمان تام. لا مناجم ملح هناك هذه المرة. انا أراهن أنها السفينة «مقدونيا» خمسة مقابل واحد».

ولم يدخل في رهانه احد، فتابع لارسن القول:

- «انها مقدونيا. وأراهن عشرة مقابل واحد أن المتاعب في طريقها إلينا مع هذه السفينة ما رأيك يا لا تيمر؟»

- «أنا لا أعترض على الرهان، ولست اخشى خسران نقودي، لكني أعلم تماما ان المتاعب تنشب كل مرة تلتقي فيها بأخيك لذلك أجعل الرهان عشرين مقابل واحد».

ضحك جميع الحاضرين على نكتة لاتيمر في الرهان،حتى لارسن نفسه. ومضى العشاء بهدوء في ذلك المساء. وكان لارسن يتحرش بي بعينيه حتى كنت أرتجف كالقصبة، لكني تحملت كل ذلك: احتراما لـ مود بروستر اولا، وزيادة في إغاظة لارسن ثانيا. وقد كوفئت على ضبط أعصابي بابتسامة حلوة من مود وكأنها تقول: «كن شجاعاً، كن شجاعاً، فأنا أقدر الموقف. إنك أنت الذي يهمني لا هو».

كان ظهور سفينة حدَثا مثيراً لمن على «الشبح»،فقد كسر وتيرة النظر الى البحر اللامتناهي اللماع. كما ان مجرد احتمال كون السفينة القادمة هي «مقدونيا» بقيادة «الموت لارسن» زاد من الاضطراب والقلق. وكان اعتدال الريح بعد الظهر من هذا اليوم يسمح بانزال قوارب الصيد لمباشرة العمل، وبخاصة اننا ظللنا طوال الصباح في بحر خال من العجول، وها قد وصلنا الان طرف القطيع الكبير.

كان دخان «مقدونيا» لا يزال على بضعة اميال من موقع «الشبح» لكن الريح كانت تسوقه الى جهتنا. وبين آن وآن كنا نسمع طلقات بنادق الصيادين فيها، ونرى الشراع يرتفع وينخفض. هنا كانت عجول البحر كثيفة جدا، والظرف مناسب جدا لصيد وفير.

وعندما انحرفنا لنأخذ موقعا افضل تجاه آخر قارب انزلناه رأينا سطح البحـر مغطى بالعجول: اثنان اثنان، وثلاثة ثلاثة، مستلقية باسترخاء، نائمة على وسادة الماء، مثل جراء الكلاب بعد الرضاعة من اطباء امها الكثيرة. كانت العجول حولنا من كل جانب، وبغزارة اكثر مما كنت اعتقده ممكناً، حتى بدا البحر كتلة متراصة من اللحم،فهل هناك افضل من هذا للصيادين!!

واقتربت السفينة وظهر هيكلها العلوي بوضوح. كانت هي «مقدونيا» فعلا، قرأتُ اسمها بالمنظار من على أقل من ميل. وفي حين اتقدت عينا لارسن غضباً مما تحققنا منه هبطت السَّكينة على وجه مود بروستر. وقالت تخاطب لارسن:

ـ «اين هي المتاعب التي قلت انها وافدة في الطريق؟ انا لا ارى شيئا من ذلك. هم يصيدون قسمتهم، ونحن نأخذ نصيبنا، والرزق كثير!؟».

ـ «ماذا تتوقعين؟ ان يصعدوا الى سفينتنا ويحزوا اعناقنا؟».

ـ «شيئا من هذا القبيل فعلا. انت تعرف ان عالم الصيادين شيء جديد علي، فانا أتوقع كل شيء».

ـ «هذا صحيح. لكن خطأك انك لم تتوقعي الأسوأ».

ـ «وهل هناك أسوأ من قطع رقابنا!؟»

ـ «نعم هناك الاستيلاء على محافظ نقودنا».

ضحكت مود بروستر مستخفة برأي لارسن، ثم قالت بنبرة حاسمة:

ـ «من يسرق محفظة نقودي انما يسرق شيئا حقيرا تافها».

ـ «كلا، ان من يسرق محفظة نقودي يسرق حقي في الحياة ذاتها. انه يسلبني خبزي، واللحم الذي آكله، وفراشي الذي اريح جسدي عليه، وهكذا فهو يهدد حياتي. ليس هناك مطابخ كافية تقدم الحساء، ولا صفوف للحصول على الخبز. وانت تعرفين انه عندما تكون الجيوب خاوية فان الناس يموتون، ويموتون في شقاء وتعاسة، ما لم يستطيعوا ملأها بسرعة من جديد».

ـ «انا لا ارى امارات على ان «السفينة» تود تجريدك من نقودك».

ـ «انتظري قليلا وسترين ذلك».

لم نكن في حاجة الى انتظار طويل. فقد سارعت «مقدونيا» الى انزال قواربها الاربعة عشر قدّام خط قوارب صيدنا الخمسة، وكنا قد خسرنا قاربا هرب به «وين رايت».وقد انزلتها جميعا بين مجال الصيد لقواربنا وبين قطيع العجول. هكذا اذن.. كانت تود ان تحول دون نشاط رجالنا في الصيد الحر. وبخاصة ان ذلك اليوم كان مثاليا للصيد الوفير، فالبحر هادىء، والعجول تغطي سطحه فلا تحتاج الى اكثر ممن يشدها ويسلخها. ويقول الصيادون: ان ثلاثة ايام او أربعة من هذا القبيل هي التي تصدفهـا سفن الصيد في الموسم كله. وها هي «مقدونيا» تود ان تسلبها منا. فهل هذا ما عناه لارسن حين قال: «انهم يحرموننا حق الحياة ذاتها حين يستولون على محافظ نقودنا!» حقا ان العجول هي «محافظ النقود» لكن هذا ليس أسوأ من «حز اعناقنا» كما قالت مود بروستر.

لاحظ رجال القوارب والصيادون ما فعلت «مقدونيا» فعادوا ذلك المساء والواحد منهم يكاد ينشق غيظا وحنقا. كانوا يشتمون ويصبّون لعناتهم على «الموت لارسن»،ذلك «اللعين الذي يستحق ان يبقى في الجحيم ٩ آباد متعاقبة، لا أبدا واحدة» كما قال «لويس». وسمع ذلك لارسن فنظر الى مود بروستر وقال:

ـ «انظري هؤلاء الرجال. أصغي الى ما يقولون، وحاولي ان تكتشفي في ثناياه اللب الحقيقي والعنصر الأهم في نفوسهم. الايمان؟ الحب؟ والمثل العليا؟ الخير؟ والجمال؟ والحق؟ لن تجدي هذه الترهات جميعا. فتشي عنها».

ـ «لقد تشوه المعنى الاصيل للحق في نفوسهم يا هذا».

كانت مود بروستر على اثني عشر قدما من حيث يقف لارسن. وكانت مستندة بذراعيها على حافة السفينة ونصفها الأعلى شبه متدل الى البحر. على رأسها كانت طاقية بحار صغيرة يبرز من تحتها شعرها الاشقر الجميل، وقد أرخت خصله فتطايرت عابثة مع نسيم المساء. كان وجهها الناعم البيضاوي الصغير نقيضا لعنف البحر واتساعه اللانهائي.

ما اعظم ما سحرني ذلك المنظر: وجه دقيق ابيض ملوَّح على خلفية زرقاء شاسعة الامتداد. وتذكرت آراء وولف لارسن في الحياة، وتفسيره لمعنى الوجود، فلاح لي كل ذلك سخفاً مطلقاً.

ويبدو ان لارسن قرأ ما جال في ضميري في تلك اللحظة، فود متابعة الحديث مع مود بروستر. قال:

ـ «انك عاطفية رقيقة الحس، مثلك مثل السيد فان ويدين. اعلمي ان هؤلاء الرجال يشتمون ويلعنون لان رغباتهم قد استثيرت. هذا كل ما في الامر. اية رغبات؟ رغباتهم في طعام جيد وفراش مريح على الشاطىء، واجر يومي عال ـ وما يوفره ذلك من النساء والشراب. الجانب الحيواني، أي الجسدي، فيهم هو الذين يرغبون فيه ويثورون حين يحرمون من مزاولته. هذه هي مطامحهم، ومثلهم العليا، اذا شئت ان تقولي ذلك. قد يكون هذا العرض الذي يبدونه لمشاعرهم الان ليس جذابا، لكنه صادق تماما، فهو يفصح عن مدى تأثرهم بما حل بهم، وكيف عانت محافظ نقودهم من هذا الواقع. ومعلوم ان ما تعانيه جيوبهم هو ما تعانيه ارواحهم نفسها. وما سلبُهم نقودا كانت ستعود اليهم الا مثل سلبهم نفوسهم ذاتها».

ـ «لكنك انت مثلا لا تتصرف وكأن محفظة نقودك قد سلبت منك».

قالت مود ذلك وهي تبتسم ممازحة لارسن. وفطن لارسن الى ما رمت اليه من انه يناقض نفسه حين يتصرف بهدوء ويدعو الآخرين ان يتصرفوا بغير ذلك، فأجاب:

ـ «اذا كنت لا افعل مثلهم فذلك خطأ مني. اذ ان كلاً من محفظة نقودي وروحي قد تم المساس بهما. فحسب اسعار الجلود في سوق لندن، وتقدير ثمن الصيد الذي كان يمكن الحصول عليه بعد الظهر،لولا حرمتنا اياه مقدونيا-يمكن القول بأن «الشبح» قد خسرت

الفا وخمسماية دولار. وليس هذا مبلغا بسيطا كما ترين».

ـ «انك تتكلم بهدوء وتحسب حسبتك بدم بارد..»

ـ «نعم، لكن نفسي مضطربة لا هدوء فيها. وقد اقتل الرجلَ الذي سبب لي تلك الخسارة. نعم، أقتله، حتى لو كان اخي..»

وتغير وجه لارسن فجأة، واكتسى مظهرا شيطانيا فظيعا. وكان صادق النبرة تماما حين قال:

ـ «انتم يا أصحاب العواطف الرقيقة لا بد ان تشعروا بالسعادة حين تحلمون بوجود الاشياء الجميلة في الحياة،،ولأنكم تجدون بعض الاشياء الجميلة فعلا، تظلون سعداء. والآن قولا لي، انت والسيد فان ويدين، هل تجدانني رجلا جيدا؟».

ـ «انت جيد عند النظر اليك ـ من جهة ما».

هذا ما قلتُه، وأعني به انه حَسَن لان يُتفرج على جسده القوي. اما مود بروستر فقد اجابت عن سؤاله بقولها:

ـ «ان فيك كل الاستعداد لان تكون رجلاً خيرا».

وادرك لارسن ما تقصده مود، فرد عليها بحنق:

ـ «آه. هكذا انتِ.. كلماتك جوفاء فارغة لا تعني شيئا. انها مراوغة لا تحديد فيها، ولا يمكنك حصر مضمونها. والواقع انها ليست فكرا على الاطلاق بل مجرد مشاعر وانطباعات، مبنية على الوهم، لا اكثر».

ثم تغيرت لهجته في الحديث وباتت رقيقةً هادئة حين تابع كلامه:

ـ «هل تعلمين انني كثيرا ما اتمنى ان اصير اعمى عن حقائق الحياة، وان اتقبل الخيالاتِ والاوهام فيها. أنا أعرف انها أوهام خاطئة، مغلوطة، مناقضة للعقل.. لكني حين أتفحصها، كثيرا ما يقول لي العقل: الحياة مع هذه الأوهام في رأسك اكثر متعةً وأيسرُ امرا. واللذة والمتعة هما الأجر الذي يتقاضاه الانسان بدل عيشه. وبدون اللذة والمسرة تغدو الحياة لا تسوى شيئا. اذ ان بذل الجهد في سبيل العيش ثم عدم تقاضي اجر من اللذة جزاءَ ذلك لهو شيء أسوأ من الموت. فالذي يعب من اللذة قدرا اكبر يعيش حياة اكثر، هذا كما ان احلامك ورؤى أوهامك يا آنسة بروستر لا تسبب لك متاعب ولا تنغيصا كما تفعل الحقائق الصلبة التي أجدها أنا».

وهز لارسن رأسه مطرقا يفكر في حيرته. وضياعه. ثم استأنف كلامه:

ـ «كثيرا ما يراودني الشك، نعم اشك.. في قيمة العقل وجدواه. لا بد ان الاحلام اكثر حقيقية واقناعا. فاللذة الحسية تملأ النفس اكثر من المسرات الذهنية وتدوم اكثر.. هذا علاوة عن ان المرء يدفع ثمن لحظات مسراته الذهنية بان يظل معلقا بين الأزرقين: البحر والسماء. اما المسرات الحسية فلا تتقاضى ثمنا اكثر من اجهاد الحواس المكدودة.. وهذه تتجدد على الدوام.

انني احسدك، واحسدكِ فعلا».

ثم ان لارسن توقف فجأة بعد هذا الحوار الداخلي الملفوظ، وتغيرت سيماء وجهه ولاحت في عينيه نظرة التساؤل الغامض، وقال:

- «انني احسدك من عقلي، لا من قلبي. خذي علما بذلك. هكذا يملي علي العقل. والحسد هو نشاط ذهني يصدر عن العقل. فأنا مثل رجل صاحٍ رزين ينظر الى رهط من السكارى، فيتألم، حتى يتوق الى ان يكون سكران مثلهم ليرتاح من تألمه بسببهم».

سرني هذا التشبيه الساخر من لارسن فضحكت قائلا:

- «او مثل رجل حكيم ينظر مجموعة من المجانين فيتمنى ان يكون مجنونا مثلهم»

فرد لارسن:

- «تماما،فما انت والسيدة هذه الا زوج مفلس من الحمقى المجانين. ليس هناك اية حقيقة صلبة في دماغك انت ولا هي».

وقالت مود:

- «ربما، لكننا ننفق مما لدينا تماما كما تفعل انت. وبسخاء ايضا»

- «بل بسخاء اكثر، لانه لا يكلفكما شيئا».

- «كلا، وانما لاننا نسحب من رصيد الابدية والخلود الذي لا ينضب».

- «سواء فعلتما ذلك، او تصورتما انكما تفعلانه فلا فرق بين الشيئين. انكما تنفقان مما لم تكسباه او تحصلا عليه[1] وبالمقابل فانكما تحصلان من صرفكما ما لم تحصلا عليه - على قيمة اكبر مما احصل انا من صرفي ما حصلت عليه، وما كسبته بعرقي[2]».

وودت مود بروستر مضايقته عند هذه النقطة فقالت:

- «اذن لماذا لا تغير نوع العملة التي تتخذها؟»

- «الوقت متأخر الآن، ومتأخر جدا، انا لا استطيع ذلك. فجيوبي محشوة بالعملة القديمة، وهي شيء عنيد. ليس في مقدوري ابدا ان اجعل دماغي يتعرف على غير الحقائق الصلبة او يعترف بها».

ثم انقطع لارسن عن الكلام.. واخذته رجفة وارتعاش. لقد عاد الى كآبته العميقة المعهودة، وانساح على وجهه شعور صادق بالحزن والوحدة.. ذلك هو شعور الرجل المادي الصرف حين يدفع ماديته الى اعماقها، فتتراءى له عبثية الحياة، وتنفذ الوحشة الى أغوار نفسه. هكذا كان يفعل صديقي فوروسيث بعد كل جدل عميق بيننا في كوخه العتيق.

---

(١) يعني لا زال في بطن المجهول المشكوك في أمره، فهو مجرد أوهام.

(٢) أي بحقيقتي الماديّة الصلبة، التي هي الحركة في العمل.

الفصل الخامس والعشرون

في صبيحة اليوم التالي قال لي وولف لارسن على مائدة الافطار:

ـ «لقد سبقتني الى السطح يا فان ويدين، كيف تسير الأمور؟»

ـ «بصورة حسنة، تهب الريح رخية من الغرب، وستأخذ في الاشتداد اذا صح تنبؤ لويس.»

ـ «وهل هناك امارات على ظهور ضباب كثيف؟»

ـ «طبقات منه جهة الشمال والشمال الغربي».

ـ «وماذا عن مقدونيا يا فان ويدين؟»

ـ «لم يرها احد».

اكفهر وجهه عند سماع ذلك، وبدا ان املا له قد خاب. لماذا؟ لم استطع ان اقدر السبب. غير ان ذلك لم يطل، فها رجل من على السطح يصيح:

ـ دخان.. هناك دخان!»

انبسطت اسارير لارسن من جديد، وقال «هذا حسن» ثم صعد السلم سريعا الى السطح، وعاد فهبط الى المهجع حيث كان الصيادون والواقع ان تصرف لارسن، ثم صوته الداوي في المهجع لم يجعلني انا ولا مود بروستر نصيب لقمة واحدة من الطعام. كنا نسترق السمع،ومع اننا اخفقنا في تبين مجرى الحديث، الا اننا شعرنا بفرح خفي حين ارتفع صوت الصيادين يهتفون له. كانوا يؤيدون كل كلمة قالها، ويعبرون عن الغبطة والسرور مما بلغهم. يا لنفسيات هذه الفئة من البشر! انها متقلبة بشكل لا يمكن التنبؤ به على الاطلاق.

وقامت جلبة على السطح عرفت منها ان البحارة قد امروا باعداد القوارب لانزالها الى الماء، فصعدتُ الى هناك مع مود، لكني تركتها عند اول السطح حيث يمكنها ان تتفرج على ما يحدث وتظل بعيدة عن المسرح.

لا بد ان البحارة كانوا يعرفون مشروع لارسن، فقد نشطوا بلذة وحماسة ظاهرة في العمل. اي سحر نفثه فيهم! ثم جاء الصيادون ايضا.كانوا مصطفين في رتل منفرد ومعهم بنادق الصيد وصناديق الذخيرة. وهذا مألوف لدى صيادي عجول البحر. اما غير المألوف

فهو انهم كانوا يحملون بنادق عـادية ايضـا! ما الداعي الى ذلك؟ ان هـذه البنادق لا تستخدم في صيد العجول ابدا. اذ ان العجل يموت ويغوص قبل ان يصله القارب، لو اصيب برصاصة منها. وذلك بخلاف بنادق الصيد الخاصة ذات السهام المعروفة. كذلك لاحظت ان الصيادين يصرون اسنانهم متوعدين كلما برزت مقدونيـا اكثر فـأكثر من الغرب.

تم انزال القوارب الخمسة بأطقمها الى الماء، فتشكل منها ما يشبه اضلاع مروحة كبيرة تتقدم بانتظام وكأنها تستعد لمعركة مقبلة. وترقبت ذلك، غير ان الأمور سارت عادية كالأمس، فقد انزلت مقدونيا قواربها الاربعة عشر قدام قواربنا، فقطعت عليهـا مجال صيدها الحر مثل امس ايضا. ثم ان السفينة اتجهت الى الشمال الغربي نحـو طرف الضباب.

وزاد فضولي لمعرفة ما يجري فسألت وولف لارسن:

ـ «وماذا بعد؟ ما الذي يجري؟»

ـ «لن تحتاج الف سنة حتى تعرف. انتظر قليلا. اصبر، وادعُ ان يزداد اشتداد هبوب الريح».

ولاحظ لارسن ان هذا الجواب لا يليق بمنزلة «ريس بحارة» مثلي فاستأنف كلامه قائلا:

ـ «لا مانع من ان تعلم: سأرد على ذلك الشقيق المؤذي بان اجرعه نفس العقار الذي يوده لي. سأكون غصة في حلقه، لا ليوم واحد، بل طيلة موسم الصيد الحالي بأكمله. ذلك اذا اسعفنا الحظ».

ـ «وان لم يسعف؟»

ـ «عند ذاك ينتهي امرنا. لكنه يجب ان يسعف.. هكذا أريد».

تسلم لارسن عجلة القيادة، وهبطت انا الى المطبخ. هناك كنت اود القاء نظرة على المريضين: نلسون وماكريدج. وقد وجدت نلسون في حالة جيدة: ساقة المكسورة يتحسن وضعها، والرجل في حالة معنوية طيبة. اما ماكريدج فقد كان بائسا تغمره الكآبة حتى اشفقت على حاله. لقد حيرني ان الرجل ما زال متعلقا بالحياة رغم انه يكرهها. كانت ظروفه السيئة قد حطمت جسده تماما، لكن روحه ظلت شرارة متقدة فيه، وقلت مواسيا:

ـ «قدم اصطناعية وستسير الأمور معك على ما يرام. سيغدو بمقدورك ان تروح وتجيء بين المطبخ وصالة الطعام كما تشتهي».

كنت انتظر جوابا فيه بعض المجاملة على الاقل، لكنه قال:

ـ «اسمع يا فان ويدين، انا لا أعرفك على حقيقتك، لكن هذا لا يهمني. كن على يقين ان بالي لن يهدأ وضميري لن يرتاح حتى ارى ذلك المجرم اللعين ميتا. انه سيموت يوما ما، وسأكون حيا آنذاك، وبعد ان ادعو عليه ان يستقر في الجحيم اغدو قرير العين. يقول الكتاب المقدس «كل حي صائر الى الموت» وهو لا شك سيموت».

هكذا اذن. كان الحقد يأكل قلب الرجل. لربما كان عذره واضحا. لكن من طبيعة حقد العاجز ان يأكل صاحبه اولا. ولما لم اكن في مزاج يسمح بمناقشته، كما لم اكن على ود معه ـ فقد فضلت اختصار الحديث، وصعدت الى السطح من جديد.

هناك وجدت لارسن يدير العجلة بيد واحدة، فيما يمسك المنظار باليد الاخرى. كان يراقب مواقع قواربنا ووضعها تجاه مقدونيا. وكان التغير الوحيد الجدير بالملاحظة ان قواربنا اخذت تنضم الى بعضها بفعل الريح وجعلت تبتعد الى الجنوب الغربي باطراد. ولم استطع ادراك معنى ما تفعله بهذه المناورة، ولا الحاجة التي استلزمت القيام بها،اذ ان قوارب مقدونيا الخمسة كانت تنضم الى بعضها ايضا بفعل الريح وبذلك تنفصل عن بقية رفيقاتها كذلك كانت قواربنا تجدف اضافة الى انها قد نشرت القلوع.حتى الصيادون انفسهم فيها كانوا يدفعونها بالمجاديف الاضافية.. وهكذا ما اسرع ما اقتربت من القوارب «المعادية».

في هذه الاثناء كان دخان مقدونيا قد تلاشى حتى لم نعد نرى السفينة. وفي هذه الاثناء ايضا كان لارسن قد وجه الشبح بحيث غدت اقرب ما تستطيع من القوارب «المعادية» حتى باتت قبالة الأقرب منها.

وصاح بي لارسن:

ـ «اخفض عدة الشراع العالي يا فان ويدين، وكن متأهبا لاعادة رفعها بعد قليل».

اسرعت الى تنفيذ ما طلب ونحن على ماية قدم من القارب الخصم. ونظر رجال القارب الثلاثة الينا متخوفين من هذا الاقتراب غير المحمود. ولا غرابة في ذلك، فقد كانوا اولاد «كار» يعرفون سمعة وولف لارسن السيئة في اوساط سفن الصيد، ولا يأمنون غدره ابدا. ولاحظت ان «الصياد» منهم وهو رجل اسكندنافي ضخم الجثة متجهم الوجه كان يعارض بندقيته على ركبتيه مع انها يجب ان تكون معلقة عند جانب القارب في الاحوال العادية.

اقتربنا من القارب، حتى بات لصقا لصفحة الشبح. وعند ذاك حيا وولف لارسن طاقم القارب بان لوح يده وقال:

ـ «اصعدوا والعبوا معنا «دق ورق.»

ويعني «الدق» في لغة الصيادين «زيارة قصيرة» يكسرون بها تواتر حياة البحر على نسق واحد. والحق، ان هذا التصرف الكريم من قبل وولف لارسن ادخل الى قلبي السرور. لكن سروري كان قصير العمر، اذ سمعته يقول:

« الافضل ان تظلي على السطح يا آنسة بروستر وكذلك انت يا سيد فان ويدين. »

طوى القارب شراعه عندما غدا حذاء الشبح، وتعلق الصياد الاسكندنافي بحافة السفينة وصعد الى سطحها. كانت لحيته الذهبية مثل لحى ملوك البحر القدماء-لا تخفي شكوكه فيما يجري، كما بانت في عينيه رهبة غامضة. ونظر الى سطح الشبح، فلم يجد الا وولف لارسن وانا.. وعندئذ نظر الى رفيقيه اللذين صعدا الى السفينة بعده. لم يكن هنالك

مبرر لان يخاف: رجلان قبالة ثلاثة. وبخاصة انه بدا في نظري مثل «جالوت» الاسطوري وهو يسير الى جانب وولف لارسن، «داود» سفينة الشبح. كان الاسكنـدنافي اطول من لارسن واثقل منه وزنا، طوله ٦ أقدام و ٨ بوصات ووزنه مايتان واربعون رطلا. ولم يكن ذا كرش مندلقة ولا عجيزة مندفعة، بل كان جسده كله من عظم وعضل. ومع هذا، فقد رأيت سيماء الخوف على وجهه حين دعاه وولف لارسن الى الهبوط الى الكابينة. ونظر من اعلى الى رفيقه القصير فاستعاد ثقته بنفسه. هكذا زال تردده، وهبط الاثنان معا.اما رفيقاه في القارب وكما هي عادة البحارة الضيوف، فقد سارا الى منصة قاعدة الصاري للتفرج عليها.

وفجأة، سمع صوت ارتطام في الكابينة، ثم تلاحقت اصوات عراك عنيف. هناك كان فهد وأسد لكن زئير الاسد هو المسموع وكان لارسن هو الفهد، وقلت للآنسة بروستر:

ـ «ها انت تسمعين آداب الضيافة الكريمة عندنا!»

وهزت رأسها موافقة، ثم اكتسى وجهها بذلك التشنج الذي ينبعث من الاشمئزاز الداخلي في نفس صاحبه والذي عانيت مثله طيلة الأسابيع الاولى من نكبتي بالقدوم الى الشبح. ووجدت الفرصة مواتية للتحدث مع مود فقلت:

ـ «انت تدركين الحكمة في اي دور اقوم به فيما يجري على السفينة الآن، بل فيما اجدني مكرها على اتخاذه. اذا اراد كلانا ان نبقى احياء فليس..»

ـ «نعم انا افهم كل ذلك».

خفت الجلبة القادمة من الاسفل، وصعد وولف لارسن بمفرده الي السطح. كان هناك بعض المواضع المتورمة في وجهه وبضع سحجات في جلده.. لكن ذلك لم يكن خطيرا. وقال لي:

ـ «ارسل الرجلين الآخرين الي يا فان ويدين».

وبعد لحظات كان الرجلان يقفان قدام «الذئب» فقال لهما:

ـ «شدا قاربكما الى السفينة.لقد قرر صيادكم البقاء فترة على الشبح، وهو لا يريد ان يبقي القارب مقلقلاً غير مشدود».

ولم يتحركا.. ربما شك الرجلان في ما أبلغهما القبطان «المضيف».لماذا لا يأمرهما بذلك «الصياد» نفسه؟ وهذا ما جعل لارسن يصرخ فيهما:

ـ «شدا القارب كما اقول. من يدري؟ لربما يكون عليكما ان ترافقاني فترة من الزمن!»

قال هذا في نبرة تصالحية، لكن فيها تهديدا مبطنا. ثم رق حتى صار ناعما كالحرير وهو يقول:

ـ «لماذا لا نبدأ بالتفاهم الان، ومن اول «المشوار».انتما تعرفان ان «الموت لارسن» يجعلكما ترقصان من العذاب، اما انا فسأكون رفيقا معكما».

لم يتكلم احد من الرجلين، لكني وجدت قاربهما ينشدّ الى الشبح، ثم يعلقانه في

المكان المخصص للقوارب عليها. اذن.. لقد قبلا التعاون معنا. بعد ذلك امسك لارسن بعجلة القيادة، وخفضت انا عدة الشراع العالي، واخذ لارسن يتعقب القارب الثاني من قوارب مقدونيا.

لا حاجة الآن لاطالة الشرح، فلم يمض الا وقت قصير حتى كان قاربان لنا يهاجمان القارب الثالث لمقدونيا،فيما هاجمت بقية قواربنا القارب الرابع. كذلك لا حاجة الى وصف مفصل للقتال، فقد كان الهجوم والدفاع كلاهما عن بعد، ودون نية في الحاق اصابات بالرجال. لهذا كانت طلقات الرصاص تئز في الهواء لتثقب صفحة الماء حول القارب، ارهابا للطاقم الذي فيه،ولا تبقر بطن الصياد او تثقب خاصرة المجدف. ومن الطبيعي ان قارب «مقدونية» كان يحاول تحاشي هجومنا، بالهرب، لكن هجومنا اطبق عليه. وكنت اود التفرج على ما يجري، لولا ان صاح بي وولف لارسن:

- «اجعل الرجلين الجديدين يعملان عند منصة قاعدة الصاري يا فان ويدين . وانت يا سيدة بروستر، اهبطي الى الكابينة..»

ولاحظ لارسن الفزع الذي ارتسم في عينيها. كيف تهبط الى الكابينة لتجد رجلا محطما او ميتا هنا! فود ان يطمئنها قائلا:

- «لن تجدي الا رجلا عاديا، سليما، كل ما فيه انه نال «علقة» غير ساخنة.لا تخشي شيئا. اهبطي اليه»

- «ما شأني به؟ لماذا اهبط عنده؟»

- «لأن الرصاص قد يصيب هذا السطح وانا لا اريد ان تتعرضي للموت بـطلقة طائشة او غير طائشة. هفل فهمت؟»

والحق، ان كلمته الاخيرة رافقتها طلقة وقعت على السطح قريبا من حيث كان يقف لارسن نفسه. اذن كان الصياد في القارب المعادي يود قتل لارسن، كيما تضطرب عجلة القيادة.. وتتعرض «الشبح» للخطر. وعند ذلك قال لارسن:

- «هل ترين يـا سيدة بـروستر!؟ اهبـطي فورا. ان فـان ويدين سيتسلم عجلة القيادة».

اجفلت من هذا الامر. هل يريد ان يضحي بي! انه يعلم ان المشرف على عجلة القيادة هو الهدف المباشر للرصاص في تلك الحال. اتراه يجبن عن البقاء هناك، او يود ان افتديه انا! لا هذا ولا ذاك.. هكذا تبين لي فيما بعد. فهو يود مباشرة اطلاق الرصاص بنفسه، ولتكون له الضربة الاخيرة في الاستيلاء على القارب.

مشت مود بروستـر على طول السـطح حتى وصلت درابزين السلم المـؤدي الى الكابينة، ووقفت هناك. وحين طلبتُ منها ان تهبط الى الكابينة، حرصا على سلامتهـا، رفضت قائلة:

- «حتى في حال الخطر، يجب ان نري القبطان لارسن اننا لسنا اقل شجاعة منه».

والحق انني لم اقتنع بهذا المنطق، لكني اعجبت بعناد صاحبته وشجاعتها. كذلك فعل وولف لارسن، الذي رمقها بنظرة راضية وهو يقول:

ـ «ثقافة، وفكر، وشجاعة! انت امرأة حسنة الاعداد، تصلحين ان تكوني زوجة لرئيس قرصان ناجح.سنتحدث عن ذلك فيما بعد».

وابتسم.. وهذا غير معهود فيه. ومع ابتسامته استقرت رصاصة في خشب جدار الكابينة، فلمعت عينا لارسن بصفرة ذهبية ولمعت عينا مود بروستر من الفزع.. رصاصة، وزوجة شيخ القراصنة!!

لحظتُ ذلك الفزع ورأيت من واجبي ازالته.. فقلت:

ـ «نحن اشجع.. انا اتكلم عن نفسي على الاقل. فانا اعظم شجاعة من القبطان لارسن»

ونظر الي لارسن كمن ينتظر تفسيرا لما زعمت، فشرحت ذلك:

ـ «قد تلاحظ ركبتي المرتجفتين، هذا صحيح، وقد تدرك ان عقلي يخاف الموت، لانه لا يريد لي ان اهلك. وهذا صحيح ايضا. لكن ذلك كله هو مادة اللحم.. اما روحي، روحي الخالدة فهي شجاعة، بل اكثر من ذلك. انها جريئة. وذلك بخلاف حالك انت. ان ركبتيك لا ترتجفان، وعقلك لا يخشى الموت، على العكس، ربما كانت مواجهته تدخل الى نفسك المتعة والسرور، انت لا تخاف شيئا. ولكن عليك ان تعترف بان الشجاعة الحقة هي عندي لا عندك».

ـ «هذا صحيح وحق. انا لم افكر في المسألة من هذه الزاويــة. لكن، هل العكس صحيح؟ اذا كنت اكثر شجاعة مني، فهل انا اقل منك جبنا؟»

ضحكت انا ولارسن من سخافة هذا التناقض، ثم انه هبط من المنصة الى ارضية السطح واسند بندقيته الى درابزين السفينة. كانت الطلقات التي استقبلناها قد قطعت ميلا كامـلا، وكنا قـد اجتزنـا نصف تلك المسافـة الان. ومن هنا اطلق لارسن ثـلاث رصاصات· الاولى استقرت في خشب صفحة القارب، والثانية بموازاته، والثالثة جعلت مجدف القارب ينقلب صريعا الى اسفله.

وقال لارسن:

ـ «ذاك يثبت القارب مكانه. فانا لن اسمح للصياد فيه ان يصيبنا، وما دام المجدف قد وقع فلن يستطيع الصياد ان يجدف ويطلق النار معا».

كان تعليل لارسن صحيحا، فقد رأيت الصياد يقفز من مكانه ليتسلم القيـادة، وبذلك يغدو عاجزا عن استعمال بندقيته، الان لم يعد هنالك نار تطلق على سطح الشبح ولا جدار الكابينة فيها. وقد وجه الصياد قاربه في اتجاه الريح، فهاجمته الشبح هناك، حيث جعل لارسن سرعتنا ضعف سرعته.وداهمناه.. ومن على ١٠٠ ياردة رأيت المجدف يناول بندقية الى الصياد، كما رأيت الصياد يحاول حشوها مرتين، لكنه يتردد في اطلاق النار.. كنا على ٥٠ ياردة منه، والرصاصة قاتلة في تلك الحال، ويبدو ان الصياد لم يكن يود ان يقتل. هذا ما جعل لارسن نفسه لا يرغب في ذلك، فمع ان بندقيته كانت مركوزة ومثبتة على درابزين السفينة الا انه لم يطلقها. لقد عمد الى لفة من الحبل الثخين، فشاطها في الهواء ثم اطلقها فلطمت المجدف الجديد.وقال لارسن:

ـ «هذه لك، در حول السفينة».

لكن الرجل لم يرد ولم ينفذ ما طلبه منه لارسن،بل نظر الى الصياد عنده ينتظر اوامره. الا ان الصياد كان في ورطة.. فهو يعرف انه لو ترك الدفة واخذ بندقيته ليطلق النار ـ لاصطدم القارب بالشبح فحطمته. هذا كما يرى بندقية لارسن المركوزة على الدرابزين ويعرف ان لارسن سيقتله قبل ان يستطيع تناول البندقية. لذلك امر المجدف قائلا:

ـ «نعم. قم بدورة كما طلب»

وتم ذلك،فبات القارب على ٢٠ قدما من مقدمة الشبح، وفي مدى نارها مباشرة. وعند ذاك صاح لارسن:

ـ «اطو شراعك واصعدوا الى السفينة».

وظلت بندقيته في يده، وهو مستعد لاطلاق النار دون انذار، وفي اية لحظة. وحين صعد رجلان من طاقم القارب الى الشبح واراد الصياد ان يلحق بهما ومعه بندقيته ـ صاح عليه لارسن: «اسقطها من يدك».

كان لارسن يود «اسر» الطاقم بدون سلاح،ولهذا جعل الرجلين الآخرين يشدان القارب الى كلابات «الشبح» حيث يتعلق هناك. اما الصياد فقد تعاون مع احدهما لانزال الجريح الى الكابينة وبدا حريصا على حياة رفيقة. لكن انى لـ وولف لارسن ان يقدر هذا النبل في سلوكه؟ لقد اعتبر ذلك جبنا منه وتعاونا مع السيد الجديد، الذي هو لارسن نفسه!!

وقال لي لارسن:

ـ «اذا تم لقواربنا الخمسة ان تفعل مثل ما رأيت نكون قد حصلنا على طاقم كامل ممتاز لسفينتنا في هذا الموسم».

وقالت مود بروستر:

ـ «آمل ان.. الرجل الذي اطلقت عليه النار..»

ـ «لا تخشى شيئا. إنه لن يموت. لقد اصبته في الكتف. سيعالجه فان ويدين.ما هي الا ثلاثة او اربعة اسابيع حتى يعاق تماما».

وصمت لارسن برهة ثم اضاف:

ـ «لكن السيد فان ويدين لن يفعل مثل ذلك مع رجال القارب الثالث لمقدونيا».

كنت الان اوجه الشبح نحو ذلك القارب، وبدا ان مود بروستر لم تفهم ما كان يعنيه لارسن فسألت:

ـ «ما الذي سوف لا يفعله؟»

ـ «اسعاف الجرحى واخراج الرصاص من اجسام طاقم القارب. ولن يكون ذلك من عملي انا، فهو مسؤولية هورنر وسموك. لقد اكدت عليهما انني اريد الطاقم احياء، لا جثثا. لكن اصابة الهدف نزعة اصيلة عند كل من يمارس اطلاق النار، فهو يود دائما ان يقضي على خصمه. هل جربت ذلك يا فان ويدين؟»

اومأت برأسي موافقا على ما قال، ونظرت الى سموك وهورنر في قاربنا المهاجم. كانا يودان القتل فعلا، مما جعل الصياد والمجدف في القارب الخصم يخفيان رأسيهما ويتمددان في قاع القارب. اما مباشر عجلة القيادة فقد ظل جسمه بارزا ولكن.. ماذا يفعل؟ لقد احيط به، وجعل قاربه يتخبط،يتقاذفه الموج صعدا وسفلا وهو عاجز عن السير في طريق صحيح. وقلت:

ـ «لا تنظري يا سيدة بروستر، ارجوك لا تنظري»

سرني انها تقبلت الرجاء ولم تتطلع. وفي تلك اللحظة ازت رصاصة تدلى إثـرها مباشر عجلة القيادة في القارب: نصفه داخل القارب والنصف الاعلى قريبا من الماء. كانت ذراعاة تلطمان الموج ورأسه يتأرجح يمنة ويسرة.

بعد ذلك انضمت قواربنا الخمسة لتهاجم القوارب الثلاثة الباقية لمقدونيا، وما اسرع ما طوقتها جميعا واجبرت طواقمها على الاستسلام.

وهكذا سارت جميع القوارب في اتجاه الشبح. كيما تصعد الطواقم الاسرى الى سطحها.

وقبل ان تنعدم المسافة بينها وبين الشبح اخذت المنظار اتطلع فيه. هناك في الشمال الغربي من موقعنا رأيت سحابة من دخان. تلك هي مقدونيا. يا للمصيبة، فهي مزودة بمدافع ثقيلة لن تصمد امامها الشبح!! وأسرعت فنقلت هذه المعلومات الى لارسن، لكنه اجابني في لهجة الواثق من نفسه والمستخف بخصمه:

ـ «انا اراقب مقدونيا وقد رأيت الدخان دون منظار. لا تهتم بها يا فان ويدين، فالأمر ابسط مما تتصور».

قال ذلك واخذ مني عجلة القيادة على الفور، لكنه تريث قبل ان يديرها الى الجهة المعاكسة. وقال مخاطبا نفسه:

ـ «سأهزمك يا ابن امي. ايها الشقيق القاسي، لأجرعنك المر. وسترى».

وما هي الا دقائق حتى كانت اطقم القوارب جميعا قد صعدت الى السطح: وعلقت القوارب الى كلاباتها على الشبح وتم تجريد الاسرى من سلاحهم.

كان هنالك حاجة الى السرعة الآن.. ان مقدونيا تقترب وهي اسرع من الشبح، كما ان سلاحها كاف لان يقضي علينا لو اصابنا مرة واحدة. لذا دبت الحمية في رأس لارسن كما دب الحماس في عمله. ها هو يرق في لهجته حين يصدر أمراً الى صيادينا، لكنه يحدق بعيني البازي في السماء نحو مقدونيا. وفي لمحة واحدة قدر لارسن المسافة التي تفصلنا عن هدب الضباب الزاحف نحونا، ثم حسب الفرق بين سرعة الشبح ومقدونيا، وحسم احتمال مساعدة الريح لكل من السفينتين.واصدر امره:

ـ «اطو الاشرعة وانطلق حتى تدخل حاشية الضباب».

وسرعان ما تم ذلك فبتنا في عماء مطلق، حتى كان الواحد منا لا يرى الآخر، وكلاهما على السطح لا يفصلهما ذراع. هذا هو الضياع الابدي. لم تكن هنالك ريح البتة..

واطفأ لارسن المحركات وجثمت الشبح ساكنة تحت الضباب. وقلت لنفسي:

ـ «ان كان الموت على هذه الشاكلة، وفي مثل هذا السكون المطبق فما احلاه! انها خبرة جديدة ما الذها! لكن احدا لم يمت ثم يعود حتى يخبرنا حقيقة ذلك، وانما هي تهويمات منا، نحن الذين لم نجرب الموت ابدا. نعم ان فيه شاعرية حلوة، لكنه آخر الأمر ما هو الا ضياع في الفناء!»

كنت اميل الى الاسترسال في هذه الافكار الغريبة بتأثير السكينة الشاملة التي تلف الشبح. فحتى الامواج هدأت رغم صخبها خارج حدود الضباب. وحتى الرذاذ الذي يرافق مثل تلك الحال لم ينزل، وانما ظل الموقف كله هدوءا مطلقا.

لماذا دخل لارسن بنا في هذا الفلك الساكن؟ لا اعلم سببا، لكني اخمن انه كان يود الزوغان من مقدونيا وتضليلها، ومن ثم يتسلل في البحر الى موقع آخر. هذا ما قدرته انا الذي اجهل التخطيط للمناورات البحرية وكيفية تنفيذها. وهذا ما ثبتت صحته بالفعل. فلقد دخلنا حاشية الضباب في اتجاه معارض لخط سير مقدونيا، وقد دخلناها ومقدونيا على ميل واحد من الشبح، ولا بد انها قطعت ذلك الميل في الوقت الحاضر ولم تجد سفينة تهاجمها هناك.

وإن انسَ لا انسى حرص لارسن ويقظته ونحن داخل الضباب: كان يمر على كل واحد من صيادينا ويأمره بابقاء سلاحه جاهزا للاطلاق،كما يمر على كل مجدف وبحار ويطلب اليه ان يظل في حالة الاستعداد القصوى. وحتى انا، جاءني على السطح وطلب الي العناية بالسيدة بروستر اذا وقع مكروه. كيف كان يرى في ذلك الظلام الدامس! ان عينيه الآن ليستا من عيون البشر، فهو ذئب حقيقي، ذئب في فيافي القطب، لا تبهره اشعة الشمس المنعكسة عن قفار الجليد ولا يتوه عن جحره في ظلام الغابات الحالك طيلة ستة شهور. انه «وولف لارسن» وكفى.

استمر ذلك نصف ساعة او اكثر بقليل. ثم ان وولف لارسن مرّر لي كلمته بالتحرك، مشافهة، ومن رجل الى رجل. لقد بُلّغت أن «انشر الشراع وارفع عدة الصاري الرئيسي دون اية جلبة ولا صرير» وفعلت ذلك، وباشر لارسن توجيه عجلة القيادة.وما أسرع ان خرجنا من الضباب! ذلك ان لارسن، بحنكته البحرية الفائقة اخرج السفينة معارضة. وهكذا، لم نكن قد اخترقنا كتلة الضباب وانما نفذنا من حاشيته الرقيقة لا اكثر.

وحين غدونا خارج تلك الحاشية كانت الشمس مشرقة والبحر تحتها يتلألأ.. اذن لقد نجحت الخدعة، أو ما يسميها لارسن «مناورة جانبية».وبفضلها جردنا مقدونيا من قواربها، كما ضللناها فيما لو قرر قبطانها ملاحقة اخيه. وقلت في نفسي «هـذا لارسن اللعين.. لكنه البحار الحاذق، والذكي المغامر، يا له من عشير بحر، قاس مثله وغدار مثله لكنه حريص رفيق!!».

وجاء لارسن الى السطح بعد أن اوكل عجلة القيادة الى غيره. هناك كان الصيادون: القدامى والاسرى الجدد. وقال:

ـ «انا ادفع خمسماية دولار مقابل ان اكون على سطح مقدونيا خمس دقائق، لكل دقيقة مئة دولار».

وسأله احدهم:

ـ «لماذا؟»

ـ «لكي اسمع شتائم اخي واللعنات التي يصبها على الحظ والقدر والضباب.. بل على رأسي انا ايضا.. يسرني ان اراه يكاد ينفلق غيظا، وبخاصة انني اعرف عناده في الاعتراف بالهزيمة».

وبلع ريقه ثم استطرد قائلا:

«دعنا من ذلك. الان عليك يا فان ويدين ان تزود ضيوفنا الكرام بما يوفر لهم كل راحة واطمئنان. دعنا نحتفل بسلامتهم ومشاركتنا موسم الصيد الحالي الوفير. ان لدينا احتياطياً كبيرا من الويسكي، ولنه ليسرنا ان ينالوا نصيباً منه. اما صيادونا القدامى فسينالون دولارا كاملا عن كل جلد يجلبه الصيادون الجدد. لقد جدّوا في العمل، و «الشبح» تكافيء المجد، هذا ما وعدتهم به قبل المناورة، ولن احنث بوعدي، وربما كان هو السبب في ان احدا منهم لم يفكر في الفرار مثل «وين رايت» القبيح.

هذا كما انني اود ان تنشط يا فان ويدين، فهنالك جناح كامل في «مستشفاك» ينتظر ان «تكشف» عليه أيها الطبيب النطاسي الكبير».

هل يسخر مني بهذا الاطراء، ام ان السرور الغامر الذي يشعر به قد غير طبيعته!؟ انا استبعد الاحتمال الثاني، فالخبرة التي اكتسبتها على ظهر «الشبح» لا ترجح ذلك.

ومن الطبيعي ان مقدونيا حاولت ان تتعقب الشبح، ومن ثم دخلت كتلة الضباب، وبذلك صدق عليها المثل القائل: «كانت تفتش عن ابرة في خيشة من القش»، بيد ان «إبرة» الشبح كانت قد خرجت من «الخيشة» اصلا.

الفصل السادس والعشرون

تولى وولف لارسن توزيع الويسكي-واخذت زجاجات الشراب الجيد تجد طريقها بوفرة الى السطح. اما انا فقد باشرت تضميد جراح المصابين. ولقد عاينت شرب الويسكي في الحانات العامة، مخففة بالصودا، وبدون تخفيف، لكني لم اشهد شربها على النحو الذي يفعله هؤلاء. انهم يشربون في أقداح كبيرة جدا، أكبر من فناجين الشاي، واذا اعوزهم ذلك شربوها من فوهات الزجاجات. ومع هذا فإنهم يظلون ظمأى لا يرتوون!

كل فرد على السفينة كان يعبّ، فحتى الجرحى شربوا، وأوفتي أوفتي الذي كان يساعدني في التضميد شرب ايضا. أما لويس فقد امتنع مكتفيا بأن رطب شفتيه، مع أنه يشارك الآخرين في عبثهم ومجونهم. وملخص القول: كان سطح السفينة مثل «معبد باخوس» او شبه «مارستان» أرضيته دفة وشراع. وكان الجميع يصخبون، متباهين بما فعلوه أثناء القتال في ذلك اليوم، لكنهم يظهرون مشاعر الود والصداقة تجاه أعدائهم..كثيرا ما كان الآسرون والأسرى يهزون اكتافهم ويحلفون الأيمان المغلطة عن شدة احترامهم لبعضهم وتقديرهم العالي لميزاتهم «الرفيعة». كذلك كانوا يبكون أسى على شقائهم في ما مضى من أيامهم التاعسة، وتخوفا من العذاب الذي ينتظرونه على يدي وولف لارسن، وقبضته الوحشية. كانوا كلهم يلعنونه ويتمنون له بئس المصير، لكن التمني هو صفة العاجز المقهور على الدوام.

والحق ان المنظر العام لأولئك السكرى المأفونين كان غريبا، ويبعث على الخوف فهم مثل «سيرك» من الشياطين.ها هي ظهورهم تتراقص في ضوء مصابيح السفينة الخافت، وتتطاول اجسادهم المنعكسة على صفحة الماء حتى يغدو الواحد منهم ماردا شريرا قبيح المنظر، او «شبحا» جعل همه إرهاب الآخرين وإيذاءهم.

مالي أقول «شبحاً» وأتهيب من اللفظة! أليست سفينتهم هي «الشبح»! والحق أنها قطيع من الأشباح في الوقت الحاضر، لا شبح واحد.

إلى جانبي كان يقف أوفتي أوفتي مثلا، وهو يمسك ضمادا أود ان اربط به جرح مجدف القارب، الأسير. كانت عيناه اللامعتان تبرقان، من أثر الشراب والعمل، ووجهه

ناعم كأنه ملبس بالمخمل، وفيه قسمات نسوية رقيقة توهم الناظر اليه أنه يتطلع الى وجه أنثى وادعة. أرى كل ذلك وأتذكر وحشيته وقسوته حين يتصرف مع غيره من البحارة، فيأخذني العجب! كيف يمكن الجمع بين هذه المتناقضات في شخصية واحدة!

كذلك انظر الى هاريسون: وجهه أقرب الى وجوه الصبيان، لكنه يكتسي الان غلالة من الأبالسة، ها هو يخبر الأسرى ان السفينة التي أسرتهم هي الجحيم بعينها، وان قبطانها هو «الشيطان» ذاته، ويصب عليه لعناته.

هناك شخص واحد لم يخضع للشراب ولا التغيير، هو وولف لارسن. فهو لم يذق قطرة واحدةمن الويسكي في ذلك المساء، ولم تأخذه نشوة انتصاره الاخير. لقد كان قاهر الرجال وسوط عذابهم من قبل، وهو كذلك الآن. انه الساحرة «سيريس» في ميثولوجيا الاغريق،وقطيعه جميعا من الخنازير. نعم انهم يثورون ويصخبون، لكن ذلك كله وقت السكر والعربدة، وفي حال غيابه على التأكيد. وما دمت قلت «خنازير سيريس»، فهل اكون أنا واحدا من هذه الخنازير؟ وهل تكون مود بروستر خنزيرة حلوة وكلوباً ايضا! اي تشبيه نابٍ وقعت فيه!

غضبت من قلة أدبي تجاه مود بروستر، فشددت على طرفي جرح الرجل الذي كان أوفتي أوفتي يساعدني في تضميده. وصرخ الرجل. واستغرب ذلك أوفتي أوفتي فحدجني بنظرة قاسية. وفي هذه اللحظة بدا لي انني مارد عملاق. لقد غمرتني دفقة من القوة التي تتولد من الشعور بالحب. وقدرت انني اعظم شجاعة من هرقل، فانا كفؤ لمواجهة وولف لارسن رغم الخمس والثلاثين سنة الناعمة التي قضيتها في القراءة والتعامل مع الكتب. وبتأثير من هذه الشجاعة الفجائية تركت الجريح وأوفتي، وصعدت الى سطح السفينة. هناك كان الضباب.. وكان الهواء النقي، وجو البحر الذي يبعث على الانعاش. فهدأت أعصابي وزال التوتر النفسي الذي اعانيه.

على السطح كان رجال السفينة، الصيادون القدامى والصيادون الجدد. وكان اثنان من هؤلاء الأخيرين جريحين، لكن جراحهم لم تكن بالغة. نعم كان هنالك صخب غير ان لعنات وولف لارسن كانت غير مسموعة. ولم أبق طويلا على السطح، بل هبطت الى الكابينة، حيث كان العشاء جاهزا. وقد وجدت وولف لارسن ومود بروستر ينتظرانني على المائدة.

وفيما كانت حمى الخمرة تلعب برأس السفينة ككل، كان رأس وولف لارسن صاحيا، ولم يذق قطرة من الشراب. وكيف يفعل ذلك في مثل هذا الظرف الشاذ! انه أعقل منه. وبخاصة انه لم يعد لديه احد يعتمد عليه غيري وغير لويس. كما اننا نبحر الآن وسط الضباب دون استخدام الأنوار ولا الاستفادة من رقابة البحارة الرصادين. وتساءلت: لماذا أوقع وولف لارسن نفسه في هذه المشكلة.. سفينة تبحر في الضباب دون رصد ولا انوار!؟ بل، كيف سمحت له عقلانيته ان يسخو في بذل الشراب لشلة من الأفظاظ وسط الخطر؟ لكني قدرت انه يعرف نفسيات رجاله، وتذكرت ان خير ما يزيل الشعور بالهزيمة

ويزيح الاحساس بالعذاب هو السُّكر.. وقد لجأ اليه وولف لارسن في حال جماعته. فالصيادون المهزومون يودون ازالة شعورهم بالذل والانكسار، والمعذبون من رجال «الشبح» يرغبون في ابعاد إحساسهم بالأسى والعذاب. اذن لقد تصرف وولف لارسن وكأنه أحد علماء النفس التطبيقيين. نعم، انه انتصر على أخيه «الموت لارسن» لكن زهو الانتصار لم يفقده صوابه. قد يكون ذلك الفوز أثلج فؤاده، غير انه لم يطش برأسه على التأكيد.

كنت خشيت من قبل ان يدفعه انتصاره الى إحدى ثوراته المعروفة. فجعلت ارقب كل حركة تصدر منه. لكني الآن اجده على المائدة، في احسن هندام. واشد مرح أبداه على ظهر سفينته. ولماذا ينفجر غضبه! لقد وفر لنفسه عددا كافيا من الصيادين، فضمن نجاح موسم الصيد. كما استولى على عدد من القوارب. وهو افضل من يستخدمها لصالحه بين قباطنة صيد العجول. اذن، لا حاجة الى الثورة في نفسه ولا استعمال قبضته لبلوغ ما يريد.

هذا ما قررته في نفسي وانا أروز الموقف على الشبح. وبدا لي ان تحليلي مقنع موفق. غير انه سرعان ما تبين ان كل ذلك مبني على أوهام. اذ اعتمدت فيه على معرفتي بالمنطق النظري لا اكثر. فهل يصدق ذلك عند التطبيق!

ها أنا على المائدة في الكابينة، وها هو وولف لارسن مبسوط الاسارير، رائق المزاج، عيناه تشعان بالسعادة والحبور. لقد نَفَخَته «الحياة» التي يظل يتحدث عنها بمفهومه الخاص، بالدم المتدفق في شرايينه، فهو يود الاستمتاع بتلك الدفقة من «الحياة».لذا وجدته قد انهمك في نقاش جاد مع مود بروستر فيما كانا ينتظرانني على المائدة، وكان موضوع نقاشهما «الاغراء والغواية».وهو يرى ان «الغواية» لا تكون الا برضا صاحبها، وأن «الخطيئة والتجربة» لا تقع ابدا الا اذا كان الشخص راغبا فيها، وموافقا على السقوط. كذلك من رأيه ان الانسان هو سيد افعاله، فلا يجوز القاء التبعة في ذلك على الظروف، ولا اللجوء الى التبرير بمشيئة القوى الغيبية او القدر. وأنا أسمعه يقول:

«انظري يا آنسة بروستر.. ان الانسان يقوم بأفعاله انطلاقا من إرادته هو وخضوعا لرغباته أيضا. وفي الانسان رغبات عديدة. فقد يرغب في الهروب من الألم، او التلذذ بالاستمتاع لكن كل ما يفعله في الحالين إنما يصدر عن إرادته ورغبته».

كان وولف لارسن جازماً في تقريره ما يريد، فهو ينفذ مباشرة الى لب الرأي الذي يود التعبير عنه. وعلى ذلك ردت مود بروستر معترضة:

«لكن، لنفترض انه (الانسان) يرغب في فعل شيئين، كل منهما مضاد للآخر، ولا يسمح اي منهما بفعل نقيضه؟»

«هذا ما كنت أود الوصول إليه في الخطوة التالية لو واتاك الصبر قليلا يا آنسة بروستر..»

- «انني صابرة، واستمع لما تقول. لكني اود ان أسوق ايضاحا».
- «تفضلي».
- «في الوسط بين تلكما الرغبتين المتناقضتين تقع روح» الانسان، وهناك يتجلى اثـرها ايضا. فاذا كانت روحا خيرة فانها ترغب الخير وتفعله وان كانت شريرة فعلت عكس ذلك. وهكذا فان «الروح» هي التي تتخذ القرار».

- «كل هذا هراء وهذر، ان الرغبة، الارادة ـ هي التي تتخذ القرار. لنفرض جدلا ان رجلا يريد ان يسكر، مثلا، وانه لا يريد ان يسكر ايضا. ما الذي يفعله في تلك الحال؟ وكيف يفعله ايضا؟ انه يكون مثل دمية في هذا الموقف. لكن، لما كان الانسان وتصرفاته من خلق رغباته، فإنه يطيع الرغبة الأقوى من الاثنتين، ويتصرف بموجبها. هذا كل ما في الأمر يا آنسة بروستر. ليس لـ «روحه» اي دخل في ذلك. كيف يمكن التوفيق بين رغبته في ان يشرب ثم رفضه ان يشرب!؟ اذا كانت رغبته في البقاء صاحيا هي الأقوى فسيطرت على رغبته المناقضة، فإنه لا يشرب. وهذا اثبات صارخ على انها هي الأقوى.
إن «الإغراء» لا يلعب اي دور على الاطلاق، الا....»

أطرق لارسن بضع لحظات وكأنه يفتش عن اللفـظة المناسبـة او المعنى المحدد لاكمال استدراكه الأخير. ثم قال:
- «إلا... إذا كان «الاغراء» هو ميله الى البقاء صاحياً».
قهقه لارسن بعد اهتدائه الى ضالته، وقال:
- «آه، آه.. ما رأيك في هذا يا سيد فان ويدين؟»
- «ارى انك والآنسة بروستر تحاولان فسخ الشعرة الواحدة الى نصفين».
- «كيف؟»
- «إن «روح» الانسان هي رغباته، ولأكن أكثر دقة فأقول: ان محصلة رغبات الانسان هي «روحه» او «نفسه» ذاتها.على هذا الاساس يكون كلاكما مخطئا: انت وهي على السواء. فالأول منكما يشَدّد على أهمية «الارادة والرغبة» متجاهلا «النفس» بالكلية، فيما الثانية تشدد على «النفس» وتتجاهل «الارادة».كل منكما يفصل بين النفس والارادة مع انهما في الحقيقة كل متكامل واحد».

انتظرت قليلا لارى وقع هذا الرأي، ثم استطردت قائلا:
- «وعلى كل حال فان الآنسة بروستر مصيبة تماما في اعتبـارها ان الإغـراء (ولنسمه التجربة) يظل إغراء، سواء خضع له المجرب ام تغلب عليه. فالنار يهف عليها الناس هواء حتى تشب وتقوى. والرغبة مثل النار. ويتم الهفُّ عليها برؤية المرغوب فيه. أو بالوصف المثير له حتى يتحقق اشتهاؤه. فالرؤية والوصف هما الهواء في هذه الحال. وهنا يقوم الاغراء. فهو الهواء الذي يلهب نار الرغبة حتى تضطرم وتتأجج. وقد لا يتم هفّ الهواء على نار الرغبة بقدر يجعلها هي المسيطرة، والمسيرة للانسان في تصرفاته. وفي تلك الحال تكون السيطرة بقدر الهواء المهفوف.. وبمقدورها حينذاك ان توجه الانسان الى الخير أو تدفع خطاه الى الشر ..كلا الحالين ممكنة تماماً».

أنهيت العبارة الأخيرة من محاضرتي هذه وأنا أشعر بالعزة والامتلاء. ألستُ في هذه اللحظة حَكَما صارما في مسألة جدلية رصينة! وحتى لو لم يلق رأيي الحاسم قبولا لدى اي من الطرفين، فانه يكفيني قيمة وقدرا انني وضعت حداً للنقاش. غير ان وولف لارسن لم يكن يود ذلك، فقد بدا راغبا في الحديث اكثر من اي وقت رأيته فيه على السفينة. كانت لديه طاقة محبوسة فهو يود التنفيس عنها بانفجار كلامي طويل. ها هو يجعل قضية «الحب» مدار حديثه اللاحق. وهو يتخذ موقف المادي الصلب من هذه القضية فيما تتخذ مود بروستر موقف المثالي الروحاني ذي المفهوم الغيبي الغائم.

كان عرض وولف لارسن لرأيه في الحب ذكيا لماحا، ومثله كان عرض مود بروستر، حتى عجزت عن متابعة النقاش فيما بينهما. وزاد من ضياعي انني خضعت لنزعة مراهقة اثناء ذلك، هي مراقبة تقاطيع «مود» والتملي من جمال خصلة شعر لها، شقراء نافرة، ومن ألق عينيها اللماعتين.

والحق انني شعرت بشيء من الغيرة اثناءحديثها مع لارسن، اذ كان وجهها يطفح بالنشوة، قد أضفت عليه طبيعة النقاش حيوية زائدة، والهب غيرتي انني لمحت مثل ذلك في وجه لارسن ايضا. فقد كان متوردا تشيع فيه الغبطة ومعانقة الحياة. وما كان أرق صاحبه وهو يقتبس ثلاث ابيات من الشعر قالتهما «ايسوليت» في رواية «تنتاجل» ويترنم بها في شاعرية عذبة: مباركة انا وفريدة بين جميع النساء.

مباركة انا وفريدة بين جميع النساء
فالذنب الذي اقترفته اكبر من كل خطاياهن
لقد تجاوزتُ جميع آفاق الخطايا وانتصرت.

وكما نفذ لارسن الى الطبيعة التشاؤمية لدى عمر الخيام، أجده ينفذ الآن الى طبيعة الانتصار والظفر في قصيدة «سوينبرن» وكان يقرأ الشعر بروحه اكثر منه بلسانه، ويجيد القراءة على أساس التفاعيل.

وما كاد يلفظ آخر كلماته حتى هبط لويس سلم الدرابزين وقال:

«عفوا لقد انقشع الضباب، وهناك نور من سفينة بخارية ينعكس على صفحة «الشبح».

سمع ذلك لارسن فوثب بخفته المعهودة الى السطح، حيث اخرس صخب السكارى دفعة واحدة ومشى الى قاعدة برج الصاري ليتسلم دفة القيادة. وكان لويس صادقا فيما قاله عن الضباب.. لقد ارتفع فعلا وبانت السماء أعلاه سوداء حالكة. أما الضوء الذي أشار اليه فكان أحمر خافتا قريبا، حتى كنت أسمع خبطات المحرك البخاري من السفينة التي أطلقته. ولا أدري لماذا شعرت في تلك اللحظة اننا نواجه «مقدونيا» سفينة «الموت لارسن» ذاتها. هذا ما شعر به وولف اذ قال لي حين اقتربت منه:

«من حسن حظنا ان (الموت لارسن) لا يحمل كشافا قويا يسلطه تجاهنا فيعرف سفينتنا».

وعلقت على ذلك ممازحا:
ـ «كيف لو صرخت بأعلى صوتي؟»
ـ «لا مانع من ذلك. لكن، قدّر ما يحدث على التو في تلك الحال؟»

وقبل ان أجيب كانت يد لارسن قد اخذت بحلقومي، وعصرت قليلا. ولما كانت تلك اليد خشنة ثقيلة مثل يد الغوريلا، واشد منها قدرة على الفتك ـ فقد كادت تزهق روحي. وخشيت ان يلوي قبضته الى الجانب قليلا فيكسر فقرات عنقي، فحاولت ان اصرخ. لكن.. كيف افتح فكيّ لأصرخ! وصبرت صبر العاجزين. ومن حسن الحظ انه كف يده عني، فتنفست الصعداء. لقد ولدتني امي من جديد.

لم أشأ ان أستثيره في تلك اللحظة فلم أعاتبه. لقد اعتبرت الأمر مزاحا من طرفه لا أكثر. وهكذا وقفت الى جانبه مستكيناً أحملق في انوار السفينة القادمة.

في هذه الاثناء كانت مود بروستر قد صعدت الى السطح، فاقتربت من حيث وقفت انا ولارسن، وخاطبته في لهجة مزاح:
ـ «وكيف لو صرخت انا أيها القبطان؟»
ـ «انا أعزك بحيث لا أرغب في ايذائك».

كان في صوته رقة عتاب ومودة، فشعرت بان شيئا يقرصني من الغيرة. وتابع لارسن كلامه قائلا:
ـ «لكن، لا تفعلي ذلك. فالنتيجة واحدة: سأكسر عنق فان ويدين لو جرى شيء من هذا القبيل».
ـ «عند ذاك وددت التظاهر بالشجاعة اولا، والمشاركة في المزاح ثانيا، فقلت:
ـ «إذن أنا أقبل ذلك. أصرخي.»
ـ «انها لا ترضى أن تضحي بالأديب رقم ٢ في أمريكا، كما تقول».

قال لارسن ذلك وهو يغمز ساخراً، فأدركت انه يرغب في الكف عن الممازحة. لم نتكلم بعد ذلك، بل ساد صمت بليد ران على السطح حتى ابتعدت انوار «مقدونيا»، فهبطنا الى الكابينة لنكمل عشاءنا المبتور.

وعلى المائدة استأنف لارسن ومود بروستر حديثهما المقطوع في الحب، وأخذ كل منهما يورد من الشعر ما يحلو له ويؤيد رأيه. لم أشتغل آنذاك برد مقتبساتهما الى أصولها. بل شَغَلَني ذلك الحنان الرقيق الذي كان يغمر وجه لارسن وهو ينظر الى مود. لقد خرج لارسن من جِلده، فارقته طبيعة قبطان «الشبح» المعروفة. وبات ملوّحا مغروما. ان شفتيه تتراقصان في حلاوة وهو يلفظ كل كلمة يتفوه بها. وحتى صوته الجهوري الرنان غدا همسا موسيقيا مثل خرير الغدير. وقد قاطع مود حين اقتبست:

«بريق عينيها هو النور الذي أهتدي به حين تغرب الشمس
ورنة صوتها هي آخر انغام تستقر في أذنيّ»

بأن قال:

«ان في صوتك رنّة وانغاماً»

صرح بذلك، ولمعت عيناه ببريق الاشتهاء.

وكنت على وشك ان اصرخ من الفرح حين لم يبد على مود أي تأثر بما ترى. لقد أكملت المقطوعة التي اقتبستْ منها دون ان تتلعثم، ثم حولت الحديث الى موضوعات أقل خطورة من العواطف المشبوبة. وطوال هذه الاثناء كان رأسي يكاد ينفجر: مارستان السكارى عاود نشاطه على السطح، والرجل الذي اخافه يغازل المرأة التي احبها امامي وأنا عاجز عن فعل أي شيء! يا له من موقف صعب أرجو الا يواجه مثله أحد. هذا علاوة على تناثر اللقيمات وبقايا الطعام وقطرات الشراب على غطاء المائدة، لأن الرجل الذي يقوم بالخدمة بدل ماكريدج صعد يشارك «الربع» في مجونهم على السطح.

اذا كان وولف لارسن طيلة عمره قد بلغ ذروة النشوة بالحياة فإنما فعل ذلك الآن. انني أراقبه لحظة لحظة. وأدرس كل عضلة تختلج في وجهه، وكل تغير في أطياف عينيه، حركة تندعن اعضاء جسده، بل احاول تفسير كل كلمة يقولها: لأردها الى ما اعرفه عن شخصيته وتكوينه العقلي. الآن أجد لسانه ينطلق معبرا عن حقيقة نفسه، تزيده العاطفة فصاحة واندفاعا. والآن تتبدى روح لارسن، فهو في اعماقه ثوري عنيف، حاد كشفرة السيف، متفجر كالبركان. ولا اظن «لوسيفر» في «الفردوس المفقود» لـ «ميلتون» ابلغ من لارسن حين ينفّس عن حقده المكبوت على ما يشعر به من الظلم. ففي حاله تجتمع عبقرية البساطة والصدق الى عنفوان التفجر. انه يؤمن بما يقول، فيغدو ما يقوله اقرب الى رؤى النبوة والوحي. ولقد ذكّرني ذلك بالشاعر «تاين» لكني على يقين من ان لارسن لم يطلع على كلمة واحدة لذلك المفكر الخطر.. ها هو يعلق على شخصية «لوسيفر» او إبليس، المتمرد فيقول:

ـ «كانت قضيته خاسرة، ولم يكن يخشى صواعق الله» ثم اضاف:

ـ «فقد ظل غير مهزوم حتى حين طرد الى الجحيم. أما لحق به وانضم الى صفه ثلث ملائكة خصمه! وبمساعدة هؤلاء، ورغم انه في الجحيم ظل لوسيفر منتصرا. لقد دفع الانسانَ الى الثورة . . . وبذلك ضمن لنفسه كلاً من الجحيم والأجيال المتعاقبة من البشر. لقد فاز. لكن، لماذا طُرد من الجنة؟ ألأنه كان أقل جرأة وشجاعة من خصمه؟ أو أقل عزة وكبرياء منه؟ أو أقل طموحا؟ كلا، وألف كلا! كان الله أعظمَ قوة من خصمه. هكذا جعلته صواعق الرعد. بيدَ ان لوسيفر كان روحا حرة، فهو حر قبل كل شيء. لذا كان جعلُه يعبد غيره ويخدمه خنقا كاملا لتلك الحرية، وهو يرفض الهلاك الذليل.

من ثم فضل العذاب مع الحرية على السعادة والجاه مع العبودية. لقد ترفع عن عبادة غيره. وآثر الا يعبد شيئا، انه رفض ان يكون كبيرا على كتفي الغير وارتضى ان يقف على ساقيه هو، وان يشق طريقه بنفسه، مهما كان. فقد كان فردا ذاتيا».

سمعت ذلك مود فقالت ضاحكة:

ـ «بل كان هو «الفوضوي الأول».

ونهضتْ إيذانا برغبتها في الذهاب الى حجرة نومها. فصاح لارسن:
ـ «وما احسن ان يكون المرءفوضويا بهذه الخصال!»
ونهض بدوره ليذهب الى السطح، لكنه توقف عند باب غرفتها ليقول:
«هنا
«وأخيرا.. هنا
سنكون احرارا، فالله لم يجعل هذا المكان
ليحسده من يكون فيه. وهو لن يطردنا منه.
هنا سنحكم بأمان
ان الحكم والسيطرة هدف يسوى الطموح حتى في الجحيم
وانه لخير ان تحكم في جهنم على ان يحكمك الغير في الجنة»
هذه هي صرخة التحدي الابدية تطلقها روح ثورية عظيمة.

كانت الكابينة لا تزال ترن جدرانها بصوته وهو واقف يتمايل فيها، وجهه يتألق، ورأسه مرفوعة في عزة السيادة الظافرة وكانت عيناه تلمعان بالرجولة المتوثبة، الرجولة التي تحرقها الشهوة، وهو ينظر الى مود بروستر الواقفة عند الباب. اما مود في تلك اللحظة فقد لفها فزع لا تخطئه العين ورعب اعظم من ان يظل صامتا، حتى لقد قالت:
«انك انت لوسيفر» ثم اغلقت باب الحجرة.
ظل لارسن واقفا دقيقة واحدة يحملق في الباب ثم ثاب الى نفسه فأحس بوجودي. وقال:
ـ «سأتسلم عجلة القيادة من لويس كي يرتاح، ثم أستدعيك عند منتصف الليل لتأخذ مكاني، فاذهب الآن لتنام».
وهكذا، ارتقى لارسن السلم فيما انصرفت انا الى الفراش. ولسبب لا اعرفه وجدتني لا انزع ثيابي بل اتمدد بها على السرير. واسترجعت كيف هرب مني النوم اول ليلة قضيتها على «الشبح» لكني سريعا ما غلبني النعاس رغم صخب البحارة السكرى على السطح.
ولا ادري ما هو الهاجس الذي ايقظني، لكني وجدت نفسي اغادر السرير، وانتفض واقفا مشدود الجسم وكأن الخطر ينفخ في بوقه ان «انهض يا همب».ودون وعي مني مشيت الى حجرة مود بروستر ودفعت الباب فانفتح هناك كان المصباح يرسل نورا باهتا ضعيفا رأيت فيه وولفَ لارسن يهصر مود بروستر، مود التي احبها انا..يكاد يسحقها بين ذراعيه بينما هي تحاول دفعه عنها بقوةٍ واهنة وقلب يرتجف. كانت تجاهد ان تهرب منه، رأسها يوازي صدره العريض الذي يدقّ فيه قلبُه مثل طبل المعركة. أنى لها النجاة!

في هذه اللحظة وثبت من الباب الى سريرهما ودفعت قبضة يدي في وجه لارسن لكنها كانت لكمة طالب متدرب لوجه رجل متمرس، وزمجر لارسن غاضبا وازاحني بذراعه. ومع ان ما قصده كان مجرد ازاحتي جانبا فقد سقطت على الارض وطرق رأسي بالخشب وشعرتُ بالدوخة وكأنني وقعت من منجنيق. هذا بعد ان ارتطمت بباب المطبخ فتكسر احد

الواحه وتبعثرت شظاياه.

تحاملت على نفسي ونهضت، ثم تخلصت من شظايا الباب المحطم دون اهتمـام بالشطوب الدامية التي خلّفها ذلك. وامتدت يدي الى الخنجر المعلق عند خاصرتي فجذبته من غمده وقفزت ملوحاً به في وجه لارسن. لكن شيئا ما كان قد حصل.فقد انفصل لارسن عن مود وتدحرج على الارض. كنت فوقه الآن وبمقدوري ان اطعنه، غير ان قوة خفية منعتني من ذلك، فلم افعل.

نظرت الى مود، فوجدتها واقفة مستندة الى الحائط، لكنها تترنح. ونظرت الى لارسن فوجدته يحاول النهوض، لكنه دائخ يكاد يسقط، لولا ان لمست يده الحائط فاستند اليه، كان وجهه شديد الحمرة، وعلى جبينه مظهر الم فظيع. ترى هل عاوده صداعه المعهود؟! هو الآن امامي في موقف الضعيف المسكين، فهل اقتص منه جريرة عدوانه على مود!!

ذكرتُ في نفسي مود فهاج خاطري واضطربت.وبانـدفاع المجنـون الظامىء لأنْ يبطش أغمدت نصل الخنجر في كتف لارسن وحين اصطدم الحديد بصلابة عظم اللوح شعرت ان طرف الخنجر قد انطعج، فسحبته من موضعه ورفعته اود ان اغمده في مكان آخر. كنت أود قتله، لكن مود صرخت في:

ـ «لا تفعل. ارجوك» فخفضت ذراعي للحظة، ثم رفعتها بالخنجر الذي يقطر دما لازهق روح لارسن.لكن مود أسرعت تعانقني طالبة ان اترفع عن ذلك. لقد احتضنتني حتى غمر شَعرها وجهي.. وأبردَه. وقالت:

ـ «من اجلي. لا تفعل ذلك»

ـ «من اجلك، واكراما لك أود قتله».

ـ «اصمت»

ووضعت اناملها الرقيقة على فمي. كان يسرني تقبيل تلك الانامل لو ان الموقف يسمح بذلك. فقد كانت ناعمة رقيقة دافئة. ثم ان مود جردتني من الخنجر وهي تقول: «من فضلك، ارجوك» فكانت كلماتها المتوسلة ماء اخمدت به نار غضبي الهائج. ولا أنكـر الواقع حين اقول: لقد ظلت الكلمات الرقيقة نقطة ضعف في حياتي على الدوام. وها هي تفعل فعلها الآن. اي شجاع انا! رجل تتلاعب به رقة الكلمة! ترى هل يتصرف لارسن مثل هذا لو كان في موقفي الآن؟ كلا، على التأكيد.

تراجعت خطوة الى الخلف فانفصلت عن مود، وأغمدت الخنجر في قرابه. ثم نظرت الى لارسن.. كان لا يزال يعصر مقدمة رأسه بين راحتيه، مما حجب عينيه عني، وبخاصة انه كان منحنيا قليلا الى الأمام. وبدا انه نصف مشلول او أعرج على الاقل، اذ كان يجر رجليه حين مشى قليلا وكتفاه مرتخيتان متهدلتان.هل قطع نصل الخنجر احد اعصابه الكبيرة!!

وقال لارسن:

ـ «يا فان ويدين. اين انت؟»
كان صوته خشنا معبرا عن شدة الاسى والألم معا، لكنه ظل هو صوته الرجولي المعهود، والذي يحمل ما يجبر على الطاعة،فأجبت:
ـ «ها انا، ماذا تريد؟»
لا ادري لماذا عدت الآن الى نفسية همب المتخاذلة المطواعة!! وسمعته يقول:
ـ «انني مريض، مريض جدا يا همب»
وتقدم قليلا الى كرسي كانت هناك فجلس عليه. وحين حاول النهوض كانت جبهته تتفصد عرقا ورأسه شبه مبلول من جذور شعره. وكرر:
ـ «انني مريض، مريض جدا يا همب».
ـ «ماذا تريد؟ هل استطيع مساعدتك؟»
ـ «نعم، خذني الى سريري في القمرة».
والحق انني خشيت الاقتراب منه لاسناده في طريقه الى السرير. فلربما كان يود الامساك بي، وحينذاك يزهق روحي بكلابتي قبضته، لكني ايضا تنازعتني رغبة عارمة في اظهار شجاعتي امام مود. فانا لا ارضى ان ترى مني اي تصرف يدل على الجبن، مهما كانت النتيجة. لذلك تقدمت نحوه واسندته وهو يمضي الى السرير. وحينذاك ادركت ان الرجل كان صادقا لا ينوي ان يلحق بي اذى. وقد القى بنفسه على السرير وظل يعصر جبهته براحتيه وهو يقول:
ـ «انا في الحضيض، وانا مريض».

كانت مود ترقب كل ما يجري، فنظرت الي متسائلة:
ـ «ماله! لقد حدث معه شيء غريب! شيء لا اعرفه ولا استطيع حزره! كان ذلك قبل ان تطعنه في كتفه، فالجرح الذي سببته الطعنة جرح سطحي في العضل، لا يمكن ان يكون سببا في ما هو عليه الان، اني اراه خائفا مرتهبا. لماذا؟ كيف؟ انا لا ادري».
ـ «ولا انا».
ـ «ثق يا سيد فان ويدين انني لم ار شيئا ولن اخبر احدا،لكني اقول لك: لقد أفلتني من عناقه بمحض ارادته.. واخذ يترنح. ماذا يجب ان نفعل؟ بل ماذا يجب ان أفعل؟ انا المسؤولة عما حدث له، فكيف اتصرف؟ قل لي»
ـ «سأفعل ذلك بعد ان أعود من السطح. اصبري قليلا».

صعدت الى سطح السفينة فوجدت لويس ممسكا بالدفة. والقيت اليـه تعليماتي حول اتجاه السفينة في اقتفاء قطيع العجول، كما انزلت الشراع الرئيسي وشددت حبال الصاري، ثم هبطت الى حيث كانت مود. واشرت اليها ان تظل صامته حتى اعود من قمرة لارسن. وفي غرفته وجدت الرجل على حاله السابقة، لكنه منتبه الان. كان ممددا على ظهره في استرخاء. وقلت له:
ـ «هل من مساعدة استطيع تقديمها لك؟»
ـ «كلا. انا بخير الان. اتركني حتى صباح الغد».

ادرتُ ظهري منصرفا من عنده، فلاحظت ان رأسه لا يزال يهتز. ودلفتُ الى غرفة نوم مود، فوجدتها تنتظرني على احرّ من الجمر. قالت:

- «والان وبعد كل ما حدث، ماذا يجب ان نفعل؟»

- «هل تضعين نفسك تحت رعايتي مسافة ستماية ميل؟»

وصعقتها المفاجأة لحظة ثم تمالكت نفسها وقالت:

- «تعني اننا..»

- «نعم، اعني ما فهمتيه بالضبط».

- «لماذا؟»

- «لانه لم يبق لنا الا قارب في البحر الفسيح»

- «تعني انه لم يبق امامي انا. اما انت فالقارب والسفينة بالنسبة اليك مكان امين. بمقدورك ان تحمي نفسك بخنجرك، اما انا فلا استطيع ذلك»

- «كلا، فموقفنا واحد: الخنجر لا يسوى شيئا، لا بد ان ينتقم لارسن،ولست نِداً له كما تعرفين. حينذاك سيكون بقاؤك في قبضته محفوفا بالخطر».

- «وماذا تريدني ان افعل؟»

- «ارتدي اثقل الملابس لديك، فالبحر بارد في الليل، واسرعي قدر ما تستطيعين:خذي ما تجدينه من الاطعمة المعلبة».

- «سأفعل ذلك فورا».

تركت مود تستعد وهبطت الى مخزن المؤونة، فوضعت بعض العلب في كيس، وحزمت بعض البطانيات وما رأيته ضروريا من عدة البحر للقارب.. اذ ان المغامرة خطيرة، فنحن على وشك ان نقذف نفسينا في قارب خفيف قد تتقاذفه امواج المحيط. والواقع ان مواجهة خطر مقبل تشحذ قريحه الانسان وتولد فيه ذكاء حادا لا يتوفر له في الاحوال عادية. ها أنا افطن الى ضرورة توفر السلاح. لذلك فتشت عن بندقية لارسن، فلم اجدها الا في غرفة نومه. ودخلت عليه هناك فوجدته لا يزال راقدا في نوبة من الصداع والدوخة. وتناولت البندقية ثم سحبت صندوقا صغيرا مملوءاً بالعتاد، وصعدت الى السطح. ولم انس قبل خروجي من عنده ان اهمس لنفسي وله:

- «وداعا يا لوسيفر!»

وقدّرت ان صندوقا واحدا من الخرطوش لن يكفي، فذهبت الى حيث يضع الصياد ون عتاد بنادقهم لأخذ صندوقين كبيرين من هناك. هكذا بات كل شيء جاهزا. ما علي الا انزال القارب من موضعه الى البحر ومساعدة مود في ان تهبط اليه.لكن هل كان ذلك عملا سهلا على رجل بمفرده! كلا اطلاقا،ذلك ان انزاله من موضعه وتحميله بالعدة اللازمة لمثله، ونقل حاجياتنا انا ومود، ثم انسلال مود من موضعها ونزولها فيه - كل ذلك يجب ان يتم في ظروف معينة، اولها ان لا يُحِس بما يجري احد من البحارة، وثانيها انني في حياتي لم امارس التجديف مرة واحدة. هذا علاوة عن ان رهبة شديدة قد غمرتني الان، فها هي روح مود، حبيبتي الاولى في هذه الحياة، امانة في يدي، فانا اقامر بها. قد يسوغ لي ان

اجازف بحياتي الخاصة، اما حياة مود فأثمن من ذلك وأعز. نعم ان الحب يسوّغ الكثير، لكن هل انا متأكد من حبها لي بالقدر الذي يصوره لي جسدي اولا ومشاعري ثانيا!

أيا كان الحال فقد استطعت بعد جهد جهيد ان انزل القارب من كلابه وان أفك علاقاته الجانبية بعراضة الصاري حتى يغدو موازيا لصفحة جسد السفينة. ثم انني هبطت اليه واخذت اتناول تجهيزات سفرنا من مود التي كانت عند الحافة على السطح على الشبح. وقد أرهقها العمل، فلم ارها الا منطرحة على قفاها عند افريز الحافة. يا للمصيبة! هل اقوم بمغامرتي كلها في سبيل امرأة ميتة! هل هذه خاتمة سريعة لحب لم يترعرع!

صعدت من القارب الى السطح، وجسست نبضها.. كان عاديا. ثم دسست يدي في صدرها. كان دافئا نديا بالعرق بين النهدين. يا للفرحة. اذن كان ما تعانيه مجرد ارهاق مؤقت، عند ذاك تذكرت ان اختي كانت تفعل مثل ذلك حين تشعر بالتعب، تتمدد على ظهرها وتفرج ساقيها وتظل هكذا بضع دقائق، ثم تنهض معافاة وتستأنف العمل.

ودون حاجة الى تفصيل ما عانيته في تلك اللحظات، ثم في الساعة التي تلت، فقد استشعرت القوة في جسدي ونفسي حين نهضت مود وعاودت مناولتي ما تبقى من الامتعة الى القارب.

وكان من سوء الحظ أن صَعَد احد البحارة من المهجع الى السطح، لكنه من حسن الحظ ان الرجل كان ثملا، فوقف عند قاعدة الصاري الرئيسي يحملق في نجوم السماء، ولم يغادر مكانه. ولو انفتل او تمشّى على السطح لأحس بحركة مود. مما قد يفشل الترتيب كله. بل لو صاح في تلك الحال لكنتُ دفعته الى البحر بعد خنقه. هكذا فكرت، لكني لم انفذ لعدم الحاجة الى الاطلاق.

انتهى الامر اخيرا، وتلقيت مود على ذراعي، وهي تهبط الى القارب. ثم انني فككت مرابط المجدافين وبدأت العمل. كان التجديف خبرة جديدة احاول ان اكتسبها، ومع هذا فقد سارت امورنا على ما يرام. وهكذا كررت مع مود قولها «وداعا يا لوسيفر» ونحن نومىء الى سيد «الشبح» الراقد مريضا في قمرته. وقد سألتني مود «الى اين؟» فكان جوابي قصيراً واثقا: «الى اليابان، فهي قريبة الآن».

الفصل السابع والعشرون

لا حاجة الى وصف متاعب اليوم الثاني من الهروب، فبعد ٣ ساعات من العناء اصبحنا نسير في اتجاه جنوب جنوب الغرب. ثم هبط الظلام. الآن كان أمامنا الخيار: إما ان نتجه جنوباً الى الشرق، حيث البحار الأدفأ والطريق أطول مما ينبغي وقد نتعرض للضياع في لجة المحيط، وإما الاستمرار في اتجاهنا نفسه، فنظل عرضةً لاحتمال هبوب عاصفة تقذفنا الى الأغوار بحكم ان قاربنا لن يقوى على الصمود. ومع هذا فضّلتُ المخاطرة. وفوقي ارتسمت قبة السماء المرصعة بالنجوم.. لكنني لم أستطع التجديف بعد مُنتصف الليل، فأخليت المرساة الى الماء ولبثنا حتى طلوع الفجر.

كنت الآن منهَكاً من السهَر واحتمال الخطر علاوة عن التجديف.. عيناي منّفختان، وقدماي متيبّستان، وعلى ظهري وصدري برودة الرذاذ. أما «مود» فكانت ملتفّة ببطانية سميكة وفي قدميها حذاء طويل الرقبة من المطاط. كنت أحرص عليها، فهي الحِرز الذي أصونه برمش عينيّ. كانت خصلة من شعرها الأشقر نافرة متهدلة على جبينها. وسألتُ:

«لماذا لا تبقي النساء شعرهن متهدلاً؟ إنه أجمل».

فقالت ضاحكةً: ـ «لقد ضاع منّي دبوس كنتُ أعقصها به، أما الجمال الذي تراه فالأمر فيه نسبيّ، فالذي تعتبره جميلاً قد لا يراه غيرك إلا شيئاً عادياً تقتضيه طبيعة الأشياء».

زاد ذلك من إكباري لهذه المرأة الصلبة، التي لم يُبعدها الواقع التاعس من الحفاظ على الرزانة وهدوء التفكير. كنت الآن أتصورها مخلوقاً سماوياً قصِيّاً عن عالم التعاسة، وقصيّاً عني ايضا. أنا أراه اسمَى من امرأة لها جسد ورغبات.. أتراني مسكيناً قد حوّر انقطاعه عن مخالطة رقة المرأة نظرتَهُ حتى باتت أقرب الى الطوباوية والرمز! لقد شعرت برهبة وخوف من أن أفكر في «مود» كامرأة لها جسد. وهكذا.. صرت في دوّامة. أمّا هي، فيبدو أنها لم تستشعر شيئاً مما أنا فيه. كانت تفتش عن الدبوس اللعين، في قاع القارب. وكانت حين تنحني يتكوّر ردفاها ويستقيم ظهرها فأرى فيها «أنثى». لكنها أنثى من الآلهة.

ووجدت «مود» الدبوس آخر الأمر، فرشقته لتثبّت الخصلة المتمردة.

في هذه الأثناء كنت قد باشرت التجديف، وكان القارب يسير، أميناً، وفي اتجاه غير بائن المعالم. وشعرت بالإنهاك ساعة الضحى، فقلت:

ـ «الآن نتناول الفطور، لكن عليك أن ترتدي ما يُدفئك اكثر».

وأخرجتُ قميصاً صوفياً ثقيلا من صندوق الأمتعة وأعطيتها إياه. كان خشناً من الصِنف الذي يستعمله البحارة. لكن ما حيلتي، وليس هناك أرقّ منه! وتركتْه يسحَل من كتفيها على صدرها وحتى ركبيها. كان حجمه كبيراً لكنه دفيء. ثم استبدلتْ قبعتها الصغيرة بقبعة بحّار كبيرة غطت جميع شعرها، وانسدلت ثنيتها على عنقها الابيض المشرب بالحمرة، وأذنيها المتوترتين من البرد. ودفِئَت «مود»، وما هي الا لحظات حتى تورّد وجهها وغمرها مظهر العافية. اذ ذاك أصبح وجهها بيضوياً دقيقاً شاع في وجنتيه الدم، تزينه عينان تبرقان بالرغبة في الحياة ويحرسهما حاجبان رفيعان.

وهبّت دفقة من الريح قلقلت القارب. كنت آنذاك افتح عُلبة «لسانات» محفوظة، فأسقطتُها من يدي وتناولتُ المجداف لتصحيح الاتجاه. وقالت مود:

ـ «الريح في صالحنا. وها هي دفقات منها بدأت تؤازرنا في الوصول».

فقلت:

ـ «إنها تفيدنا لو هبّت من الجهة المعاكسة، أما هذه فلا».

ـ «الواقع أنني لا أدعي أية معرفة بشؤون الرياح. ولذا فإنني سأتلقى منك الدرس الأول بعد الفطور. هذا اذا سمحتَ يا سيد فان ويدين».

لم أشعر بالارتياح لكلمة «سيّد» هذه، لكني قلتُ:

ـ لستُ أدري كيف أعلّمك، فلست سوى مبتدىء. هذه أول مرة أجدني فيها مسؤولا عن قيادة قارب صغير!»

ـ «إذنْ نتعلّم سوّية».

وضحكتْ، فسرّتني تلك الضحكة، واعتبرتُها إشارة إلى حميمية أخذت تزداد بيننا. وقلت:

ـ «لا قهوة لدينا، أنا آسف».

ـ «ليست القهوة فريضة أبداً، فلا حاجة الى أسف».

ـ «ولا شاي أيضا، ولا حساء، ولا صابون، ولا كل هذه..»

ـ «إن حرّيتنا معاً من «الذئب» تسوى أكثر من كل ذلك».

كنت أود أن أضيف «وبقاءنا معاً أيضاً»، لكني استحيْت، كما خشيتُ أن يكون في ذلك اندفاع من طرفي، لا مقابل له من الطرف الآخر.

شربتْ مود كوباً من الماء بعد فطورها القليل من «اللسانات» وكسرةٍ من خبز جاف، ثم باشرت الدرس الأول في «علوم البحر». أقول «علوم البحر» وأنا أضحك من نفسي، فلم

يكن لدي «علوم» حتى أعلّمها.

لقد أمسكتْ المجداف وبدأت تضرب الماء، واستمرت تفعل ذلك اكثر من ساعة كاملة.. وأدهشني ما تفعل، فما كنت أنتظر من هيكلٍ رقيق مثل الذي لديها ان يصمد. ثم إنها شعرت بالإعياء فألقت المجداف تاركةً القارب يسير وحده. فأسرعتُ اليه وبدأت أجدّف. وقلت:

ـ «أحسنتِ الأداء في الدرس الأول».

ـ «إنه الشعور بالخطر، والتعلق بالحياة. ذاك هو الذي أحسن الدرس».

استعدتُ في ذاكرتي آراء «ذئب البحار». ها هي الحقيقة المرة: «التعلق بالحياة! امرأة ضئيلة الحجم تصارع البحر الهائل، رغبة في أن لا تبتلع حياته حياتها.» أليس «وولف لارسن» على صواب حين قال «كلّنا نُتَفُ من الحياة، متصارعة؛ فالنتفة الواحدة إما ان تبتلع غيرها او يبتلعها غيرها ليبقى!». إذن أين هي المثُل، والقِيَم! كلّها باطل الأباطيل..

وبدا ان تشجيعي قد بعث في «مود» حماسة جديدة. لقد ارتاحت قليلاً ثم استأذنتني أن تعاود التجديف. وكنتُ منهكا فقبلتُ ذلك،كما كان البحر هادئاً فشعرت بالاطمئنان. وقالت مود:

ـ «نحن متساويان في المشقة. لقد سهرتَ طول الليل.. خذ قسطك من النوم الآن.»

ما كدت أتمدد في قاع القارب حتى ذهبت في وادٍ من النوم عميق. ٧ ساعات كاملة كنتُ خشبة.. ذلك أن للجسم البشري طاقةً محدودة للاحتمال، وقد استنفدتها من قبلُ.

وحين نهضت، قالت مود:

ـ «قُم، فأنا أكاد أسقط من الإعياء».

وقّطبتُ جبيني ألومها لأنها سمحتْ ان أنام أكثر مما ينبغي، فأرهقت نفسَها اكثر مما أريد، وأدركتْ مود ما أرمي اليه فقالت: ـ

ـ «لا توبّخني. لا حقَّ لك في ذلك. إن جسدك مهدود، وكان ينبغي أن تنام».

ـ «صحيح، لكن ليس الى درجة أن ينهدّ جسدكِ انتِ».

ـ «هذا هو الناموس في البحر. إنني سأطيعك كما يطيع البحار القبطان في السفينة».

ـ «ما دام الامر على هذا النحو فلي إليكِ طلب صغير».

ـ «ما هو؟ قل.»

ـ «ألاّ تبدأي جملتك بكلمة «لطفاً». ولا «من فضلك». ان قولك هذا يجعلني أضعُفُ أمام الرقّة فأجيبك الى طلبٍ لا أريده لو كنتُ القبطان فعلاً.»

ـ «مثل ماذا؟».

ـ «مثلَ أن أدعك تتسلّمين المجداف أو الدفة الى درجةٍ تكادين تسقطين فيها من الارهاق.»

ـ «كلا» ذلك هو نصيبي من العمل، سواء طلبتُه بأدب او جفاء.»

وابتسمتْ، فقلت:

ـ «أنا الذي أعيِّن مقدار نصيبك من العمل. ألم تجعليني القبطان؟!»

ـ «لكني أخشى ان تجور على نفسك. وهذا يهمّني.»

سرّني إفصاحها عن مشاعرها بالقول «وهذا يهمني»، فارتبكت، لكنّي غلبتْني طبيعةُ العِشرة مع وولف لارنس، فقلت «القبطان هو القبطان.» وتابعت التجديف.

في مساء ذلك اليوم شاهدتُ دخاناً يرتفع عند أفق البحر من بعيد. وتصوّرتُه دخان السفينة «مقدونيا» تلاحق «الشبح»، ليثأر قبطانها «الموت لارسن» من أخيه «الذئب» الذي تهرّب منه سابقاً بفعل كثافة الضباب، وأسر صيّادي الحيتان من عنده! ذاك ما قدّرته.. لكن بدون دليل يُثبته أو ينفيه.

ثم إنني طلبت من مود أن تتولى السهر حتى منتصف الليل، بعد ان ألقيت المرساة، وأنا أشعر بالاطمئنان الى عدم احتمال هبوب العاصفة. ونمت حتى ذلك الوقت. وكنّا قبل هذا قد غيّرنا الاتجاه، فصرنا الآن نسير الى الجنوب الشرقي. وقد سألتني عن ذلك «مود» فقلت:

ـ «لم نعد نُبحر صوب اليابان. لقد تغيّر الوضع».

ـ «الى أين اذن؟»

ـ «لا أدري اكثر من أننا في عرض البحر، وأقدّر أننا متجهون صوبَ موقع من سواحل سيبريا.»

ارتاعت مود مما سمعت، لكن، ماذا كان بوسعها ان تفعل!! والواقع ان تقديري قد لا يكون صائباً، فليس لديّ أية آلة تساعد في تحديد الاتجاه ولا الموقع، ومع هذا فأنا اشعر في دخيلة نفسي انني أفعل الصواب. لقد حفزتني الآن حماسةُ أنني مسؤول عن سلامة مخلوق آخر عزيز. أما شعوري السابق باقتراب الموت على الدوام، الموت الذي رسّخه في أعماقي لارسن وماكريدج، فقد تبخّر الآن. بدا لي أنني أحب، والمحبُّ لا يخشى الموت، كما أنه لا يخشى الحياة. أليست النصيحة الفضلى التي تعطى للضعيف كي يتقوّى أن تجعله يتحمل مسؤولية ضعيف آخر يحبّه فعلاً! هذا صحيح. فأنا الآن لا أرهب زبد البحر ولا تأخر شروق الشمس أو بقاء لجة الظلام تلفّ لجّة المحيط.

* * *

لا أود إزعاج القارىء وللمرة الثانية بتفصيلات الحياة في البحر..لا بمهارات التجديف ولا التقزز من الافطار الجاف على علب الاسماك المحفوظة. لذا تجدني أفضّل القفز الى الأمور الشخصية بنا أنا و «مود».

أنا منهك الآن من التجديف في أثناء الليل، وبخاصة ان العاصفة قد هبت فغيّرت اتجاه القارب من جديد. اما «مود» فهي كالفأر الغارق، مبلّلة الثياب، منفوشة الشعر، تكاد ترتجف من البرد. ماذا افعل لها!! ليس لديّ ما أُعطيه لها غير القميص، وقد أعطيتها اياه من قبل. كما ان الشفقة لن تفيدني أو تفيدها. انها تحاول ان تُظهر شجاعة.. لكن

الشجاعة في أمر ميئوس منه ليست أكثر من عناد ممقوت.

ولا أدري كيف قضينا بضعة الايام التي عقبت انجرافنا صوب المحيط. لم اكن انام ولم تكن مود مطمئنة الى بقائنا أحياء. كنا نأكل لماماً، فالمواد التي اخذتها من الشبح قد نفدت. وكنا لا نكاد نشرب! أين الماء العذب! كنت ألحس على رؤوس اصابعي نقطاً من ماء المحيط. ولم نكن نغتسل، مع اننا وسط الماء.. وحتى وجوهنا ظلت أقرب الى المنفوخة المتورمة من أثر البرد والقلق وعدم الاغتسال.

وملخص القول: كانت حال «مود» تبعث على الرثاء، فهي تقعي كالقطة الجائعة في قعر القارب.. لكنها لا تموء، لأن المواء لا يفيد. ومع هذا كنت اجدها شجاعة حين تتكلم. ما أغرب هذه المرأة! جسد واهن، وإرادة من حديد! ولست افهم ظاهرة لحظتُها في عيني تلك المرأة.. لقد بدت لي الآن أنثى. ان عينيها تحدجانني كرجُل، لكن عينيّ تحدجانها كقُبطان، كلّ همه ان ينجو بنفسه اولاً، وبرفيقة قاربه بعد ذلك. نعم لقد دغدغني شيء من العاطفة تجاه مود الآن، لكني لم اجرؤ على الافصاح عن ذلك حتى إلى نفسي.. هل كان الظرف التاعس ملائماً! يقول بعضهم: ان العاطفة تتوقد في الخطر، لكني أردّ على هذا القول بأن ذلك التوقد ما هو إلا انعكاس لحدّة الشعور بالخطر، او هو اقتراب من حافة اليأس. أما العاطفة المعافاة فإنها تهرب حين ظهور الخطر الحقيقي. الستَ معي أيها القارىء في ما أزعم!؟

ظلّت العاصفة تسوق قاربنا البائس أربعة ايام، وظلت حالنا في ضنك عظيم.. ومع هذا ظللتُ أكذب على نفسي، فكلما سألتني مود عما أشعر به قلت لها: «اطمئنّي، سننجو» لكن الشك كان يلوح جلياً في قسمات وجهها وبريق عينيها. ويبدو أن سوء التقدير ينفع احيانا، فلست أستطيع تفسير كيف هدأت العاصفة في صباح اليوم السادس على هروبنا من الشبح. السماءُ الآن زرقاء صافية، ووجه الماء هادىء لمّاع. بل إن نفسيتي قد استقرّت الآن، ولو دقائق معدودة. والى ان سألتني مود:

- «أين نحن الآن؟»

فُجئت بالسؤال، وزاد من حَيرتي أنني لا أعرف جواباً. وقد حدّثتني نفسي ان اقدم كلاماً غائما لا يفيد شيئاً مثل خطبة أحد السياسيين المراوغين أيام الانتخابات، لكنّي عُدت الى طبيعتي المستقيمة وآثرت الصراحة والصدق، وان كان فيهما فظاظة. فقلت:

- «الواقع أنني لا أدري أين نحن، لو كان معي آلة المَيْل الخاصة بِ وولف لارسن أو «الساعة البحرية» التي كانت على الشبح لعرفتُ موقعنا».

- «تُعجبني صراحتك وصدقُك.»

قالت مود ذلك بنبرة شجاعة، فأذهلني هذا. ما أشد عزيمة هذه المرأة. من عزمها سأستقي صموداً، أهو حبّها لي يا تُرى، أم طبيعتها الأصلية في ان تكون شجاعة بغضّ النظر عن الظروف! لا هذا ولا ذاك، وانما أظنه مكابرةَ الحياة في أن عمرها طويل، سواء في الفرد البشريّ، أم في الشجرة التي تموت.

وقالت:

ـ «أنظر، انظر.. من بعيد تلوح صخور تلمع. هل ترى أننا اقتربنا من الشاطىء، وأي شاطىء هو؟ لقد قلتَ لي إننا انحرفنا عن جهة اليابان، فهل نحن اقرب الى ألاسكا في الشمال الشرقي؟ انظر جيداً».

وحدّقت بنظري فعلاً. نعم كانت هناك ألسنة من الماء تلمع وسط مشحات من السواد. اذن هذه صخور شاطىء ما، ولا بد أنها خضراء وإلا لما انعكست صورتها في الماء. نعم، انها صخور. لقد نجونا أو نكاد!! لكن اين تقع تلك الصخور؟ لم أقتنع في داخلي أننا على مقربة من الاسكا، فهل تكون أطراف سيبريا؟ ربما. لا أدري. وقلت:

ـ «لا أظن أنها صخور شاطىء ألاسكا. لكنها يابسة على كل حال».

وكدت أصفّق فرحاً.. فالمهم ان تطأ قدماي اليابسة، أما أية يابسة تكون فهو أمرٌ لا يهمّ أبداً، وبدا أن مود اطمأنت الآن فقالت:

ـ «إنني أود أن اشكرك على العناء الذي لاقيتَه من أجلي..»

ـ «أي عناء.. إنه من أجلي أيضاً، لا من أجلك وحدك..»

ـ «كلّا، فقد كنتَ أميناً سالماً في سفينة الشبح. إنك رجُل، وبحّارٌ عامل.. فلا خوف عليك، ولا يهدِدك خطر العدوان. أما أنا فامرأة..»

ـ «كلا يا مود.. لقد قمتُ بواجبي تجاهك، لأن في ذلك صيانةً لروحي ايضاً. ان وولف لارسن وحش مفترس، أنا وانت في نظره سِيّان. وهل تظنّينني كفؤاً له لو داهمته نزعة الافتراس!»

آثرتْ مود، كما بدا لي، أن تغير اتجاه الحديث، فقالت:

ـ «بقي عليكَ معروف آخر تسديه إليّ يا فان ويدين».

وانتظرتُ أن اسمع من لسانها أية اشارة الى الحبّ او العاطفة، لكني ذهبتُ بعيداً، فكل ما سمعته أن قالت:

ـ «إنني لا أتقن السباحة، وقد يكون عليك ان تحملني من طرف الشاطىء الى اليابسة»..

ـ «وأنا أيضاً لا أتقن السباحة فيما لو تحطّم القارب على الصخور، لكني سأجعله يدخُل خليجاً صغيراً بأمان، فاطمئني. ومع هذا فإنه يسعدني أن أحملك الى برّ الأمان.»

والحق ان الفكرة راقت لي جيداً، بل تلذّذتُ حين تصوّرت نفسي أحملها وقد أسندت رأسها الى صدري. ألم يك الفارس يحمل عروسه على هذه الشاكلة ليلة الزفاف في القرون الوسطى، ومارسَته المهاجرون الأولون الى امريكا في القرون الخاليات!

لم يطل أمر هذه الهواجس اللذيذة، فما أسرع أن هبّت دفقة من الريح قذفت القارب الصغير حتى كادت تحطمه. ومن حسن الحظ انه جنَح قُبالة سِيفٍ صغير من الرمل، فلم تسحقه الصخور. وعلى قمة الصخور المشرفة هناك بدت لي رؤوس سوداء فوق

أبدان بيضاء قزمية تتحرك. آه.. إذن قبالتنا تقوم مفقَسة، او مكان تفريخ طيور البنغوين المهيبة. لم يكن هناك عجول بحر، ولا صغار الفقمة.. بل كان شبه مرج من الصدور البيضاء. ما أجمل هذه الحيوانات! لقد أدخلتْ شيئاً من الانس الى نفسي. ومع أنها في العادة لا تؤكل الا أننا كنا مستعدّين لأن نفعل ذلك، فالجوع مرٌّ والحياة عزيزة.

وأخيراً تم كل شيء. ها هي دفقة أخرى تطرد القارب الى الشاطىء، في فجوة بين امتداد صخرتين كبيرتين. وها أنا أثّبت القارب. لقد شددته إلى حجر كبير دحرجته الى طرف الماء. ان المجداف جيّد سليم، وَمود مبتهجة في غاية الانشراح. أتُراها تمنحني قُبلة شكرٍ وعرفان! لقد خاب ظنّي! بل حتى إن حملَها بين ذراعي لم يعد ممكنا. لقد قفزتُ من القارب إلى الماء، ثم خوّضت فوق الحصى حافية القدمين. مسكين يا فان ويدين، ضاع منك كل شيء. وأياً كان الحال فقد اغتبطتُ بسلامتها، وظللت أنتظر المستقبل.

قضينا ذلك الأصيل ننقل بعض الأمتعة من القارب: خيشاً كبيرا، وبعض الثياب، ومجداف القارب، وقليلاً من بقايا الأطعمة المعلّبة. لم يكن عندنا ملح ولا سكّر ولا بنّ. اما الملح، فما أسهل تجفيفه. واما السكّر فلم أجد ذرة واحدة منه، وأما البنّ، فكان من حسن الحظ ان وجدت علبةً واحدة كنت سرقتها من كابينة وولف لارسن. وكانت من النوع الممتاز. لكن، كيف نصنع قهوة!

فتشت عن صندوق واحد للكبريت كنت جلبتُه من الشبح، فلم اجده. لقد أفسدَه الماء، فقذفتُه الى البحر. وقلت:

- «غبيّ!»

- «من هو؟»

- «فان ويدين.»

وضحكت مود. ثم سألت: «ولماذا؟»، فأجبتها: «لقد تخلصتُ من أفضل وسيلة لإشعال النار!»

- «لا يهمّ ذلك. ألا تذكر قصة روبنسون كروزو؟ لم يكن يحمل كبريتاً في جزيرته المعزولة، ومع ذلك فقد دبّر أمره وعاش.»

ضحكتُ من هذا التشبيه والتناقض فيه. ذلك ان روبنسون كان وحدَه، وكان رجلاً، وقرر ان يعيش في عزلته، فسعى في ان ييسّر على نفسه الحياة. اما أنا فلستُ وحيداً، ولا أريد الاستمرار في الحياة عند مفقسة البطريق. ولربما كانت وحدةُ روبنسون دون امرأة هي التي ساعدته في النجاح، أما أنا فمثلي مثل أسطورة آدم، وقد طردته المرأة من كل خير. لكن مود لا شك، أعقل من أمها، وأنبل، وليست خصماً معانداً لي، بل ربما أثبتت انها متعاونةٌ تماماً لصالحي.

ضحكت من نفسي بعد هذا الاستطراد في التصورات.. وسارعتُ الى العمل. وهكذا نصبت المجداف وجعلته عموداً لخيمة. اما غطاء الخيمة فكان هو خيش الشراع، وكنت قد طويته جيداً من قبل. ثم إني حفرت خندقاً حول خيمتنا القزمة، لئلا يلحقها الماء اولاً،

ولأطمر الحاشية بالرمل واركزها بالحجارة خشية ان تقتلعها الريح. بعد ذلك صرتُ كروزو جديداً على صخور المنطقة القطبية. ولم تمهلني الريح حتى أفرغ من العمل فقد هبت عاصفة صغيرة اقتلعت الخيمة وقذفتها ثلاثين ياردة الى الداخل على الصخور. وغاظني بالفعل أن وجدتُ مود تضحك من ذلك. أتُراها تود السخرية من مهارتي العملية في نصب الخيام!

رغم تلك الاوضاع السيئة أعدت نصب الخيمة، وقضت مود تلك الليلة فيها. أما أنا فقد قضيت اكثر الليل في القارب، لا من باب الاحتشام والحياء، بل حرصاً عليه أن تدفعه الريح في الماء، فنخسر كل إمكانية للنجاة، لو هاجَمَنا أي شيء من اليابسة. وفي صبيحة اليوم التالي قلت لرفيقتي المتعِبة المتعَبة:

ـ «اسمعي يا مود، لا بدّ من أن أعرف الموقع الذي أسعدناه بحضورنا.. سوف استطلع المنطقة، وأفتش عن أي شيء يصلح طعاماً..»

ـ «دعني أذهب معك. قد أساعدك هذا من جهة، ومن جهة ثانية: فكرّ فيما يحدث لي لو لحقك أذى. هل أنجو وأنا وحيدة في خيمة ممزقة غير ثابتة على ساحل المحيط الموحش!»

ـ «كلا. ابقي هنا، فلن أغيبَ حتى المساء. سآخذ القارب أتجوّل فيه علّني أجد مكاناً أحسن من هذا على كل حال.»

أصرّت مود على مرافقتي فاصطحبتها.. ولمّا لم نجد مكاناً أفضل من حيث كنّا، عدنا إليه. ففي الامكنة الاخرى كانت الصخور مشظاة منخربة، وانحدار الشاطىء كبيراً. اما في موقعنا فهناك لسان من الرمل على كل حال، كما ان الصخور المتدلية من أعلى ليست شديدة الانحدار. وقد عدنا بعد الظهر بقليل، وقضينا تلك الليلة على نحو ما جرى قبلها. وفي الصباح ناديتُ على مود قائلاً:

ـ «هل تودّين ان تشربي فنجاناً من القهوة! القهوة الساخنة اللذيذة!»

ولم تجبْ، بل تلمظت بشفتيها وكأنها تقول «يا الحسرة!»، وكنت قد أعددت قهوة بالفعل. جئت ببعض الاغصان الجافة، واشعلتها بقطعة من الصوان، وبمساعدة كحل أفرغتُه من خرطوشة لبندقية صيد العجول. أما الأكواب فقد صنعتها من ورق دفتر مذكراتي الخاصة بعد ان لففتُها على قُمع. وناولتُ القهوة الى «مود» فشربتها حتى آخر نقطة في الورق. نعم كانت القهوة شديدة المرارة، لكن وجودها في ذاته شديد الحلاوة ايضا. ومن اسعد الصُدَف ان «مود» أعادت تفتيش القارب بعد شرب القهوة، علّها تجد شيئاً ... وقد وجدت بالفعل مجموعة كبيرة من علب الأطعمة ... أين كانت هذه النعمة؟ لقد وجدتها «مود» مغطاة بأخشاب محطمة لا ادري من أين وصلت القارب. ربما كنتُ قد وضعتها لإخفاء المسروقات ليلة هربنا من «الشبح»، ثم شغلتني المتاعب فلم اذكرها على الاطلاق. بذلك اصبح لدينا زادٌ وفير، مما جعل مود ترتدي لباس الشجاعة وهي تقول:

ـ «أظن أننا اكتشفنا موقعاً غير معروف تلجأ اليه عجول البحر لتضع صغارها بين

صخوره. إن موقعنا ليس مفقسة لطير البطريق، كلا، بل هو حضانة لعجول البحر.. أنظر..»

ـ « أرجو الا يكون ما تقولين صحيحاً، اذ علينا ان نستعدّ لقضاء الشتاء ههنا في تلك الحال» .

ـ «لماذا يغلُب عليك التشاؤم على الدوام؟!»

ـ «لأن مَواطن الحضانة لا يرتادها الصيادون إلاّ مرة واحدة كل عام. هذا اذا كانوا يعرفونها. ومن ثم ينفد لدينا الطعام ونتجمد من شدّة البرد.. وبخاصة ان علينا قضاء الشتاء في هذا الموطن» .

ـ «كلا ، لا تخف، سنلقى غيرنا من الآدميين او يلقانا غيرنا قبل ان نتجمد ونموت. اطمئن يا فان ويدين ... لا أظنّنا ههنا قد اكتشفنا القُطب» .

ـ «أرجو ذلك» .

والعجيب ان حَدْسها كان إيجابياً. ففي مساء ذلك اليوم، وفيما كنّا نجوب الشاطىء عثرنا على حطام قارب لا بد أنه كان لاحد صيادي العجول. كان القارب محطماً. قد انطرح الصاري الصغير فيهً الى جانبه، وتخلّعت صفحته، ولا شراع له. بجانبه كانت بندقية صدئة ملقاة، ونصل سكين مكسورة. وعلى جانبه قرأت بصعوبة اسم «الغزال ٢». اذن فهو قارب صغير من سفينة صيد كبيرة. ما أوحش منظر الحُطام! وبخاصة اذا رآه مثلي ومثل مود، اللذين لا يزالان غير مطمئنين إلى أن الحياة متاحة لهما بين نخاريب الصخور!.

تابعتُ الجولة حول موقعنا، فوجدت ان الحظ قد حط بنا على طرف جزيرة يبلغ محيطها ٢٥ ميلاً تقريباً، وعرضها ما بين ميلين الى خمسة. هل نحن روبنسون كروزو وامرأة من جديد! لست ادري. لم تكن سواحل جزيرتنا في معظمها شديدة الانحدار، بل كانت في غير الموضع الذي نزلنا فيه، أقربَ الى مرج منبسط تغطيه صخور تتدرج في هبوطها حتى تلامس مياه الشاطىء .

بعد كل هذه المكتشفات القيّمة (!). شعرت حقاً بأن من واجبي ان أنشرح. وحاورتُ نفسي، لأنني لم أجد من أحاوره. قلت :

«الآن افرح يا فان ويدين. لقد صدَق وولف لارسن حين قال : عليك ان تقف على ساقيك انت، يا فان ويدين، ولن تفعل ذلك الا اذا باشرت العمل بعد قرار تتخذه بنفسك، وتنال رزقك بعرق جبينك. ها أنا أتخذ قراري، وأكسب رزقي بعمل يدي. لقد علّمني وجودي السابق على «الشبح» شيئاً كثيراً. أما تغلّبتُ على ماكريدج الطباخ! أما أوقفت «ذئب البحار» عند حدّه، حتى كاد يخضع الى الأبد!» .

وأخذني الزهو عند هذه الفكرة.. فهل ترى هذه الخيلاءَ الفكرية تدوم طويلاً!! استمرت تلك الثقة في النفس بالفعل. وها أنا أتحدث الى مود عارضاً عليها ضرورة ان نبني كوخا. لقد قلت لها :

ـ «لا يلوح أي أمل في ان نلتقي أحداً طوال هذا الشتاء.. والبرد قارس جداً في هذه المناطق، من ثم فإن خيش الخيمة لن يصمد حين تهطل الثلوج او تزمجر العواصف. ان

علينا ان نبني كوخا، نأوي اليه. فلن استطيع الاستمرار على المبيت في القارب، فالعاصفة ستحطمه يوماً ما. هذا ما اراه يا مود، فكيف ترين؟» .

ـ « لستُ خبيرةً ببناء الأكواخ، لكني مستعدة للتعاون معك.. يدي ويدك. وما دام الواقع القاسي هو الذي يتحكم، فلماذا لا نحاول تدبير حيلة فيه.. لكن، كيف ستبني الكوخ المقترَح؟»

ـ «ألتقط حجارة متوسطة الحجم ثم أرصفها فوق بعضها في شكل ٤ جدران، وألصق ما بينها بالطحلب الرطب من على الصخور وطرف الشاطىء. وحين يتعرض الطحلب للشمس يعصره ثقل الحجارة وتجففه الشمس فيكوّن نوعاً من الطين الذي يستعمله البناؤون» .

ـ «وكيف تستر الكوخ من اعلى؟» .

ـ «إما بجلود الفقمة المسلوخة او جلود عجول البحر. هكذا يفعل كثير من الاسكيمو. وحين يسقط الثلج ويبرد ـ تغدو تلك الجلود يابسة وقوية كأنها صفائح من الحديد. إنها لا تسمح بتسرّب الماء كما انها تُبعد البرد أيضاً.»

ـ «ذاك لا يهمّني، وإنما يهمّني ان أعرف كيف تود الحصول على تلك الجلود» .

ـ «هل تجدين سبيلاً غير قتل العجول وسلْخها ثم تعريض الجلود للشمس؟!» .

ـ «كلا .. وهذا ما أراه نوعاً من الوحشيّة».

وكشّرتُ ، وقطبت جبيني حين سمعتها تصفعني بالكلمة الأخيرة. هل أنا وولف لارسن صغير الآن! هل تظل رقتها هي التي تسيّرها حتى حين تواجه الهلاك من شدّة البرد! وقالت :

ـ «ما لك عبَسْت ! أنا لم أقصد الإساءة إليك. لكن، هل تبرّر القيام بمذبحة لهذه الحيوانات الوديعة يا فان ويدين؟» .

ـ « لا أود اقتراف مجزرة، لكني أود الإبقاء على حياتكِ وحياتي».

وهنا تذكرت آراء وولف لارسن في صراع البقاء. كان يقول: إن نتفة الحياة ذات الخميرة الأكبر هي التي تمتلك حق التهام نتفة حياة اخرى ذات خميرة اصغر. وأنا هي الخميرة الأكبر الآن. وقالت مود:

ـ « ما دمت مصّراً فَدَعني أذهب معك. قد تهاجمك العجول. ومع ان مساعدتي ستكون تافهة من حيث القوة، فإنها مفيدة على كل حال. قل لي: كيف ستقتل العجول؟» ..

كان هذا سؤالًا في الصميم: كيف سأقتلها؟ إنني لا أحسن قتلها بالرصاص، ولا بالحربة التي تطلقها بندقية الصيد، فليس لديّ حراب ولا بنادق. اذن، عليّ أن أضربها على رأسها بعصا غليظة حتى أحطم الجمجمة. اذَ ذاك يموت الواحد منها، فأتولى سلخ جلده بعد ذلك. وكنتُ قد سمعتُ من الصيادين على «الشبح» أن ذاك ممكن فعلاً، بل لقد رأيتهم يقتلون بعضها بهذه الطريقة على سطح «الشبح» نفسها. وكانوا يضربونها بعصا مكعبة الرأس، ثقيلة، قصيرة يبلغ طولها ٤ اقدام. وهناك واحدة من هذه العصيّ معي في القارب.

وقالت مود :

ـ «أتضربها بهذه العصا حتى ينتثر دم أمخاخها وتموت! تلك فظاعة!» .

ـ «اذن لا ترافقيني».

ـ «بل افعل، وسأدير رأسي حين تضرب، لئلا أستفظع جريمة الموت» .

ـ «ذاك شأنكِ، لكني سأضرب حتماً».

انتهى حديثنا عند هذا الحد. وباشرتُ صبيحة الغد في بناء الكوخ. وكان الأمر سهلاً، حتى ارتفعت الجدران أربعة ٤ اقدام في يوم واحد. ومن المضحك ان قالت مود ساخرةً :

ـ «أراك لم تفصّل موضع شباك في الواجهة، ولم تفكر في زجاج له..». عند ذاك ضحكت فعلاً وأنا أقول :

ـ «لقد أوصيتُ على البلور من شركة ميلليز في كاليفورنيا. وقد يصل قريباً» .

وفي اليوم التالي كان عليّ أن أباشر النشاط لتأمين مواد السقف، أعني جلود العجول. لقد خُيل إليّ أن الأمر سهل للغاية، فما إن أقتربُ من فحول العجول حتى تهرب، فألحق الضعيفَ منها وأسحق رأسه بالعصا. وكان هذا كما تبيّن فيما بعد هو رأي المغفّلين. لم أكن أعلم ان العصا التي يستعملها الصيادون وهم على اليابسة هي غير تلك التي يستعملونها وهم في البحر، أو على سطح السفينة؛ ولا أن العصا المطلوبة في مثل وضعي الحاليّ يجب أن يزيد طولها على ٣ ياردات على الأقل. وهكذا تعقّبت قطيعاً من العجول حتى طرف الشاطىء، ثم تقدمت نحو أحد الفحول أوّد ضربه. كنت أقدّر انه سيهرب، وكان يسرّني أن يهرب، مع أني ما جئت له إلا من أجل ألا يهرب، حتى أقتله وأسلخه. ولم يبدُ على الثور أنه يخشى من يتقدم نحوه! لقد ثبتَ مكانه لا يتحرك. بل زاد الأمرَ سوءاً أن التف حوله عدة بقرات كانت هي حريمه الخاص. وعندئذ كشّر الفحل عن أنيابه وكرّ عليّ. في تلك اللحظة ولّيت هارباً من أمامه، ولو بقيت في مكاني لمزّقني إرْباً إرْباً. ومن حسن الحظ ان «مود» هي التي لاحظت عدوانيته فصرخت عليّ أن أهرب. أما العصا التي كنت أحاول اتخاذها سلاحاً يساعدني في قتله فقد وقعتْ بين أنيابه، فتشظّت وتفتّت خشبها .

أهو الحفاظ على هيبته بين حريمه أم استنكار روح العدوانية لديّ هو الذي دفع الفحل الى هذه الفعلة!! ألا ترى أيها القارىء أن له الحق في أن يفعل ما فعل في الحالين!! لم يكن هو المعتدي. ولم تكن الروح التي يُقصد إزهاقها هي روحي أنا ...

شاهدتني «مود» هارباً ، ولم تبتسم ساخرةً، ولم تشمت. لقد سارعتْ الى القول؛ فيما كنت اقفز الى القارب: «يا له من وحشٍ فظيع! لو تأخرتَ لأهلكك. لا تحاول العبث مع أمثاله فيما بعد». وقلت :

ـ «ومن أين نأتي بالجلود لسقف الكوخ؟» .

ـ «عليك ان تهاجم العجول الضعاف المتخلفة على الصخور، بعيدا عن القطيع. إنها هي الذكور الهرمة التي طردها الفحول الأقوياء. حاول الحصول على عصا غليظة

طويلة واضرب رؤوسها من بُعد» .

أعجبتني الروح العملية عند هذه المرأة الرقيقة، وقررتُ الاستفادة منها أولَ ما تسنح الفرصة لكنّي آثرت الإبطاء في ذلك. من ثَم تابعت التجديف بالقارب بعيداً عن موطن قطيع العجول.

غداة اليوم التالي لاحظتُ بقعة سوداء بارزة فوق صفحة الماء على أميال معدودة قبالة الكوخ.. وقرّرتُ استكشاف الأمر، ويا لهول ما رأيت! كان هناك حطام «الشبح». لقد دمّرتها العاصفة العنيفة قبل ايام، فهجرها البحارة والصّيادون، بعد ان أخذوا كل ما يحتاجونه منها في قواربهم. لا بدّ أنهم قد نجوا، فالسفن المنشغلة بالصيد كثيرةٌ في هذه المنطقة هذه الأيام.

لقد مال الصاري الرئيسي على جنب السفينة وتحطّم الدقل، ولم يبقَ هناك شراع ولا كابينة.. بل إن الأواني الخفيفة من مطبخ «ماكريدج» كانت طافية في الماء الى جانب حطام السفينة .

وفكّرت .. لا بدّ أن نعثر أنا ومود على مؤونة تكفينا طوال الشتاء، فلا يُعقل أن يكون البحارة قد أخذوا كل شيء.. وفرحت بهذه الفكرة، لكنه سرعان ما تناوبني شعور بالحزن والأسى، اذ تذكرت أيامي على الشبح، فعزّ عليّ أن يكون مصيرها على هذه الشاكلة. أما سبَق ان سمعتُ أنها افضل سفن أساطيل الصيد قاطبة!! لكن، أواه من عتوّ المحيط! انه قاهر غادر! لقد استهزأتْ به خِبرةُ لارسن البحرية وصلابة صاري الشبح، فأخذ على نفسه أن ينتقم،وها هو قد فعل. وتذكرت ايضاً أيام بؤسي على ظهرها، لكن الإلفة عزيزة على كل حال. من ثَم غلبني الشعور بالأسى والرثاء. ومن العجيب انني لم اتذكر أحداً من البحارة ولا الصيّادين. وحين خطَر لي اسم ذلك السويدي الخشن، ما أسرع ان قفز الى مخيّلتي اسم وولف لارسن. عند ذاك ارتسمت صورته أمامي: ذراعه المفتولة كأمراس من الفولاذ، وصدره العريض الأشد صلابة من الحديد. وتذكّرت جسده المبدَع كإله إغريقي جميل .

لماذا أجدني الآن انجذب متأثراً بقوّته، قدرته العقلية والجسدية معاً. إنني لا أكرهه الآن، بل لا أُشفق على مصيره أيضاً، وإنما أحبُّه وأتمنّى أن يكون قد نجا من العاصفة. أما كان معروفاً عنه أنه يقهر العاصفة! لقد قهرته العاصفة آخر الأمر. لكن هل قهرته حقاً !

هنا طرقتني فكرةٌ ارتجفت لها فرائصي: هل يغادر القبطان سفينته حين تغرق أم يُغرق نفسه معها ويموت في عناق أبدي مع صواريها! ان لارسن هو الحياة في عنفوانها، ولن تخذله الحياة الآن، ومن الحياة نفسها ان يقضي عليها فيه. لكن.. افليس من الحياة أيضاً أن يُبقيها في جسده !

عند هذه الفكرة استولت عليّ الحيرة. ماذا لو كان لارسن الآن قابعاً في حطام الشبح!! مرّت بذهني هذه الخاطرة فأخذتني رهبةُ قبضته الفولاذية. وتساءلت: أما زال

شريراً رغم تغيّر الظروف! لا أظنه كذلك .

تصارعت في رأسي الأفكار بصدد لارسن .. هل يحاول الانتقام مني لو عَثر عليّ! وهل في مقدوره أن ينتقم! أنا الآن أقوى منه .. لكن القوة العضلية هي الحكم آخر الأمر.

رغم كل هذه المخاوف والتساؤلات جدّفت حتى بات القارب لِصق حطام الشبح.. وحاولتُ التسلق الى ما كان سطحا لتلك السفينة المنكوبة.. وهناك وقعت عيناي على ما اذهلني: لقد كان «ذئب البحار» موجودا .

نعم، شاهدته هناك. وأحسّ لارسن بوجودي، فالتفت صوبي وقال:
«مالك؟ هاجم.»

لفظ كلمة «هاجم» وفي نفسه قنوط ظاهر. وكان قد رأى ماسورتي بندقية الصيد التي معي موجهتين إليه. ولم أفعل، وان ظلت أصابعي على الزناد. لقد خشيت الوحش، وأفزعني إمكان تقلّب حاله بحيث يهاجمني هو. وقال:

ـ «ها أنت وجدتني، أعزل، عاجزاً، وأنت قوي مسلّح! لقد قدّرتُ أنك ستقف يوماً ما على قدميك يا همب، وها أنت فعلت. لقد دارت الأيام. أنا اقول لك لماذا لا تقتلني: ان المبادىء التي تزحم رأسك والأخلاقيات التي ظللت تعيشُ في جوّها قبل ان التقطناك على ظهر «الشبح» تحجزك من ان تفعل. أنت عاجز الآن، أما أنا فلا. اقتلني..».

والواقع انني هممت بالضغط على الزناد،لكنّي لم أجرؤ فعلاً. في تلك اللحظة تملّكني شعور عارم بكراهية القتل، حتى لو كانت روح لارسن هي التي ستزهق. قدّرت موقفي تجاه «مود» لو علمتْ بذلك وعرفتْ أنني ادّعيت الشجاعة وقتلت رجلاً أعزل. ألا تعتبرها انحطاطاً الى اقتراف الجريمة. وقلت:

ـ «لن أقلتك. أنتَ تعرف ذلك.»

ـ «اذن، أبعد هذا السلاح جانباً، فأنا أودّ ان اسألك بعض الاسئلة.»

ـ «ماذا تريد؟ ما الذي حلّ بالشبح؟»

ـ «لقد أخذَني «الموت لارسن» على حين غرّة. لم يكن البحارة ولا الصيادون على الشبح، وتآمر عليّ ماكريدج الطبّاخ. وهكذا قطعوا الصاري الرئيسي، وتاهت الشبح في البحر. وحين عاد البحارة تخلّوا عني، أخذوا أمتعتّهم وكل ما استطاعوا نهبه من السفينة وغادروها.»

ـ «وأين كنتَ أنت؟»

ـ «كنتُ تحت تأثير احدى نوبات الصداع العنيف الذي تعرفه يا همب، وقد تذكرتك حين عاودتُ وعيي. ولكن. كان كل شيء قد انتهى..»

ـ «وكيف تحطمت الشبح؟»

ـ «تقاذفتها الامواج بعد ان جُردت من الصاري، وتمزق الشراع الكبير، ولم استطع وحدي تفادي ذلك. من ثم ارتطمت السفينة بالصخور الصلبة وجنحت. وظلت العاصفة تصدمها بالصخور حتى تحطم السطح، وتناثرت الحبال والقواعد..»

لا أدري لماذا شعرت بالإشفاق عليه من جديد. كان يتكلم معي ويدير وجهه نحوي، لكنه يبدو أنه لم يكن يراني. آه!! لقد كان أعمى. أدركتُ ذلك لأنه لم يتقدم تجاهي خطوة واحدة. ولو كان يُبصر لانقضّ عليّ كالفهد الجائع بعد أن اطمأن الى أنني لن أطلق النار. وفكّرت.. ها هو الخصم العنيد قد جُرّد من أهم عونٍ لديه لسلاح عضلاته. فلماذا أقتله! انه لن يراني، ومن ثم لن يؤذيني. ما عليّ في هذه الحال لو سطوتُ على كل ما يمكن ان بقي في عنبر السفينة من المؤن والثياب، وما تركه البحارة من تجهيزات! انا و «مود» في حاجة ماسة الى كل شيء، فلماذا لا ننتفع بأي شيء نجده! ليس هذا سرقة ولا سطوا، فالذي نبقيه هـهنا سيتلفه البحر وتقذفه الامواج بين شعاب الصخور!

عدت ذلك اليوم الى «مود» وأنبأتها بكل شيء.. فارتاعت، لكنها قالت:

ـ «لا يجب ان نخشاه. بل ينبغي ان نراعي وضعه الجديد. دعه يقضي بقية أيامه على النحو الذي يشاء. نعم يجب الاحتراس من وحشيّته حين يتقلّب مزاجه، لكنّه لن يشكل خطراً على كل حال».

كان الجو بارداً في تلك الليلة، فدعتني مود الى المبيت في الكوخ. وكانت هذه أول ليلة أقضيها مع «مود» تحت سقف واحد. أقول «تحت سقف»، وقد نسيت ان اذكر انني كنت قد قتلت بعض فحول العجول بعصا غليـظة طويلة، وسلخت جلودها وفـردتها مـا بين الجدران الاربعة للكوخ. أما كان هكذا سيفعل كروزو؟

الآن كنت أنا و «مود» في بحبوحة: الطعام المعلّب وفير، واللحم مبـذول في الماء، وادوات المطبخ متيسّرة. وحتى الكبريت لإشعال النار كان ممكنا وأفضل من كل غذاء للجسد كان هنالك غذاء للروح.. الا وهو حبّ مود. لقد شاركتني التعرض للخطر، وآلام لحظات الضياع في المجهول، وانعدام أي أمل في مستقبل مستقر.. كل هذا حدث من قبل، اما الآن فقد تغيّر كل شيء. فلماذا لا نكون على طبيعتنا: رجلاً وامرأة يحبّان بعضهما، مهما كانت الظروف عاثرة!

ظللنا في ذلك الفردوس من مشاعر العودة الى الأمل بالحياة أسبوعاً كاملاً، ثم إنني ركبت القارب مع مود وجدّفنا الى حطام «الشبح». وقد تسلّقت «السطح» الغائر نصفه في الماء حتى بلغت ما كان مطبخاً. هناك وجدت وولف لارسن. كان جالساً، متهدل الذراعين، على جبينه قتامة الألم. كان يعاني احدى نوباته المتكررة.

واطمأنّت نفسي الى عجزه، فاقتربت منه. كنت أود الحديث معه، بل ومساعدته اذا استطعت. وبدا رقيقا في كلامه أول الحديث.. لكن وعيه من النوبة أخذ يتزايد.. وحين كنت على أقل من ذراع منه، مدّ يده اليسرى فأمسك بعنقي.. إنه يضغط، المجـرم يضغط، عيناي تجحظان! هو يريد قتلي.. لست نِدّاً له. لقد غامت الدنيا، وكادت تفاحة آدم في عنقي ان تنفجر.. لم أعد أرى شيئاً..

في تلك اللحظة تراخت قبضة لارسن وسقط. لقد ارتطم جسده بخشب السطح. وامتد ذراعاه مفتوحين على طولهما. اذن، دهمته النوبة من جديد.

وهكذا.. نجوت. وتطلعتُ صوب مود.. كان في يدها عصا غليظة مدّببة الرأس ترفعها في الهواء. أتراها هي التي ضربت لارسن على رأسه، ام ان صدفة النوبة هي التي كتبت لي الحياة من جديد! لست أدري. فكل ما همّني آنذاك أنني سليم معافى. بل يهمني أيضاً أن أجد «مود» تدافع عني. ولقد رأيتها على الصورة التالية:

إنها امرأة من نساء أجدادنا الأولين، المتوحشين، تعيش مع رفيق حياتها في كهف، هو كوخنا الآن. وقد وجدتْ عدواً يهاجم «رجلها» فدافعت عنه كما كانت أمهاتنا يفعلن في غابر العصور.

أحببت هذه الصورة من مود، وتحوّل حبّي غير المعلن لها الى التحام عاطفي كما أنه جسدّي أيضاً. ما أروع شعور التوحّد في مثل هذه الحال. وقالت مود:

- «والآن، ماذا تفعل مع الذئب؟ لقد غدر بك. ظلت وحشّيته هي الأصل. حتى ضعفه لم يؤثر فيها!»

- «لن أتيح له فرصة ثانية لممارسة تلك الوحشيّة أبداً»

- «وكيف؟»

- «سترين بعد قليل»

اخذتُ سلسلة حديدية لففت بها ساقي لارسن، وثانية لففتها حول كل من معصميه، وأسرعت الى ما كان مهجع الصيادين. هناك وجدت قفل الجنزير الذي كان يُطْبقه لارسن عندما يود معاقبة احد. فجئت به وصفّدته هو. وهكذا بات لارسن موثق اليدين والرّجلين. الآن لن يستطيع ان يؤذي أحداً: لا «همب» ولا «مود».

فعلتُ ذلك كله وهو لا يزال في غيبوبته. وبعد هذا هبطتُ سلّم السفينة الى الكابينة، حيث سلبتُ كل ما كنا في حاجة اليه. وقد نظرت اليّ مود باسمة وهي تقول:

- «حتى النهب، لا نتورع عنه عند الحاجة!»

- «ليس هذا نهباً يا مود: فلو لم نأخذه لأفسده الماء المالح. ألا ترين أننا أحق منه به»

- «بلى، لكنني أود المداعبة.»

وغادرنا السفينة الآن مبتهجين، وعدنا الى الكوخ. وحين حاولت تحضير وجبة طعام احتجّت مود قائلة:

- «لا تعتدِ على مجال الغير يا فان ويدين. الطعام من اختصاصي أنا»

في اليوم التالي قلت لـ مود:

- «هل يموت لارسن لو طالت غيبوبته؟»

- «ان مثله لن يموت. سيصحو، وسيجد نفسه موثقاً بالسلاسل. ولن تعوقه تلك السلاسل عن الحركة. سيهتدي الى الطعام، لكنه يظل عاجزا عن ايذاء الغير.»

والواقع أنني كنت حائراً. فأنا لا أريده أن يموت.. لكنني لا أريد أن اموت انا أيضاً. لذلك طوّلت له السلاسل بحيث يتمكن من الحركة.

انقضت بضعة أيام لم أجدّف في اثنائها الى «الشبح». لقد شَغَلني إصلاح الدقل الصغير ومحاولة إعادة تركيبه في محل الصاري الرئيس وإعداد «الشبح» كي تنزلق على الماء من جديد. وقد تم لي إصلاح الدقل بالفعل، وعانيتُ الكثير من المشقة قبل ان استطعت تثبيته. ومن مزق الأشرعة الصغيرة صنعت شراعاً كبيرا. وعلى هذه الصورة عُدت ذات مساء الى مود في الكوخ حيث قلت:

ـ «سأحاول إعادة الشبح الى البحر يا مود. إنها لنا الآن، وبمقدورنا اذا نجحت المحاولة ان لا نقضي الشتاء في هذا المكان المقفر إلا من صغار العجول. بل حتى هـذه ستغادر الموقع بعد قليل. اذ ذاك نبقى أنا وأنت وذلك المسخ.. أعني «كاليبان» سجين حطام «الشبح»».

ـ «وماذا نفعل به؟»

ـ «سأرى ما حلّ به غداً.»

وفي الغد قصدت الكابينة. لكنني لم أجد أحداً. لقد استطاع ان يصعد الى السطح، ومن هناك قفز الى الماء.. فمات. وألقى الموج جثته الى الشاطيء. كان متخشّباً يغمره المدّ حيناً وينحسر الجزر عنه حيناً آخر.

رأيته، فاستولت عليّ الحَسْرة وأخذتني العِبْرة، بل ذرفتُ عليه عَبَرات. لقد هلك في البحر، دون جُنّاز ولا دعاء من إنجيل. كان لارسن ابن البحر فابتلعه البحر. اما الجنّاز والدعاء فما كان في حياته يؤمن بهما، ولا هو في حاجة اليهما الآن.. كان يمثل عنف صراع البقاء، وها هو صراع البقاء قد صرعه. لو كان على اليابسة لقال له ملقّن الأموات: «من التراب خُلقتم والى التراب تعودون»، اما هنا فلربما تمتم لنفسه قبل ان يموت: «على موجة ولدتني أمي، ومن بحر مالح هائج قد رضعت، وفي بطن موجتين أجعل لي قبراً».

ولا أظن السمك سينهشه، فقد كان في حياته أعتى من سمكة القِرش، لكني لا أنسى أنني أقول «لقد كان».. وهذه الصيغة من الفعل عنوان على الفناء..

مالي استطردت مع موت لارسن. أتراني مازلتُ أَرهبه حتى وهو رمّة ملقاة على سيف البحر! ربما.

عُدت بهذا الخبر إلى مود.. فلم ألحظ عليها أي تأثر بواقع الحال. لقد أطرقت لحظة ثم قالت:

ـ «دعنا منه. هل تأمُل حقاً أن تنجح في إصلاح الشبح؟»

ـ «نعم، بل لم يبق عليّ إلا شدّ الصاري حتى يعتدل بدن السفينة، ومن ثم أنتفع باندفاع الريح وتأخذ «الشبح» الوضع اللازم. وحتى لو لم أنجح في المحاولة فسأجعل من مقدمتها قارباً نُبحر فيه».

ولن أطيل الحديث، فقد أبحرنا نهاراً وليلة لا أكثر، ثم التقطتنا سفينة تجارية عادت بنا الى محطة في ألاسكا، وانتقلنا منها الى كاليفورنيا. وهناك وصلنا ما انقطع من حياتنا من جديد.



ذئب البحار

« انني قد ارتفع بروحي واسمو بها الى مختلف الامداء والمجالات، اما وليس هناك امامي شيء ازلي الا الموت ـ مطروحا امام هذه الخميرة المتحركة الصارخة التي يسمونها الحياة ـ فما الذي يدعوني للقيام باي تصرف او فعل يكون من قبيل التضحية ؟ ان اية تضحية يترتب عليها ان اضيع خطوة واحدة او حركة واحدة لصالحي ـ لهي جنون خالص، بل ليست جنونا فحسب، وانما هي خطيئة ارتكبها تجاه نفسي. يجب عليّ الا افقد خطوة او حركة اذا ما اردت ان استغل الخميرة التي فيّ، اعني حياتي، استغلالا كاملا ».

هذا ما يقوله « وولف لارسن »، القبطان العصامي العجيب، الذي يمثل صراع البقاء في اجلى واعمق صورة، حيث على موجة ولدته امه، ومن بحر مالح هائج رضع، وسيحفر قبره بين موجتين.

شخصية فذة من تلك الشخصيات التي لا تمحى من الذاكرة، يصورها لنا « جاك لندن »، متخذة من « مبدأ القوة » الذي نادى به « نيتشه » عقيدة واسلوب حياة، جارفة في طريقها الضعف والضعفاء، ماضية بيأس وتصميم صوب.. صوب ماذا ؟ !

لندع الذئب لارسن، ونقائضه الانسانية يقصون علينا هذه المغامرة الحياتية الفلسفية الغريبة، وهم في عرض البحر، على متن « الشبح »، سفينتهم الجامعة.

دار منارات للنشر
هاتف ٦٦١٣٢٨ ص ب ٩٢٥٠٦٢ عمان ـ الأردن